في ظلّ أصول الإسلام

دراسة شاملة لمسألة

التوحيد والشرك والبدعة

في ضوء الأصول المستفادة من الكتاب والسنة

محاضرات

العلامة الأستاذ المحقق

الشيخ جعفر السبحاني

بقلم

جعفر الهادي

مؤسسة الإمام الصادق عليه السلام

في ظل أُصول الإسلام

دراسةٌ شاملةٌ لمسألةِ

التوحيدِ والشركِ والبدعةِ

وقضيةِ الاستشفاعِ والتوسّل والزيارة

وغيرها

في ضوء الأُصول المستفادة من الكتاب والسنّةِ

مُحاضراتُ

العلاّمة الأُستاذ المحقّق

الشيخ جعفر السبحاني

بقلم

جعفر الهادي

هــويــة الكتــاب

- اسم الكتـــاب: .... في ظل أُصول الإسلام
- الموضـــــوع: .... دراسة شاملة لمسألة التوحيد والشرك وفروعهما
- محاضـــــرات: العلاّمة الأُستاذ المحقّق الشيخ جعفر السبحاني
- بقلـــــــم: جعفـر الهادي
- الطبعة الأُولى: عام ١٤١١ هـ
- الطبعة الثانية: عام ١٤١٤ هـ
- النـــــاشر: مؤسسة الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ للتحقيق والتأليف
- العــــــدد: ٥٠٠٠ نسخة
- الصفّ والإخراج باللاينوترون: .... مؤسسة الإمام الصادق ـ عليه السّلام ـ قم

توزيع

مكتبة التوحيد

قم ـ ساحة الشهداء ـ ☎ ٢٣١٥١

في ظل أُصول الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على نبيّه وآله

وعلى رواة سنّته وحملة أحاديثه وحفظة كلمه.

المقدّمة:

تمرّ الأُمّة الإسلامية اليوم بأشدّ مراحل حياتها، وأحلك أحقاب تاريخها.

فالأعداء تكالبوا عليها من كل جانب، واستضعفوها واستذلوها، وأمعنوا في نهب خيراتها وسلب طاقاتها وتمزيق بلادها، وتحطيم مواهبها، وقتل مجاهديها، وأبنائها.

ففي كل بلد مجازر ومذابح، وفي كل مكان سجون ومحابس، وفي كل موطن فتن وقلاقل، تدور رحاها على المسلمين دون غيرهم، وتأخذ

ضحايـاهـا من علمائهـم العـاملين، وشبـابهم المتـدينين، وتُنتهـك فيهـا الأعـراض، وتُـداس فيهـا الكـرامـات، والجميـع ينـادي: المستغـاث بـالله، ويصرخ: يا للمسلمين ولا من مُغيث ولا مُعين.

كل هـذا يُحتّم على علماء الأُمّـة أن يشمّـروا عن سـاعد الجدّ، لإنقـاذ المسلمين، وإزالة هذه المحنـة وإصلاح هذه الحالة ورفـع هذا الضيم، ودفع هذا الحيف.

ومَن أحرى منهم وهم الذين قال عنهم رسول الله ﷺ : «العلماء ورثة الأنبياء». «العلماء أُمناء الرسل». «العلماء قادة».

ومن أحـرى منهم وهـم يملكـون النفوذ والقـدرة، والسلاح والقـوّة ... سـلاح البيان، وقـوّة الجنـان، والنـاس لهم مطيعون إن أمـروا، والحكّـام لهم مسلِّمون إن نهوا، والمستعمرون خائفون، هاربـون إن أقدموا وأخلصوا وقاموا بمسؤوليتهم.

ولما كـان هـذا يتوقّـف على إزاحـة الشبهـات، وتوضيـح الغـوامض، والتمهيد للـوحدة والاجتماع قمنا بتحريـر أُصول الوحدة الإسـلامية في مجال التوحيـد والشرك، الذي أصبح اليوم الشغـل الشاغل، والسلاح الفـاعل في إيجاد الاختـلاف في صفوف المسلمين، نقـدّمهـا إلى العلماء المخلصين، ليروا فيها رأيهم، ويناقشوها وهي لا تتجاوز الكتاب والسنّة، وآراء علماء الأُمّة من السلف الصالح، والعقل الحصيف ... ولا تهدف إلّا مصلحة الأُمّة، وحقن دمائها، وصيانة كرامتها ولمّ شعثها، وتوحيد صفّها.

بلى والله إنّها مسـؤوليـة العلماء فعليهم أن ينظـروا في هـذه الأُصـول،

ويضعوا حدّاً لتكفير المسلمين، وعزل هذه الطائفة الكبرى أو تلك، عن جسم الأُمّة الإسلامية، والأُمّة أحوج ما تكون إلى تجميع قواها، ورصّ صفوفها، وتشكيل جبهة إسلامية واحدة تضع حدّاً لاعتداءات شُذّاذ الآفاق وأعداء الإسلام.

ومما تسبب في اتساع شقّة الخلاف بين المسلمين في العصر الحاضر، ظهور فريق ذهب إلى:

١ـ إنكار ما ورد حول زيارة الرسول الأكرم من الروايات، وبالتالي نفس الزيارة تلويحاً.

٢ـ تحريم السفر إلى زيارة قبر الرسول وسائر الأنبياء والأولياء.

٣ـ تحريم البناء على قبور الأنبياء والصالحين.

٤ـ تحريم بناء المساجد على مشاهدهم.

٥ـ تحريم الصلاة والدعاء في مشاهدهم وعند مراقدهم.

٦ـ تحريم التبرّك والاستشفاء بآثار الرسالة والرسول.

٧ـ تحريم التوسّل بالأنبياء والأولياء بصوره المختلفة.

٨ـ تحريم الاستعانة بهم بعد رحيلهم.

٩ـ تحريم طلب الشفاعة من النبيّ ﷺ.

١٠ـ تحريم الحلف بغير الله كالنبيّ ﷺ والقرآن والكعبة.

١١ـ تحريم إحلاف الله بحقوقهم وسؤاله كذلك.

١٢ـ تحريم النذر للنبيّ والأولياء.

وهي أُمور لا يذهب إليها المسلمون بل يذهبون إلى عكسها، من أقدم العصور الإسلامية، والمشكلة أنّ موقف هذا الفريق لم ينحصر في تحريم هذه الأُمور ووصفها بأنّه شرك أو بدعة فحسب بل كفّروا من قام بهذه الأعمال وقالوا بوجوب استتابته وإلاّ يُقتل ويهرق دمه، وبالتالي كفّروا جميع المسلمين سنّيهم وشيعيّهم، وبما أنّهم لم يضعوا حدّاً منطقياً للتوحيد والشرك، حسبوا كثيراً من هذه الأُمور شركاً في العبادة وأنّها عبادة لصاحب القبر، كعبادة المشركين أصنامهم.

وربّما يقولون إنّ بعض هذه الأُمور دون الشرك في العبادة، بل هي بدع في الدين، وما وصفوه بدعة ليس إلاّ لأنّهم لم يعرّفوا البدعة بتعريف واضح.

ونحن بفضل الله تبارك وتعالى عالجنا هذه المسائل في ظلّ أُصولٍ مستلهمةٍ من الكتاب الكريم والسنّة الطاهرة ونحن ندعو هذا الفريق عامّة وعلماءهم خاصّة أن يُمعنوا النظر في هذه الأُصول حتى يتميّز الموحّد عن المشرك والمبدع عن المتشرّع.

بل نحن نقترح عليهم أن يعقدوا مؤتمراً إسلامياً لمناقشة هذه المسائل عامّة وفي تحديد التوحيد والشرك خاصة حتّى يتميّز الحقُّ وتظهر الحقيقة للشاكّين والمرتابين كافّة، وأنا أُقدّم رسالتي هذه:

إلى العلماء المخلصين في رابطة العالم الإسلامي بمكّة المكرمة.

إلى الذين يهمّهم شأن الأُمّة الإسلامية، ويحبّون أمنها، وسعادتها.

إلى الذين يُحزنهم أن تبقى الأُمّة الإسلاميّة متفرّقةً متشتّتةً.

أرفع كتابي هذا الذي أوضحنا فيه أُصول الوحدة الإسلامية المنشودة، وأُهيب بهم أن يتدارسوها بموضوعيّة، ويتأمّلوا فيها بعناية، عسى أن يفتح الله به وبهم باباً من الخير والصلاح في وجوه المسلمين. وما توفيقنا إلاّ بالله، عليه توكّلنا وإليه أنبنا وإليه المصير.

اللّهمّ احقن بنا دماء المسلمين

اللّهمّ صُن بنا كرامتهم

اللّهمّ وحّد بنا صفوفهم

اللّهمّ أشدد بنا أزرهم

آمين ربّ العالمين

قم المقدَّسة ـ الحوزة العلمية

١٠ شهر ذي الحجّة الحرام ١٤١٠ من الهجرة النبويّة

جعفر الهادي

١

بساطةُ العقيدة ويسرُ التكليف في الإسلام

- أركان الإسلام في الكتاب والسنّة.
- النهي عن تكفير المسلم في السنّة.
- الإسلام ووحدة المسلمين.
- موقف علماء الإسلام من تكفير المسلم.
- ما يترتّب على هذا الأصل.

جاء رسول الإسلام ﷺ لنشر التوحيد ومكافحة الوثنية والدعوة إلى الاعتقاد باليوم الآخر، كما جاء بمجموعة من الفرائض والمحرّمات التي تضمن إسعاد الإنسان في الدارين وتكفُل خيرَه، ورُقيّه.

وقد كان لانتشار الدين الإسلامي في المجتمعات البشرية بصورة سريعة وواسعة، أسباب وعلل منها: بساطة العقيدة ويسر التكاليف في هذا الدين.

فالعقيدة التي عرضها سيّدُ المرسلين على البشر لم تكن عقيدة معقّدة

كما هـو الحال في العقيـدة النصرانيـة التـي لا يستطيع المتـديّـن بها أن يفسر مسألة التثليث والأقانيم الثلاثة فيها.

فالعقيدة الإسلامية في خالق الكون والإنسان تتمثّل في سورة التوحيد: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ * اللهُ الصَّمَـدُ * لَـمْ يَلِدْ وَلَـمْ يُولَدْ * وَلَـمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَدٌ﴾.

وكان الإسلام ولا يزال يقنـع من المسلم في مجال الاعتقاد، بهذا القدر، ولم يُلزم الوحيُ ولا العقلُ أحداً بالغور في المسائل العقلية الفلسفية، ولم يجعل الإيمان دائراً مدارها أبداً.

وأمّا يسر التكـاليف وسهـولة الشريعـة فحدّث عنهما ولا حـرج، وقد أشار إليها الكتاب العزيز بقوله:

﴿ما جَعَلَ عَلَيْكُمْ في الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِلَّـةَ أَبيكُمْ إِبْراهِيمَ هُوَ سَمَّـاكُمُ المُسْلِمِينَ مِن قَبلُ﴾ [١].

﴿مَا يُريدُ اللهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ﴾ [٢].

﴿يُريدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْـرَ ولا يُريدُ بِكُمُ العُسْـرَ﴾ [٣].

﴿رَبَّنا ولا تَحْمِلْ عَلَيْنا إصْـراً كَما حَمَلْتَهُ عَلَـى الَّذِينَ مِن قَبْلِنا﴾ [٤].

١ـ الحجّ: ٧٨.

٢ـ المائدة: ٦.

٣ـ البقرة: ١٨٥.

٤ـ البقرة: ٢٨٦.

فهـذه الآيـات تصرّحُ بأنّ الله تعـالى رفع عـن أُمّة محمّـد الآصـار، ولم يفرض عليهم حكماً حرجيّاً صعباً، ممّا كان في الأُمم الماضية.

وقـد ورد في حـديث عـن النبيّ ﷺ أنّـه قـال: «مما أعطى الله أُمّتـي وفضّلهم على سائر الأُمـم أعطاهم ثلاث خصال لم يعطها إلاّ نبي، وذلك أنّ الله تبـارك وتعالى كـان إذا بعث نبيّاً قـال لـه: اجتهد في دينك ولا حَـرَجَ عليك، وإنّ الله تبـارك وتعـالى أعطى ذلـك أُمّتي حيث يقـول: ﴿مَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِن حَرَجٍ﴾ يقول: من ضيق» [١].

وظاهـر هذا الحديـث أنّ رفع الحرج الذي مـنّ الله به على هـذه الأُمّة المرحومة كان في الأُمم الماضية خاصّاً بالأنبياء وأنّ الله أعطى هذه الأُمّة ما لم يُعطِ إلاّ الأنبياء الماضين (صلوات الله عليهم أجمعين).

وسُئِل علي -عليه السلام- : أيُتوضّأ من فضلِ وضـوء جماعة المسلمين أحبُّ إليك أو يتوضّأ من ركوٍ أبيضٍ مخمّـر؟ فقال: «لا ، بل من فضلِ وضوء جماعة المسلمين ، فإنّ أحبّ دينكم إلى الله الحنيفية السمحة السهلة» [٢].

واشتهـر عـن رسـول الله ﷺ قـولـه: «بُعثـتُ بـالحنيفيّـة السمحـة السهلة» [٣].

وللتأكد من هذه الحقيقة ينبغي أن نستعرض أركان الإسلام التي يكفي تحقّقها لتحقّق عنوان المسلم، وصدقه على الشخص.

١ـ البرهان ٣/ ١٠٥ . يراجع بقية الحديث في المصدر المذكور.

٢ـ الوسائل: أبواب النجاسات، الباب ٥٠، الحديث ٣.

٣ـ الكافي ١ : ١٦٤.

أركان الإسلام في ضوء الكتاب والسنّة:

لقد كان رسول الله ﷺ يقنع في قبول الإسلام من الذين يريدون الانضواء تحت رايته، والإيمان به وبرسالته، بالشهادتين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة، فإذا فَعَلها أحدٌ حُقن دمه وعِرضه ومالهُ وكان له ما للمسلمين وعليه ما عليهم. وقد قامت سيرة النبي ﷺ هذه على أصلٍ قرآنيٍ ثابت حيث يقول الله تعالى:

﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَنْ أَلْقَىٰ إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِناً﴾ (١).

وجاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ: قال رسول الله ﷺ : «بُني الإسلام على خمس، شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنَّ محمداً رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحجّ، وصوم رمضان» (٢).

بل كان ﷺ يكتفي بأقل من هذا، رغم سعة رقعة التكاليف الإسلامية، وكثرة جزئياتها وتفاصيلها.

فقد أخرج البخاري ومسلم في باب فضائل علي ـ عليه السلام ـ أنّه قال رسول الله ﷺ يوم خيبر: «لأُعطينّ هذه الرايةَ رجلاً يحبّ اللهَ ورسوله يفتح الله على يديه».

قال عمر بن الخطاب: ما أحببتُ الإمارة إلاّ يومئذٍ، قال: فتساورتُ لها رجاءَ أن أُدعى لها، قال فدعى رسول الله ﷺ عليَّ بن أبي طالب فأعطاه

١ـ النساء: ٩٤.

٢ـ صحيح البخاري ج ١ كتاب الإيمان.

إيّاها، وقال: «إمشِ ولا تلتفت حتّى يفتح الله عليك» فسار «عليٌّ» شيئاً ثم وقف ولم يلتفت وصرخ: يا رسول الله على ماذا أُقاتل الناس؟

قال ﷺ : «قاتِلهُمْ حتى يشهدوا أن لا إله إلاّ الله وأن محمَّداً رسول الله، فإذا فعلوا ذلك فقد منعوا منك دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم على الله»(١).

قال الشافعيّ في كتاب «الأُم» عن أبي هريرة، أنّ رسول الله ﷺ قال: «لا أزال أُقاتل الناس حتّى يقولوا لا إله إلاّ الله فإذا قالوا لا إله إلاّ الله فقد عصمُوا منّي دماءَهم وأموالهم إلاّ بحقّها وحسابهم على الله».

قال الشافعي: فأعلَمَ رسول الله أنّ فَرَضَ الله أن يقاتلهم حتّى يُظهروا أن لا إله إلاّ الله فإذا فَعَلوا مَنَعوا دماءهم وأموالهم إلاّ بحقّها، يعني إلاّ بما يحكمُ الله عليهم فيها وحسابهم على الله بصدقهم وكذبهم وسرائرهم، اللهُ العالم بسرائرهم، المتولّي الحكم عليهم دون أنبيائه وحكّام خلقه، وبذلك مضت أحكام رسول الله فيما بين العباد من الحدود وجميع الحقوق، وأعلَمَهُمْ أنَّ جميع أحكامه على ما يظهرون وأنّ الله يدين بالسرائر(٢).

قال، قال رسول الله ﷺ : «من شهد أن لا إله إلاّ الله واستقبل قبلتنا وصلّى صلاتنا وأكل ذبيحتنا فذلك المسلمُ له ما للمسلم، وعليه ما على المسلم»(٣).

١ـ صحيح البخاري ج٢، مناقب عليّ ـ عليه السلام ـ، وصحيح مسلم ج٦ باب فضائل عليّ ـ عليه السلام ـ.

٢ـ الأُم ٧: ٢٩٦ـ٢٩٧.

٣ـ جامع الأُصول ١: ١٥٨ـ١٥٩.

وقال: قال رسول الله ﷺ روى أنس قال: أنّ رسول الله ﷺ قال: «أُمرت أن أُقاتل الناس حتّى يقولوا: لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله فإذا شهدوا أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله واستقبلوا قبلتنا وأكلوا ذبيحتنا وصلُّوا صلاتنا، حرمت علينا دماؤهم وأموالهم إلاّ بحقّها» .

كل هذه الأحاديث تصرّح بأنّ ما تُحقَن بـه الدماء وتُصان به الأعراض ويدخل به الإنسان في عداد المسلمين هو الاعتقاد بتوحيده سبحانه ورسالة الرسول، وهكذا يتّضح ما ذكرناه من بساطة العقيدة وسهولة التكاليف الإسلامية.

النهي عن تكفير المسلم في السنّة:

ثمّ إنّه قد وردت أحاديث كثيرة تنهى عن تكفير المسلم الذي أقرّ بالشهادتين فضلاً عمّا إذا كان يمارس الواجبات الدينية، وإليك طائفة من هذه الأحاديث:

قال رسول الله ﷺ :

١ ــ «بُني الإسلام على خصال: شهادة أن لا إله إلاّ الله وأنّ محمّداً رسول الله والإقرار بما جاء من عند الله، والجهاد ماضٍ منذُ بعث رُسُله إلى آخر عصابة تكون من المسلمين ... فلا تكفّروهم بذنبٍ ولا تشهدوا عليهم بشركٍ».

٢ـ «لا تكفّروا أهل ملّتكم وإن عملوا الكبائر» [١].

١ـ نعم فعل الكبائر يوجب العقاب لا الكفر.

٣ـ «لا تكفّروا أحداً من أهل القبلة بذنب و إن عملوا الكبائر».

٤ـ «بُني الإسلام على ثلاث: ... أهل لا إله إلاّ الله لا تكفّروهم بذنب ولا تشهدوا لهم بشرك».

٥ـ عن أبي ذرّ: أنّه سمع رسول الله ﷺ يقول: «لا يرمي رجلٌ رجلاً بالفسق أو بالكفر إلاّ ارتدّت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك».

٦ـ عن ابن عمر: أنّ رسول الله ﷺ قال: «مَن قال لأخيه يا كافر فقد باءَ بها أحدهما».

٧ـ «مَن قذف مؤمناً بكفرٍ فهو كقاتِلِه، ومن قتل نفسه بشيء عذّبه الله بما قَتَل».

٨ـ «من كفّر أخاه فقد باء بها أحدهما».

٩ـ «إذا قال الرجل لأخيه يا كافر فهو كقتله، ولعنُ المؤمن كقتله».

١٠ـ «أيّما رجل مسلمٍ كفّر رجلاً مسلماً فإن كان كافراً و إلاّ كان هو الكافر».

١١ـ «كُفّوا عن أهل لا إله إلاّ الله لا تكفّروهم بذنبٍ فمن أكفر أهل لا إله إلاّ الله فهو إلى الكفر أقرب».

١٢ـ «أيّما امرئ قال لأخيه يا كافر، فقد باء بها أحدهما إن كان كما قال و إلاّ رجعت عليه».

١٣ـ «ما أكفر رجل رجلاً قطّ إلاّ باء بها أحدهما».

١٤ـ «إذا قال الرجلُ لأخيه يا كافر فقد باء به أحدُهما إن كان الذي

قيل له كافراً فهو كافر، وإلاّ رجع إلى من قال».

١٥ـ «ما شَهِد رجلٌ على رجل بكفر إلاّ بـاء بها أحدُهما إن كان كافراً فهو كما قال وإن لم يكن كافراً فقد كفر بتكفيره إيّاه».

١٦ـ عن عليّ: في الـرجل يقول للرجل: يا كـافر يا خبيث يا فـاسق يا حمار قال: «ليس عليه حدّ معلومٌ، يعزّر الوالي بما رأى»[1].

الإسلام ووحدة المسلمين:

هذا مضافاً إلى أنّ الإسلام يـؤكّد على وحدة المسلمين ونبذ كل ما يهدم هذه الوحدة من التهمة والظنّة والغيبة والتكفير والتفسيق، والنميمة.

وإليك نبذة ممّا جاء في الكتاب العزيز والسنّة المقدّسة من الترغيب في الاجتماع والأُلفة، قال الله تعالى:

١ـ ﴿إنّما المُؤمِنُونَ إخوَةٌ﴾[2].

٢ـ ﴿والمُؤْمِنُونَ والمُؤْمِناتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾[3].

٣ـ ﴿ محمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ على الكُفّارِ رُحماءُ بَيْنَهُمْ﴾[4].

٤ـ ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّـذِينَ تَفَرَّقُوا وَٱخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَـا جَاءَهُمُ ٱلْبَيِّنَاتُ

١ـ هذه الأحـاديث مبثوثة في جـامع الأُصول ج١، و ١٠ و١١ كما أنّها مجموعة بـأسرها في كنز العمال للمتقّي الهندي ج١.

٢ـ الحجرات : ١٠.

٣ـ التوبة: ٧١.

٤ـ الفتح: ٢٩.

وَأُوْلَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [١].

٥ـ ﴿وَٱعتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ [٢].

٦ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعاً لَسْتَ مِنْهُمْ في شيءٍ إِنَّما أَمْرُهُمْ إِلى اللهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [٣].

٧ـ ﴿يَا أَيُّها النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِن ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعارَفُواْ﴾ [٤].

هـذا من الكتـاب وأمّا السنّـة فإليـك طائفـة من الأحـاديث في هـذا المجال:

١ـ قـال رسول الله ﷺ: «لا تدخلـون الجنّة حتى تؤمنوا ولا تـؤمنون حتّـى تحابّـوا، أوَلا أدلّكـم على شيء إذا فعلتمـوه تحاببتـم، أفشـوا السـلام بينكم» [٥].

٢ـ قال ﷺ: «الـدين النصيحـة؟ قالـوا: لمن يـا رسول الله؟ قـال لله ولكتابه ولرسـوله ولأئمّة المسلمين ولعامّتهم والذي نفسي بيـده لا يؤمن عبد حتّى يُحبّ لأخيه ما يحبّ لنفسه» [٦].

٣ـ «ذمّة المسلمين واحدة يسعى بها أدنـاهم وهم يد على من سواهم،

١ـ آل عمران: ١٠٥.

٢ـ آل عمران: ١٠٣.

٣ـ الأنعام: ١٥٩.

٤ـ الحجرات: ١٣.

٥ و ٦ـ كنز العمال ج ١٥: ٨٩٢ و ج ٣: ٤١٣.

فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يُقبَل منه يوم القيامة صرف ولا عدل»[١].

٤ـ «إيّاكم والظنّ فإنّ الظنّ أكذب الحديث ولا تجسسوا ولا تناجشوا ولا تحاسدوا ولا تدابروا ولا تباغضوا وكونوا عباد الله إخواناً ولا يحلّ لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيّام»[٢].

٥ـ «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسلمه ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ومن فرّج عن مسلم كربة فرّج الله عنه يوم القيامة».

إلى غير ذلك من الأحاديث الحاثّة للمسلمين على الوئام والتآلف والتوادد ونبذ الفرقةوالاختلاف، والتشاجر والتشاحن، والطرد والإقصاء[٣].

موقف علماء الإسلام من تكفير المسلم:

وقد تشدّد علماء الإسلام في تكفير المسلم ونهوا عنه بقوّة، وبالغوا في النهي عنه.

قال ابن حزم حيث تكلّم فيمن يكفّر ولا يكفر[٤]: وذهبت طائفة إلى أنّه لا يكفَّر ولا يفسَّق مسلم بقول قاله في اعتقاد أو فُتيا، وأن كلّ من اجتهد في شيء من ذلك فدان بما رأى أنّه الحق فإنّه مأجورٌ على كلِّ حال، إن أصابَ

١ـ المستدرك للحاكم ٢ : ١٤١ ومسند أحمد ١: ١٢٦ و١٥١.

٢ و٣ـ كنز العمال ١٦: ٨٦ و ١: ١٥٠.

٤ـ الفصل بين الأهواء والملل والنحل ٣: ٢٤٧.

فأجران، وإن أخطأ فأجرٌ واحدٌ.

(قال): وهذا قول ابن أبي ليلى وأبي حنيفة والشافعي وسفيان الثوري وداود بن علي، وهو قول كل من عرفنا له قولاً في هذه المسألة من الصحابة (رض) لا نعلم منهم خلافاً في ذلك أصلاً.

وقال شيخ الإسلام تقي الدين السُبكي: إنّ الإقدام على تكفير المؤمنين عَسِر جداً، وكُلّ من كان في قلبه إيمان يستعظم القولَ بتكفير أهل الأهواء والبدع مع قولهم لا إله إلاّ الله، محمّد رسول الله، فإنّ التكفير أمرٌ هائل عظيم الخطر (إلى آخر كلامه وقد أطال في تعظيم التكفير وتفظيع خطره)[1].

وكان أحمد بن زاهر السرخسي (وهو أجل أصحاب الإمام أبي الحسن الأشعري) يقول: لمّا حَضَرَتِ الشيخَ أبا الحسن الأشعري الوفاةُ بداري في بغداد أمرني بجمع أصحابه فجمعتُهُم له فقال: إشهَدوا عليَّ أنّني لا أُكفِّرُ أحداً من أهل القبلة بذنبٍ، لأنّي رأيتهم كلّهم يشيرون إلى معبودٍ واحدٍ، والإسلام يشملهم ويعمّهم[2].

وقال القاضي عبد الرحمان الايجيّ: جمهور المتكلّمين والفقهاء على أنّه لا يكفَّر أحد من أهل القبلة ـ ثمّ استدلّ قائلاً ـ: إنّ المسائل التي اختلف فيها أهل القبلة من كون الله تعالى عالماً بعلم، أو موجداً لفعل العبد أو غير متحيّز ولا في جهة ونحوها لم يبحث النبي ﷺ عن اعتقاد من حكم باسلامه فيها ولا الصحابة ولا التابعون، فعلم أنّ الخطأ فيها ليس قادحاً في حقيقة

١ و ٢ ـ اليواقيت والجواهر: ٥٨.

الإسلام[١].

وقال السيد محمّد رشيد رضا: إنّ من أعظم ما بُليَت به الفرق الإسلامية رمي بعضهم بعضاً بالفسق والكفر مع أنّ قصد الكلِّ الوصول إلى الحق بما بذلوا جهدهم لتأييده، واعتقاده والدعوة إليه، فالمجتهد وإن أخطأ معذور ...[٢].

ما يترتب على هذا الأصل:

إذا كان الكتاب والسنّة يكتفيان في الحكم على الشخص بالإسلام بذكر الشهادتين وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم شهر رمضان، والحجّ وما مرّ عليك في الحديث المنقول عن البخاري وغيره، فيجب علينا:

١ـ الحكم بأنّ جميع الفرق الإسلامية ـ إلاّ من قام الدليل القطعي على كفره ـ يندرجون تحت عنوان الإسلام، وحكمه، ولا يصحّ لأحد أن يكفّر أحداً فرداً أو طائفة بمجرّد أنّه يرتكب عملاً صحيحاً مشروعاً وغير شرك عنده، غير صحيح وغير مشروع بل شرك عند المكفّر.

إنّ النبيّ الأكرم ﷺ كان يقبل إسلام من اعترف بوحدانية الإله ورسالة نبيّه الخاتم من دون أن يسأله عن الأُمور التي زعم ابن تيمية أنّها شرك في العبادة، وتأليه لغيره سبحانه، مع شيوع هذه الأُمور بين الأُمم

١ـ المواقف ص ٣٩٣، طبعة القاهرة، مكتبة المتنبي ، لاحظ ذيل كلامه ترى أنّه يستدل على أنّه لا يجوز تكفير أية فرقة من الفرق الإسلامية إذا اتفقوا على أصل التوحيد والرسالة.

٢ـ تفسير المنار ١٧: ٤٤.

المتحضّرة في الشامات واليمن آنذاك.

ولو كان الاعتقاد بحرمتها والاجتناب عنها عملاً، من مُقوّمات الإيمان والإسلام لكان على النبي ﷺ التصريح بذلك، ولو مرّة واحدة عند وفود الأُمم عليه ودخولهم في دين الله بأن يقول: وعليك أن تترك:

البناء على القبور من غير فرق بين الصالح وغيره.

وبناء المساجد على قبور الصالحين.

والصلاة والدعاء في مشاهدهم ومراقدهم.

والتبرّكَ والاستشفاءَ بآثارهم.

والتوسّلَ بهم وبحرمتهم ومقامهم و...

مع أنّه لم يُرَ منه ﷺ كما لم يُنقل أنّه أخذ الاعترافَ بهذه الأُمور.

وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدلّ على أنّها ليست من مقوّمات الإيمان ولا من موجبات الكفر والشرك بل هي من الأُمور الفقهية التي يُبحث عنها في الفقه حرمةً وجوازاً.

إنّ المسلمين اليوم بأمسّ الحاجة إلى توحيد الكلمة ورصّ الصفوف، والابتعاد عن كل ما يُفرّق جمعهم ، ويشتّتُ كلمتهم. ولكنّنا لو جَعَلنا هذه الفوارق وما شابهها ممّا يوجب خروج هذه الجماعة أو تلك من الإسلام لتمزّقت وحدة الأُمّة، وسهل حينئذٍ ابتلاعها جميعاً من قبل أعداء الإسلام المتربّصين الطامعين.

٢ـ التأسّف على ما مضى من إقـدام المذاهب الإسلامية المختلفة على تكفير بعضها بعضـاً من دون تورّع وتحرّج، سابقـاً. فأهل الحديث والحنـابلة يكفّرون المعتزلة، والمعتزلة يكفّرون أهل الحديث والحنابلة.

ثمّ لمّا ظهر الأشعري، وحاول إصلاح عقائد أهل الحديث والحنابلة، ثارت ثائرة تلك الطـائفة ضدَّه فأخذ الحنابلة يكفّـرون الأشاعرة، ويلعنونهم ويسبّونهم على صهوات المنابر.

فهذا هو السُبكي يقول حول تكفير الحنابلة للأشاعرة: هذه هي الفتنة التي طار شررها فملأ الآفاق وطال ضرَرهـا فشمل خراسان والشام والحجاز والعـراق وعظـم خطبُهـا وبـلاؤهـا وقـام في سبّ أهـل السنّـة (يـريـد بهم الأشاعـرة) خطيبها وسفهـاؤها، إذ أدّى هـذا الأمر إلى التصريـح بلعن أهل السنّة في الجمـع، وتوظيف سبّهـم على المنابـر، وصار لأبي الحسن الأشعـري ـ كرّم الله وجهه ـ بها أسوةٌ بعليّ بن أبي طالـب ـ كرّم الله وجهه ـ في زمن بعض بني أُميّة حيث استـولت النواصب على المناصـب، واستعلى أولئك السفهاء في المجامع والمراتب[١].

٣ـ التـأسّف على سريان هذه الحالـة إلى مجال الفروع فإذا بـأصحاب المذاهب الفقهية الأربعة تختلف وتتشـاحن وتتنازع وتحدث فتنٌ كثيرةٌ ودامية بينها.

فقد وقعت فتنةٌ بين الحنفيـة والشافعية في نيسابور ذهـب تحت هياجها

١ـ طبقات الشافعية ٣: ٣٩١ تأليف تاج الدين السبكي.

خلقٌ كثير، وأُحرقت الأسواق والمدارس وكثُر القتل في الشافعية فانتصروا بعد ذلك على الحنفية وأسرفوا في أخذ الثأر منهم في سنة ٥٥٤ هـ، ووقعت حوادثُ وفتنٌ مشابهةٌ بين الشافعية والحنابلة واضطرت السلطات إلى التدخّل بالقوّة لحسم النزاع في سنة ٧١٦ وكثُر القتلُ وحرق المساكن والأسواق في أصبهان، ووقعت حوادثُ مشابهةٌ بين أصحاب هذه المذاهب وأتباعها في بغداد ودمشق وذهب كلُ واحد منها إلى تكفير الآخر. فهذا يقول: من لم يكن حنبليّاً فليس بمسلم، وذاك يغري الجهلة بالطرف الآخر فتقع منهم الإساءة على العلماء والفضلاء منهم وتقع الجرائم الفضيعة (١).

٤ـ الاستنكار لما ذهب إليه ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب، حيث كفّرا جميع الأُمّة قاطبة سنّيها وشيعيّها، بحجّة أنّهم يتوسّلون بالنبيّ والعترة وأنّهم يدعونهم ويستغيثون بهم، وأنّهم يعمّرون قبورهم ويتبرّكون بها و ... .

فهل كان النبيّ يسأل الوافدين عليه المُظهرين للشهادة هل يتوسّلون بالأنبياء والصالحين أو لا؟ هل يدعونهم ويستغيثون بهم أو لا؟ هل يعمّرون قبورهم أو لا؟ هل يتبرّكون بآثارهم أو لا ؟

أو أنّه كان يكتفي في الحكم عليهم بالإسلام والإيمان بما تضافرت عليه النصوص التي أوقفناك على طائفةٍ كبيرةٍ منها، مع أنّه لم تكن حياة العرب ولا غيرهم خالية عن هذه الأُمور، بل كانت زاخرة بها وبأمثالها كما

١ـ راجع البداية والنهاية لابن كثير ١٤: ٧٦، ومرآة الجنان ٣: ٣٤٣، والكامل لابن الأثير ٨: ٢٢٩، وتذكرة الحفّاظ ٣: ٣٧٥، وطبقات الشافعية ٣: ١٠٩ وغيرها ولاحظ الإمام الصادق: لأسد حيدر، وقد أشبع المقال في هذا المجال.

أسلفنا.

ولعلّ في القرّاء من يستبعد أنّ ابن تيمية ومحمّد بـن عبد الوهاب، كانا يكفّران المسلمين، ولأجل ذلك فإنّنا نأتي هنـا بنصوص من الثاني لكون آرائه أكثر رواجاً الآن .

يقول محمّد بن عبد الوهاب:

إنّ الكفّار الذين قاتلهم رسولُ الله ﷺ مُقرّون بأنّ الله هو الخالقُ الرازقَ المدبّـرُ ولم يُدخلهـم ذلك في الإسـلام لقـوله تعـالى: ﴿**قُلْ مَـن يَرْزُقُكُـمْ مِنَ السَّمَـاءِ والأرْضِ أَمَّـنْ يَمْلكُ السَّمْعَ والأبْصَارَ ... فَسَيَقُـولُونَ اللهُ فَقُـلْ أَفَلا تَتَّقُونَ**﴾ [1].

ثمّ إنّهم يقـولون مـا دعونـا الأصنام وتـوجّهنا إليهم إلاّ لطلـب القرب والشفاعة، لقـوله تعالى: ﴿**والَّـذِينَ اتَّخَذُوا مِـن دُونِه أَوْلِيـاءَ مَـا نَعْبُـدُهُمْ إلاّ لِيُقَرّبُونا إلى اللهِ زُلْفى**﴾ [2]، وقوله تعالى: ﴿**وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرّهُمْ وَلاَ يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هؤلاء شُفعاؤُنا عِنْدَ اللهِ**﴾ [3].

ثمّ يقول: إنّ النبيّ ﷺ ظَهَرَ على قومٍ متفـرّقين في عبادتهم، فبعضهم يعبد الملائكة، وبعضهم الأنبياء والصـالحين، وبعضهم الأشجار والأحجار، وبعضهم الشمس والقمر فقاتلهم ولم يفرّق بينهم.

ثمّ يُنهي كـلامه قائلاً: إنّ مُشركـي زماننا أغلظُ شركـاً من الأوّلين لأنّ

١ـ يونس: ٣١.

٢ـ الزمر: ٣.

٣ـ يونس : ١٨.

أُولئك يُشركون في الرخاء، ويُخلصون في الشدة وهؤلاء شركهم في الحالتين لقوله تعالى: ﴿ فَإِذا رَكِبُواْ فِي الفُلْكِ دَعُواْ اللهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجّاهُمْ إِلى البَرِّ إِذا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾ (١).

هكذا يرمي محمد بن عبد الوهاب المسلمين بالشرك الغليظ لكونهم يتوسّلون بالنبي والأئمّة والأولياء ويستشفعون بهم.

ثمّ يقول في كتابه كشف الشبهات: «إنّ التوحيد الذي جَحَدوه هو توحيد العبادة الذي يسمّيه المشركون في زماننا الاعتقاد كما كانوا يدعون الله سبحانه ليلاً ونهاراً ثم منهم من يدعو الملائكة لأجل صلاحهم وقربهم من الله ليشفعوا لهم أو يدعو رجلاً صالحاً مثل اللات أو نبيّاً مثل عيسى» (٢).

وحاصل كلامه أنّ المسلمين اليوم، موحّدون من جهةٍ ومُشركون من جهةٍ أُخرى، أمّا الجهة الأُولى فلقولهم بأنّ الله سبحانه هو الخالق الرازق المدبّر. وأمّا الجهة الثانية فلأنّهم يعبدون الأنبياء والصالحين بدعائهم والتوسّل بهم والتبرّك بآثارهم وتعمير قبورهم. ويسمّي الأُولى : التوحيد في الربوبية، والثانية التوحيد في الألوهية، وهو يرتكب الخطأ في تسمية القسم الأوّل بالربوبية، والثانية بالألوهية، وكذا تسمية دعاء الأنبياء والصالحين عبادةً، ويتَّضح كلّ ذلك عند البحث عن ميزان التوحيد والشرك في العبادة فانتظر.

هذا وقد كتب مفكّرون وكتّابٌ عديدون عن ظاهرة تكفير محمد بن

١ـ الصواعق الإلهيّة: الطبعة الثالثة : ٤، والآية من سورة العنكبوت: ٦٥.

٢ـ كشف الشبهات: ٤، طبعة مصر تصحيح محبّ الدين الخطيب.

عبد الوهـاب وأتباعه للمسلمين قاطبـةً، نذكر بعضهم ومـا كتبوه على سبيل المثال:

يقـول جميل صدقـي الزهـاويّ: «كان محمّـدُ بن عبـد الوهـاب يسمّي جماعته من أهل بلده: الأنصار، وكان يسمّي متابعيه من الخارج: المهاجرين.

وكان يأمـر من حجَّ حجّة الإسلام قبـل إتّباعه أن يحجَ ثانيـاً قائلاً: إنّ حجَّتك الأُولى غير مقبولة لأنّك حججتها وأنت مشرك.

ويقول لمن أراد أن يدخل في دينه: إشهد على نفسك أنّك كنت كافراً، واشهد على والديكَ أنّهما ماتا كافرين واشهد على فلان وفلان (يسمّي جماعة من أكابر العلماء الماضين) أنّهم كانوا كفّاراً فإن شهِدَ بذلك قَبِلَهُ.

وكان يصرّح بتكفير الأُمّة منذ ستمائة سنة ويكفّر كل من لا يتّبعه وإن كان من اتقى المسلمين، ويسمّيهم مُشركين، ويستحـلّ دماءهم وأموالهم، ويُثبتُ الإيمان لمن اتّبعه»[١].

وكتب الآلوسي في تاريـخ «نجد» عن سعود بن عبد العزيـز: «أنّه قاد الجيوش وأذعنت له صناديدُ العرب ورؤسـاؤهُم بَيْدَ أنَّه منع الناس عن الحجّ ... وغالى في تكفير من خالفَه وشدّد في بعض الأحكام»[٢].

إنّ وظيفتنـا في العصر الحاضر الذي تقـاربت فيه الشعـوب المتباعـدة وتصـادقت الـدول المتعاديـة، على اختـلاف مسالكهـا ومشـاربها المتباينـة،

١ـ الفجر الصادق: ١٧ـ١٨.

٢ـ كشف الارتياب: ٩، نقلاً عن تاريخ نجد.

ومدارسها وأيديولوجياتها المتناقضة، فتصافحت وتعانقت، واتّحدت وتوحَّدت، أن نعمل على توحيد الصف الإسلامي وذلك بأن نرجِعَ إلى الكتاب والسنَّة، وأن يُحتَرَمَ جميع المسلمين، المنضوين تحت لوائهما، ويُترك خلافُ كلّ فرقة إلى نفسها، ولا يُعدَّ ذلك فارقاً، وفاصلاً بينها وبين الفرق الأُخرى.

نعم انّ هذا لا يعني ترك البحث العلميّ والنقاش الموضوعيّ في القضايا المختلف فيها، بل المقصود هو أن لا تُتخذ تلك القضايا وسيلة للتفرّق والتمزّق، والتنازع والتشاحن، فلا ضيرَ في أن يجتمع العلماء في مكانٍ واحدٍ ويتناقشوا ويتناظروا في جوٍّ هادئٍ لتقريبِ وجهات النظر فيما بينهم ومعرفة فوارقهم وجوامعهم، بل يتعين ذلك خدمة للإسلام ورحمة بالمسلمين.

ثمّ ممّا يدلّ على سهولة التكليف في عامة الشرائع، والشريعة الإسلامية الغرّاء خاصّة أنّ الأصل في الأفعال هو الإباحة لا الحظر والحرمة، وذلك آية التسهيل وعلامة التيسير وهذا هو ما نبحث عنه في الأصل القادم الذي يلي هذا الأصل.

ولكن نلفت نظر القارئ إلى الجواب الذي صَدَر من الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز المؤرخ ٨/ ٣/ ١٤٠٧ برقم ٧١٧/ ٢ على السؤال الذي وُجِّه إليه حول الإئتمام بمن لا يعتقد بمسألة الرؤية يوم القيامة ـ أي رؤية الله جلّ وعلا من قِبَلِ أهل الجنّة ـ حيث يكفّر من لا يقول بذلك ولا يعتقده وحيث نَقَل عن عدّةٍ منهم ابن تيمية وتلميذه ابن القيّم، بأنّه كافر،

حيث قال الأوّل: والذي عليه جمهور السلف أنّ من جَحَدَ رؤية الله في الدار الآخرة فهو كافر، فإن كان ممّن لم يبلغه العلم في ذلك عُرِّف ذلك كما يُعرَّف من لم تبلغه شرائع الإسلام، فإن أصّرَ على الجحود بعد بلوغ العلم فهو كافر.

إن هذه الفتوى تضادّ ما تضافر عن النبيّ ﷺ من أنّ أركان الإسلام عبارة عن التوحيد والإقرار بالرسالة وغيرهما ممّا مضى ذكره فهل كان النبيّ يوجب على من يعترف بالشهادتين الاعتقاد برؤية الله؟؟

إنّ الرؤية مسألةٌ اجتهاديةٌ تضاربت فيها أقوال المفسّرين، ومن نفى الرؤية فإنّما اجتهد في النصوص التي زعم القائل دلالتها عليها، فلو كان مُصيباً فله أجران، ولو كان مُخطئاً فله أجرٌ واحد لا أنّه كافر خارج عن الإسلام.

هذا ولقد بسطنا الكلام في دلالة قوله سبحانه: ﴿**إلى ربّها ناظرة**﴾ على الرؤية وخرجنا بنتيجة واضحة وهي أنّ الآية لا دلالة لها على ما يتبنّاه أصحابُ الرؤية، بل أنّ القول بالرؤية من البدع التي دَخَلت إلى الأوساط الإسلامية من جانب الأحبار والرهبان[١].

١ـ راجع الإلهيات على هدى الكتاب والسنّة والعقل للأُستاذ العلاّمة الشيخ السبحاني.

٢

الأصل هو الإباحة دون الحظر والحُرمة

- ❏ الأُمم السابقة وأصالة الإباحة.
- ❏ القرآن الكريم وأصالة الإباحة.
- ❏ أصالة الحلية في العادات لا العبادات.
- ❏ ما يترتب على هذا الأصل.

إذا سبر الإنسان حياة الأُمم السابقة ، وجد أنّه لم يكن اعتناقها للشرائع السماوية موجباً لالتزامها بعدم ارتكاب عمل إلاّ بعد إحراز أنّه حلال مباح، بل كان الأساس المتَّبع في حياة الناس في تلك الأُمم والأقوام هو جواز كل فعل إلاّ إذا نهى عنه أنبياؤهم، إذ لولا ذلك لانهارت حياتهم، أو تعقَّدت أشدّ تعقيد.

القرآن الكريم وأصالة الإباحة:

يظهر من الذكر الحكيم أنّ هذا هو الأصل في الشريعة الإسلامية السمحاء، وأنّ وظيفة النبيّ الأكرم هو بيان المحرّمات دون المحلَّلات، وأنّ الأصل هو حلّية كل عملٍ وفعلٍ، إلاّ أن يجدَ النبيُّ حرمته في شريعته، وأنّ وظيفة الأُمّة هو استفراغ الوسع في استنباط الحكم من أدلّته فإذا لم تجد دليلاً على الحرمة، تحكم عليه بالجواز ، ونكتفي في المقام بلفيف من الآيات، وإن كان في السنّة الغرّاء كفاية:

١ـ قال سبحانه: ﴿وَ مَا لَكُمْ ألاّ تأكلُوا مِمّا ذُكِرَ ٱسْمُ اللهِ عَلَيهِ وَقَدْ فصّلَ لَكُمْ ما حَرّمَ عَلَيْكُمْ إلاّ مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثيراً لَيُضِلّونَ بِأَهْوائِهِمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ إنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالمُعْتَدينَ﴾[1].

فإنّ هذه الآية تكشف عن أنّ الذي يحتاج إلى البيان إنّما هو المحرّمات لا المباحات، ولأجل ذلك فإنّه بعد أن فصّل ما حرَّم لا وجه للتوقف في العمل، والارتكاب بعد ما لم يكن مبيّناً في جدول المحرّمات.

وبعبارة أُخرى إنّ المسلم إذا لم يجد شيئاً في جدول المحرّمات لم يكن وجه لتوقّفه وعدم الحكم عليه بالإباحة، والجواز والحلّية.

٢ـ قال سبحانه: ﴿قُلْ لا أَجِدُ فيما أوْحيَ إِلَيَّ مُحَرَّماً عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إلاّ أن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَماً مَسْفُوحاً أوْ لَحْمَ خِنزيرٍ فَإِنّه رِجسٌ أَوْ فِسْقاً

ــــــــــ

١ـ الأنعام: ١١٩.

أُهِلَّ لِغَيْرِ اللهِ بِهِ﴾ [١].

انّـه يكشف عن أنّ مـا يلزم بيـانه إنَّما هـو المحرَّمـات لا المباحـات، ولذلك يستـدلّ مُبلِّغ الوحي (ونعني به النبـيّ الكريم ﷺ) بأنّـه لا يجد فيما أُوحي إليه مُحرَّماً على طـاعمٍ يطعمه سوى الأُمور المذكـورة فإذا لم يكن هناك شيء فهو محكوم بالحلّية والإباحة.

٣ـ قال سبحـانه: **﴿وَمن اهتَـدى فإنّما يَهتَدي لنفسه، وَمَـن ضَلّ فَإنّما يَضِلُّ عَلَيها وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزرَ أُخرى وَما كُنّا مُعذِبينَ حَتّى نَبعَثَ رَسُولاً﴾** [٢].

٤ـ قال سبحانه أيضاً: **﴿وَمَا كَانَ رَبّكَ مُهْلِـكَ القُرى حَتّى يَبْعَثَ في أُمّها رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَاياتِنَا وَمَا كُنّا مُهلِكِى الْقُرىٰ إلاّ وَأَهْلُها ظالِمُونَ﴾** [٣].

إنّ دلالة هـاتين الآيتين على المقام واضحة فـإنّ جملة «وما كـان» تارة تستعمل في نفي الشأن والصلاحية، وأُخرى في نفي كون الشيء أمراً ممكناً.

وأمّا الأوّل فمثل قـوله: **﴿وَمَا كَـانَ اللهُ لِيُضيعَ إيمانكُمْ إنَّ اللهَ بِـالناسِ لَرَءُوف رَحيم﴾** [٤] وغيره [٥]. أي ليس مـن شأن الله سبحانـه وهو العـادل الرؤوف أن يضيع إيمانكم .

وأمّا الثاني فمثـل قوله: **﴿مَـا كانَ لِنفْسٍ أنْ تَمُوت إلاّ بِـإِذْنِ اللهِ كتابـاً**

١ـ الأنعام: ١٤٥.

٢ـ الإسراء: ١٥.

٣ـ القصص: ٥٩.

٤ـ البقرة: ١٤٣.

٥ـ آل عمران: ٧٩ و ١٦١.

مُؤَجَّلاً﴾ [١] أي لا يمكن لنفس أن تموت بدون إذنه سبحانه.

فيكون معنـى الآيتين بناء على الاستعمال الأوّل: هو ليـس من شأن الله تعـالى أن يعـذب النـاس أو يهلكهـم قبـل أن يبعث إليهـم رســولاً، وعلى الاستعمال الثاني: هـو ليس من الممكن أن يعذب الله النـاس أو يهلكهم قبل أن يبعث إليهم رسولاً.

وعلى كلّ تقـدير فـدلالة الآيتين على الإبـاحة واضحـة إذ ليس لبعث الرسل خصـوصية وموضوعيـة، ولو أن جواز العذاب أُنيط ببعثهـم فإنّما هو لأجل كونهم وسـائط للبيان والإبلاغ، والملاك هـو عدم جواز التعـذيب بلا بيان و إبلاغ، وإنّ التعـذيب ليس من شأنه سبحانه، أو أنّـه ليس أمراً ممكناً حسب حكمته.

٥ـ قال سبحانه: **﴿وَمَا أَهْلَكْنا مِن قَرْيَةٍ إلاّ وَلَها مُنذِرُونَ﴾** [٢] فإنّ هذه الآية مُشعـرة بأن الهلاك كان بعـد الإنذار والتخويـف، وإنَّ اشتراط الإنذار كناية عن البيان وإتمام الحجّة.

٦ـ قـوله سبحـانه: **﴿وَلَوْ أنّـا أَهْلَكناهُمْ بِعَذاب مِـن قَبْلِه لَقالُـوا لَوْلا أرْسَلْت إلَيْنَا رَسُولاً فَنَتّبِعَ ءَاياتِكَ مِن قَبْلِ أن نَذِلّ ونَخزى﴾** [٣].

فإنّ هذه الآية تـدلّ على أنّ التعذيب قبل بعثَ الرسـول مردود بحجّة المعذَّبين وهي قولهم: **﴿لولا أرسَلْتَ إلينا رسـولاً فنتبع ءَاياتك﴾** فلا يصحّ

١ـ التوبة: ١٢ ويونس: ٢٨.

٢ـ الشعراء: ٢٠٨.

٣ـ طه: ١٣٤.

التعذيبُ إلاّ بعد إتمام الحجة عليهم ببعث الرسُل.

وهذا يعني أن الأشياء مباحةٌ جائزةُ الارتكاب خاليةٌ عن العقوبة أصلاً إلاّ إذا ردع عنها الشارع بشكل من الأشكال التي منها إرسال الأنبياء.

٧ـ قوله سبحانه: ﴿ يَا أَهْلَ الكِتَابِ قَدْ جاءَكُمْ رَسُولُنا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلىٰ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جاءَنَا مِنْ بَشير وَلا نَذير فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشير وَنذير واللهُ عَلى كُلِّ شَيء قَديرٌ﴾ (١).

فإنّ ظاهر قوله: ﴿مَا جَاءَنَا مِنْ بَشير وَلاَ نذير﴾ أنّه حجّة تامّة صحيحة، ويحتج به على كل من عُذِّبَ قبل البيان ولأجل ذلك قام سبحانه بإرسال الرسل حتّى لا يُحتجَّ عليه بل تكون الحجّة لله سبحانه.

وهذا يُعطي أنّه لا يُحكمُ على حُرمة شيء ولا يجوز التعذيب على ارتكابه قبل بيان حكمه وذلك لأنّ بعث البشير والنذير كناية عن بيان الأحكام.

أصالة الإباحة في العادات لا العبادات:

وها هنا نكتةٌ وهي: أنّ ما قلناه من أنّ الأصل في الأشياء هو الإباحة لا الحظر إنّما يجري في التقاليد والعادات، فإذا شككنا في أنّ لعب كرة القدم الذي هو من العادات والتقاليد هل هو حلال أم لا؟ أو أنّ الاستماع إلى الاذاعة سائغ أم لا؟ فالأصل بعد التتبع في الأدلة وعدم العثور على الدليل

١ـ المائدة: ١٩.

الدالّ على الحرمة هو الحلّية.

وأمّا الأُمور التـي يقوم بها الانسان بما أنّها أعمال قُربيّة تـوجب الثواب فالأصل فيها هو الحرمة ما لَم يدّل عليهـا الدليل، لكون الأُمور القربية أُموراً توقيفية أي موقوفة على بيان الشارع وطلبه وتحديده ، فإذا شككنا في أنّ صلاة الضحى هل هي سائغة أم لا ؟ فالأصل فيها هو الحرمة لأنّها ممّا لم يدلّ عليه دليل، إذ الإتيان بها ــ والحال هذه ـ إدخـال شيء في الدين مع أنّـه لم يدلّ دليل على أنّه من الدين، وهكذا كُل عمل قُربيّ يأتي به الإنسان بما أنّه واجب أو مستحبّ فإنّه يحتاج إلى الدليل، والأصـل فيه هو الحرمة، إلاّ إذا دلّ عليه دليل.

وعلى ذلك فكـلّ ما يحكم الـوهـابيون بحـرمته أو يصفـونه بـالبدعـة والشرك، إنّما يتمّ إذا كان من القسم الثاني ولم يدلّ عليه الدليل.

وأمّا القسم الأوّل، أعني: التقاليد والعـادات فالأصل فيه الإباحة غير أنّ كثيراً ممن ليس لـه قدم راسخة في هذه المواضيع و الأبحـاث لا يفرّق بين مورد «أصالة الإباحة» ، و «أصالة الحظر» والتفصيل موكول إلى محلّه في كتب علم أُصول الفقه.

ما يترتب على هذا الأصل:

ويترتب على هذا الأصل:

١ـ أنّ كل ما يقوم به الإنسان من قول أو فعل فهو محكوم بالإباحة ما لم نجد نصّاً على تحريمه في الكتاب والسنّة، ومـا لم ينطبق عليه أحد العناوين

الكلّية المحرمة، مثل: «الإعانة على الإثم» و«تقوية شوكة الكفّار» و«الإضرار بالمسلمين» و «الإضرار بالنفس والنفيس» إلى غير ذلك من العناوين العامّة التي ربّما يصير المباحُ بالذات حراماً بسبب انطباقها عليه.

وعلى أساس ذلك فإنّ جميع المصنوعات الحديثة التي هي من نتائج التقدّم الحضاري التكنولوجي مثل الهاتف والتلغراف، والتلفزيون والسيارة والطائرة وما شابهها واستخداماتها المتعارفة محكومة بالحلّية والإباحة لعدم وجود نصّ خاصّ على تحريمها في الكتاب والسنّة، ولعدم انطباق أحد العناوين العامّة المحرّمة عليها.

وقد كان مُعظم مشايخ الوهابيين يحرّمون كلّ ذلك في بدء حركتهم ودعوتهم أيّام «عبد العزيز» ولكنّهم عندما أُزيحوا عن منصّة الحكم، وحلّ الآخرون محلّهم أباحوه وصاروا يتحدثون في الإذاعة والتلفزيون و يستخدمون كل مُعطيات الحضارة الحديثة، ويحلّلون كل أشيائها واستخداماتها.

٢ـ يعلم في ضوء الأصل السابق حلّية العادات والتقاليد العرفية المتّبعة لدى الأُمم والشعوب من إقامة الاحتفالات والمآتم إلى غير ذلك من الأُمور التي لا يقوم بها الإنسان باعتقاده أنّها من الدين لكي ينطبق عليها عنوان البدعة، بل يقوم بها بما أنّها من الأعراف والتقاليد الاجتماعية.

٣ـ حلّية الألعاب الرياضية من كرة القدم وكرة الطائرة إلى غير ذلك من الألعاب البدنية التي تمنح قدرة جسدية للإنسان ونشاطاً روحياً إذا لم تقترن بالمحرَّمات.

٤ـ حلّية كـافة أشكال الرفض الوطنـيّ الدارج بين الشعوب المتحضّرة فكرياً سواء كان لدعم دولتهم أم ضـدّها و إسقاطها على الصعيد السياسي، وذلك مثل المظاهرات وما شابهها.

٥ـ حلّيـة تحصيل العلوم الطبيعية في كـافّة مجالاتها وميادينهـا والعلوم الرياضية بشتى أقسامها، وألوانها، وكذا استخدامها في المجالات المباحة.

وأمّـا علم الكلام الـذي يتكفّل الـذبّ عن حيـاض العقيدة فـالحكم بحلّيته لا يحتـاج إلى هذا الأصل، لأنّ لـه جذوراً واضحة في القـرآن والسنّة، ومن المؤسف أن نرى السطحيين من أهل الحديث وعلى رأسهم الوهابيون قد حـرّموه في جـامعـاتهم ومراكـزهم الثقـافية، فـلا يُـدرَّسُ فيها إلاّ العقيـدة الطحاوية التـي ذكرت العقائد فيها على نهج أهل الحديـث، ولا ندري كيف يُحرّمون العلوم العقليـة واستخدام العقل في فهم المعارف والاستـدلال عليها والـذكـر الحكيم مليئ بـالبراهين العقليـة على وجـوده سبحـانه وتـوحيـده وصفاته، إلى غير ذلك مـن المسائل الفكرية، والاعتقاديـة التي دعى القرآن الكريم إلى التفكير والتعقل فيها.

فهذا هو إبراهيم الخليل ـعليه السلامـ يستدلّ بأُفول الأجرام السماوية على بطلان كونها أرباباً [١].

وهذا هو الذكر الحكيم يستدلّ على وحدانية الله بقوله: **﴿لَوْ كَانَ فِيهِما ءَالِهَةٌ إلاّ الله لَفَسَدَتَا﴾** [٢] وقوله: **﴿وما كان مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إذاً لَذَهَب كُلّ إِلَه بِمَـا**

١ـ الأنعام: ٧٩.

٢ـ الأنبياء: ٢٢.

خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلَـى بَعْض﴾ (١).

وهذا هو القـرآن الكريم يستدل على وجود البارئ الخالـق بقوله: **﴿أَمْ خُلِقواْ من غَيْـر شَـيءٍ أم هُـمُ الخالِقُونَ * أمْ خَلَقُواْ السَّمَـاواتِ والأرْضِ بَلْ لا يُوقِنُونَ﴾** (٢).

إنّ تعطيل العقول عن تحصيل المعارف الحقّة يتعارض مع ما ندب إليه الكتاب والسنّـة النبويـة وأحاديث العترة الطـاهرة، من التفكير والتـدبر في آيات الله ومعـرفة صفاتـه وأسمائه بالنظر والاستـدلال. والعواقب الـوخيمة التي آل إليها مصير بعض الشعوب إنّما كانت نتيجة إهمالهم هذا الأمر المهمّ الحيويّ، فـإذا عُطِلت العقول عن المعـارف وحكم على الاستـدلال والبرهنة العقلية بالتحريم، سيطرت على الصعيـد الديني والعلمي أفكار وآراء تدعم ما جاء به اليهود والنصارى، من تجسيمه سبحانه وكونه ذا جهة وأنّ له يدين ورجلين وعينين كما عليه ابن تيمية وأتبـاعه أعاذنا و إيّاكـم من عمى العيون والبصائر.

١ـ المؤمنون: ٩١.

٢ـ الطور: ٣٥ـ٣٦.

٣

البدعة
تحديد مفهومها وذكر أقسامها

- ❑ معنى البدعة لغة واصطلاحاً.
- ❑ حكم البدعة الاصطلاحية في الكتاب العزيز.
- ❑ حكم البدعة الاصطلاحية في السنّة الشريفة.
- ❑ ما هي موارد البدعة؟
- ❑ ما يترتب على هذا الأصل؟
- ❑ بطلان تقسيم البدعة إلى حسنة وسيئة.

البدعة مصدر بدع بمعنى أنشأ وبدأ، والبدع: الشيء الذي يكون أوّلاً كما في لسان العرب، وأبـدعت الشيء قولاً أو فعلاً إذا ابتدأتـه لا عن سياقِ مثالٍ كما في مقاييس اللغة.

هذا هو المعنى اللغوي للبدعـة، وأمّا معناها في مصطلح الفقهاء فهي عبارةٌ عن:

إدخال ما ليس من الدين في الدين. وعدّ ما ليس منه، منه.

وليس بين المسلمين أحدٌ يتفوّه بجوازهما لإطباق الأدلّة الأربعة على حرمتها.

وإلى هذا المعنى المصطلح يشير صاحب القاموس ويقول: البدعة الحَدَث في الدين بعد الإكمال، أو ما استحدِثَ في الدين بعد النبيّ من الأهواء والأعمال.

حكم البدعة الاصطلاحية في الكتاب العزيز :

هذا وقد بسط بعض الفقهاء والمتكلمين القول في تحريم الإفتاء والحكم في دين الله بما يخالف النصوص وفي سقوط الاجتهاد والتقليد عند ظهور النص، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿**يَا أَيُّها الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَي اللهِ وَرَسُولِهِ واتَّقُوا اللهَ**﴾ (١).

وقوله سبحانه: ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ ولا مُؤْمِنَةٍ إذا قَضَى اللهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أن يَكونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِن أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلّ ضَلالاً مُبيناً**﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿**وَأَنَّ هذا صِراطِى مُستقِيماً فَاْتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السّبلَ فَتَفَرّقَ بِكُمْ عَن سَبيلِهِ ذٰلِكُمْ وَصّاكُم بِهِ لَعَلّكُمْ تَتّقُونَ**﴾ (٣).

١ـ الحجرات: ١.

٢ـ الأحزاب: ٣٦.

٣ـ الأنعام: ١٥٣.

على أنّ البدعة ليست خصوص الإفتاء بما خالف الكتاب والسنّة بل هي أعمّ من ذلك فهي تشمل إدخال ما لم يرد في الكتاب والسنّة، بأن سكت عنه الشارع نفياً وإثباتاً في الدين [١] فالمعنى الجامع للبدعة هو: الافتراء على الله رسوله ونشر ذلك المفترى في الأُمّة بعنوان أنّه من الدين.

ويدلّ على هذا المعنى مُضافاً إلى ما عرفت قوله سبحانه: ﴿ءآلله أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللهِ تَفْتَرُون﴾ فإن هذه الآية تدلّ على أنَّ كلّ ما يُنسب إلى الله سبحانه بلا إذنٍ منه فهو أمرٌ محرّم، ومَن أدخل في الدين ما ليس منه فقد افترى على الله.

وقد عدّ الله المفتري مِن أظلم الناس إذ قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَن افْتَرَىٰ عَلَى اللهِ كَذِباً أَوْ كَذّبَ بآياتِهِ إِنّه لا يُفْلِحُ الظَالِمون﴾ [٢].

وعندما اقترح المشركون على النبيّ ﷺ بأن يأتي بقرآن غير هذا أو يبدّله إلى آخره، أمَرَه سبحانه بأن يقول: ﴿قُلْ مَا يَكُونُ لي أَن أُبَدّلَهُ مِنْ تِلْقاءِ نَفْسي إِنْ أَتّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ إِنّي أَخافُ إنّ عَصَيت رَبّي عَذاب يَوم عَظيمٍ﴾ [٣].

١ـ أعلام الموقعين لابن القيم ٣: ٢٥ ـ ٦٥.

٢ـ الأنعام: ٢١.

٣ـ يونس: ١٥.

حكم البدعة الاصطلاحية في السنّة الشريفة:

وأمّـا السنّة فإليـك لفيفاً من الأحـاديث الـدالّة على هـذا المعنى وعلى شجب البدعة وتحريمها.

قال رسول الله ﷺ :

١ـ «أمّا بعد فإن أصـدقَ الحديثِ كتابُ الله، و إن أفضلَ الهدى هدى محمّد، وشرّ الأُمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة في النار».

قال ابن حجر العسقلاني في شرح حـديث: «وشرّ الأُمور محدثاتها» في صحيح البخاري: المحـدثات جمع محدثة المراد بها ما أُحـدث وليس له أصل في الشرع ويُسمّى في عرف الشرع بـدعة، وما كان له أصـل يدلّ عليه الشرع فليس ببدعة، فالبدعة في عرف الشرع مذمومة بخلاف اللغة[1].

٢ـ «إيّاكم والبدع فإنّ كلّ بدعة ضلالة وكلّ ضلالة تسير إلى النار».

٣ـ «من سنّ سنّةَ خير فاتبع عليها فله أجره، ومثل أُجور من اتّبعه غير منقوص من أُجـورهم شيئاً، ومن سنّ سُنّـةَ شرّ فأُتبع عليها كـان عليه وزرهُ ومثل أوزار من اتّبَعَه غير منقوص من أوزارهم شيئاً».

٤ـ «أهل البدع شر الخلق والخليقة».

٥ـ «الأمـر المفضع والحمـل المضلع والشرّ الـذي لا ينقطـع إظهـار البدَع».

١ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١٣: ٢٥٣.

٥ـ «إذا رأيتم صاحب بدعة فاكْفهِرّوا في وجهه فإنّ الله ليبغض كلّ مبتدع، ولا يجوز أحد منهم على الصراط ولكن يتهافتون في النار مثل الجراد والذباب».

٧ـ «من مشى إلى صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام».

٨ ـ «عمل قليل في سنّة خير من عمل كثير في بدعة».

٩ـ «أبى الله أن يقبلَ عَملَ صاحب بدعة حتى يدع بدعته».

١٠ـ «إذا مات صاحب بدعة فقد فُتح في الإسلام فتحاً».

١١ـ «لا يقبل اللهُ لصاحب بدعة صلاة ولا صوماً ولا صدقة ولا حجّاً ولا عمرة ولا جهاداً ولا صرفاً ولا عدلاً، يخرج من الإسلام كما تخرج الشعرة من العجين».

١٢ـ «من غشّ أُمّتي فعليه لعنة اللهِ والملائكة والناس أجمعين. قالوا يا رسول الله: وما الغشّ قال: أن يبتدع لهم بدعة فيعملوا بها».

١٣ـ «من أعرض عن صاحب بدعة بغضاً له ملأ الله قبله أمناً وإيماناً، ومن انتهر صاحب بدعة آمنه الله يوم الفزع الأكبر، ومن أهان صاحب بدعة رفعه الله في الجنّة مائة درجة، ومن سلّم على صاحب بدعة أو لقيه بالبشر واستقبله بما يسرّه فقد استخفّ بما أنزل الله على محمّد».

١٤ـ عن قيس بن عبادة قال انطلقت أنا والأشتر إلى عليّ ـعليه السلامـ فقلنا هل عَهِد إليك رسول الله ﷺ شيئاً لم يعهده إلى الناس عامّة؟

قال: لا إلاّ ما في كتابي هذا، فأخرج كتاباً من قراب سيفه فإذا فيه:

«المؤمنون تتكافأ دماؤهم وهم يد على من سواهم، ويسعى بذمّتهم أدناهم، ألا لا يُقتل مؤمن بكافر ولا ذو عهد في عهده، من أحدث حدثاً فعلى نفسه، ومن أحدث حدثاً أو آوى مُحدثاً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يُقبل منه صرف ولا عدل»[١].

هذه هي طائفة من الأحاديث التي تصرّح بحرمة البدعة وتدعو إلى نبذها، ومكافحتها، والإعراض عن أصحابها.

وقد حكم العقل بقبحها أيضاً، فإنّ العقل إذا حكم بقبح الكذب حكم بطريق أولى بقبح الافتراء على الله ونسبة شيء إليه كذباً.

ثمّ هو أمر اتّفق عليه كلّ علماء الإسلام بلا استثناء ومن هنا تكون البدعة أمراً محرّماً بالأدلّة الأربعة.

ما هي موارد البدعة؟

هذا هو مفهوم البدعة، وهذه هي أدلّة حرمتها، غير أنّ تطبيقها على أعمال العباد وأفعالهم يتوقّف على تمييز التقاليد والآداب العرفية عن الأعمال الدينية فنقول: إن الأعمال التي يقوم بها الإنسان على نوعين:

الأوّل: ما يقوم به بما أنّه جزء من تقاليد مُجتمعه وأعراف بيئته لا بما أنّه جزء من الدين، مع كونه مباحاً بالذات في الشريعة المقدّسة.

١ـ جامع الأُصول ٩: ٥٦٦، عن الترمذي وكنز العمال ج١ و ٨ و ١٥ و ٧ و ١١ و٢ و ٣.

الثاني: ما يقوم به بما أنّه جزء من الشريعة والدين، وبزعم أنّه أمر به الشارع، وله أصل في القرآن والسنّة.

والبدعة المحرّمة تكون في النوع الثاني، فإنّ الانسان إذا أتى بعمل بوصفه جزءاً من الدين، في حين لم يكن مأموراً به من قبل الشارع ولم يكن له أصل في الشريعة، كان عمله بدعة.

لا من النوع الأوّل، إذا كان مباحاً في ذاته.

نعم يحرم العمل ـ في النوع الأوّل ـ إذا كان مُحرّماً ومحظوراً بالذات في الشريعة، وحينئذٍ تكون حرمته لا لأجل كونه بدعة بل لكونه محرّماً لذاته شرعاً، و إليك بيان ذلك بالتفصيل لمزيد التوضيح.

النوع الأوّل: ما يؤتى به تبعاً للتقاليد الاجتماعية:

إذا قام الإنسان بأمر مباح في حدّ ذاته (كالاحتفال في يوم خاص) لا ينطبق عليه شيء من العناوين المحرّمة كشرب الخمر، واقتراف الميسر، لا بما أنّه من الدين، بل بما أنه من العادات المتعارفة في حياة قومه ومجتمعه، لا يكون عمله هذا بدعة في الدين، لعدم صلته بالدين و إنّما يُطلق عليه أنّه أمر مُحدث أو مبتدع با لمعنى اللغوي لا با لمعنى الوارد للبدعة في الكتاب والسنّة، ومصطلح العلماء.

فمثلاً لو احتفل شعب بيوم استقلاله، وخروجه عن ذلّ التبعية، فإنّ هذا العمل لا يكون بدعة في الدين، ذلك لأنّ المحتفلين لا يقومون به بما أنّه من الدين، وبما أنّ الشارع أمر بذلك، إنّما يقومون به لكونه من التقاليد

والعادات التي جرى عليها الآباء والأجداد، أو ابتكرها الجيل الحاضر تشحيذاً لعزائم الشعب في سبيل حفظ استقلالهم، والخروج عن سيطرة القوى الكبرى عليهم، مع كون العمل غير محرّم في ذاته، بل هو اجتماع و إنشاد قصائد و إلقاء خطب وشرب شاي ولقاء إخوان إلى غير ذلك.

ونمثل لهذا بالشعب الجزائري فإنّه مرّت عليه أعوام عديدة رزحوا فيها تحت السيطرة الفرنسية الغاشمة، تنهب ثرواتهم، وتدمّر ثقافتهم الإسلامية، ثمّ منحهم الله تعالى الاستقلال والحرية بفضل عزائمهم، وجهادهم وتضحيتهم، وعادت إليهم عزتهم وهويتهم، فلو قرّر هذا الشعب أن يحتفل بيوم تحرّره هذا كلّ عام من دون ارتكاب المنكرات واقتراف المعاصي ما كان لأحد أن يلومهم على ذلك ويذمّهم، بل يمدحهم العقلاء بفطرتهم السليمة.

كما لا يدور في خلد أحد أنّ هذا الشعب ارتكب بهذا الصنيع بدعة في الدين، لأنّه لم يقم بهذا لكونه من الدين والشريعة، وأنّ النبي أمر بذلك، بل قامَ بما قامَ من باب حفظ المصالح وتشحيذ عزائم الناس الذي هو في حدّ نفسه حلال بلا ريب.

فمن حَكَمَ بحرمة هذه التقاليد والآداب والرسوم سواء أكان لها جذور في الأعوام السابقة أو كانت من محدثات العصر فقد ارتكب خطأً في تحديد البدعة، ولم يميّزها عن غيرها من المراسيم والآداب.

فهذا ابن تيمية يصف الكثير من الأعمال المباحة التي يقوم بها

المسلمون منذ قرون بالبدعة يصرّح في موضع آخر بأن الأصل في العادات هو الحلّية إلاّ ما حظره الله قال: «فالأصل في العبادات لا يشرَّع منها إلاّ ما شرّعه الله، والأصل في العادات لا يحظر منها إلاّ ما حظره الله»[١].

وبهذا يُعلم أن تضييق الأمر في العادات والتقاليد التي لم يرد فيها حظر من الشرع لا يصدر إلاّ من الجاهل بأنّ الشريعة الإسلامية سمحة سهلة[٢] لم تتدخل في عادات الناس وتقاليدهم بل تركتها إلى أنفسهم حتى يختار كل قوم ما يناسب بيئتهم وظروفهم، وهذا هو الأساس لكون الإسلام خاتم الشرائع، وكتابه خاتم الكتب، ونبيّه خاتم الأنبياء ولو كان محدّداً للتقاليد والآداب، والمراسم والمواسم لوقع التضادّ بينه وبين حياة الشعوب وحضارتها المتكاملة مع مُضيّ الزمان.

إنّ هذا الأُسلوب هو الذي يضمن مرونة الإسلام، ويجعله قادراً على أن يتمشى مع العصور والحضارات.

إنّ الإسلام بيّن الأُطر العامّة، ولم يتدخل في تقاليد المجتمعات وآدابهم العرفية بل خلاّهم وأياها إذا كانت أمراً مباحاً حلالاً بالذات.

نعم الأمر المحرّم لا يتغير حكمه، وإن أُطلق عليه أنّه من تقاليدهم وآدابهم، فلا يحلّ محرّم بحجّة أنّه من الأعراف الاجتماعية.

١ـ المجموع من فتاوى ابن تيمية ٤: ١٩٦.

٢ـ صحيح البخاري ج١، كتاب الإيمان باب «الدين يسر»: ١٢. روى عن النبيّ ﷺ أنّه قال: «أحبّ الدين إلى الله الحنيفيّة السمحة».

إنّما الكـلام هـو فيما إذا كان غير محرّم بـالـذات، أي لم يكن ممّـا عـدّه الشارع المتمثل في الكتاب والسنّة أمراً محرَّمـاً، ففي مثل هذه الصورة لا يُعدّ ـ بسبب الاتفاق عليه وعلى إتيـانه في زمان أو مكان معيّـن ـ بـدعة بمعناها الاصطلاحي.

إنّ لكلّ قوم آدابـاً خاصّة في المعماريـة، والخياطة والمعـاشرة واللقاءات السنويـة وفي الضيافات، وقـد تركهم الشرع فيها إلى أنفسهـم، ولم يُحدّدها، فإذا اتفقوا على أن يتهادوا فيما بينهم في كلّ سنّة في يوم خاص، أو يجتمعوا في كلّ شهر في وقت معيّـن لا بما أنّه من الديـن، لم يكن ذلك بدعة، وهكذا لو أجمعوا على تكريم زعيمهم في يوم خاص.

ولولا هذه المرونـة لما كان الإسلام ديناً عـالمياً خالداً، ولتوقفـت حركته منذ أقـدم العصور، إذ أنّ لكل قـوم رسوماً وأعـرافاً تتعلّق بها قلـوبهم ... مع فرض أنّه ليس أمراً محرّماً بالذات.

❁ ❁ ❁

النوع الثانـي: ما يؤتى به بـاسم الدين، وأنّه أمـر به الشـارع في الكتاب والسنّة، وهذا هو الذي ينقسم العمل فيه إلى عمل شرعي وبدعي.

فلو أمر به الشارع يكون العمل به مشروعاً والعامل مُثاباً.

أمّا إذا لم يكن هنـاك نصٌ من الشارع على الإتيان به بما أنّـه من الدين عُدَّ عملاً بدعياً، والعامل به مبتدعاً، ويُعاقب عليه أشدّ العقاب.

ملاك كون العمل مشروعاً لا بدعة:

ولكن الـذي يجب أن نلفت إليه نظـر القارئ الكريـم هو أنّ العنصر الذي يوجب خروج العمل عن كونه بدعياً هو دعم الشرع له، وتصريحه بأنّه من الدين، وهذا الدعم يكون على نوعين:

الأوّل: أن يقع النـص عليـه في القـرآن والسنّـة بشخصـه، وحـدوده وتفاصيله وجزئياته. كالاحتفال بِعيدي الفطر والأضحىٰ، والاجتماع في عرفة ومنى، ولا شكّ أنّ هذا الاحتفال والاجتماع قد أمر به الشرع فخرج عن كونه بدعة.

الثاني: أن يقع النص عليه على الوجه الكلّـي، ويُترك انتخاب أساليبه وأشكاله وألوانه إلى الظروف والمقتضيات.

و إليك بعض الأمثلة في هذا المجال:

١ـ لقـد ندب الشارع المقـدس إلى تعليم الأولاد ومكافحـة **الأُمية** ولا شكّ أنّ لهذا الأمر الكلّـي أشكالاً وألواناً حسب تبدّل الحضارات وتكاملها، وقد كـان التعليم والكتابـة في الظروف السـابقة تتحقق بـالكتابة بـالقصب والحبر، وجلوس المتعلّم على الأرض في الكتـاتيب، إلاّ أنّ ذلك تطوّر الآن إلى حالـة جديدة تستخدم فيهـا الأجهزة المتطورة حيث أصبح النـاس يتعلّمون عن طريق الإذاعة والتلفزيون والكومبيوتر والأشرطة و إلى غيرهـا من وسائل التعليم الحديثة.

إنّ الشـارع المقـدس لا يخالف هـذا التطور ولا يمنـع من استخـدام الاجهـزة والأساليـب الحديثة ، إنّما هـو أمـر بـالتعليم والتعلّم، وتـرك إتخاذ الأساليب إلى الظروف والمقتضيات.

ولـو أصرَّ على إتخاذ كيفيـة خاصّـة لفشـل في هـدفه المقـدَّس ولفقـد مبررات خلوده واستمـراره، لأنّ الظروف ربّما لا تناسب الأداة الخاصّـة التي يقترحها والكيفية الخاصّة التي يحددها.

٢ـ لقد حث الإسلام على الإحسان إلى اليتامى والتحنّن عليهم وحفظ أموالهم وتربيتهم، غير أنَّ هذا الأمر الكلّـي له ألوان وأساليب مختلفة تجاري مقتضيات كلّ عصر ومصر وإمكانيـاتهما فاللازم علينا هو امتثـال ما ندب إليه الشرع، وأمّا كيفيتـه فمتروكة إلى أهل كلّ عصر ومصر، ومن أصرَّ على أنّ على الشـارع تبيين خصوصيـات الإحسان، فقـد جهل بـالإسلام ولم يعـرف أساس كـونه خـاتماً إذ لا يكون خاتماً إلاّ إذا ذكـر لُبّ الإحسان إلى اليتـامى وغيره، وترك الصور والأساليب إلى الناس ومقتضيات الزمان والمكان.

٣ـ إنَّ الصحـابة ــ حسب رواية السنّـة ـ قـاموا بجمع آيـات القرآن المتفرّقة في مصحف واحد ولم يصف أحدٌ منهم هذا العمل بكونه بدعة، وما هذا إلاّ لأنّ عملهم كان تطبيقاً لقـوله سبحانه: ﴿ **إنَّا نحن نزَّلنا الذِكرَ وإنّا لَهُ لحافظون**﴾ (١).

فعملهم في الـواقع كـان تطبيقاً عمليـاً لنصـوص شرعية من الكتـاب والسنّة، وقـد جرى المسلمون على ذلـك المنوال في مجال الاهتمام بالقـرآن من

١ـ الحجر: ٩.

كتابته وتنقيطـه، و إعراب كلمه وجمله، وعدّ آيـاته وتمييزها بـالنقاط الحمراء، وأخيراً طبـاعته ونشره، وتشجيـع حُفّاظـه وقرّائه، وتكـريمهم في احتفـالات خاصة، إلى غير ذلـك من الأُمور التي يعتبر كلّها دعماً لحفظ القـرآن وتثبيته وبقائه، و إن لم يفعلـه رسول الله ولا أصحـابه ولا التـابعون، إذ يكفينـا وجود أصل له في الأدلة.

٤ـ إنَّ الدفـاع عن بيضة الإسلام وحفظ استقلاله وصيـانة حدوده من الأعـداء أصل ثـابت في القـرآن الكـريـم قال سبحـانـه: **﴿وَأعِدّوا لَهُم مَا اسْتَطَعتُم مِن قُوّةٍ وَمِـن رِباطِ الخَيلِ تُرهِبُونَ بِه عَـدوّ الله وَعَدوَكُم﴾** [١]. وأمّا كيفية الدفـاع ونوعية السلاح وشكل الخدمة العسكـرية المتبعة في كلّ عصر ومصر فهو برمته تطبيق لهذا المبدأ وتجسيد لهذا الأصل.

فالتسلح بالغواصات والأساطيـل البحرية والطائرات المقاتلة إلى غير ذلك من أدوات الدفـاع ليس بدعة بل تجسيد لهذا الأصل، ومـن حلا له أن يرمي التجنيد العسكري بأنّه بـدعة يكون ممّن غفل عن حقيقة الحال وجهل بأنّ الإسلام يأمر بالأصل ، ويترك الصور والأشكال لمقتضيات العصور.

ما يترتَّب على هذا الأصل:

ويترتب على هذا الأصل أُمور:

١ـ إذا كـانت الشريعة الإسلاميـة شريعة خاتمة وكتـابه كتابـاً خاتماً، ونبوته نبوّة خاتمة، و إذا كان باب الوحي ونزول الشرائع من السماء إلى الأرض

١ـ الأنفال: ٦٠.

قد أُغلق بوفاة رسول الإسلام ﷺ وهو كذلك يقيناً، وإذا كان ليس للبشرية شريعة إلاّ هذه الشريعة إلى يوم القيامة فيجب أن تتمتع هذه الشريعة بمرونةٍ خاصّة حتى يتقبّلها جميع شعوب العالم بيسر، ورغبة، ومن المرونة هذه، أن لا يخالف الإسلام تقاليد الشعوب وآدابها، ولا يعارض أعرافها ومواضعاتها، إذا لم يكن فيها حرام بالذات، وإذا لم يقوموا بها بما أنّها مأمور بها من جانب الله سبحانه، وبما أنّها من الدين، وإنّما يقومون بها كرمز أصالتهم وحضارتهم وشارة سلفهم مع كونه غير محرَّم.

ونؤكّد مرةً أُخرى أنّ هذه المراسم والأعمال إنّما لا يُعارضها الإسلام إذا لم تكن أُموراً محرّمة بالذات، أوْ لم يقارنها حرام كاختلاط النساء بالرجال، أو الاستعانة بالآلات المحرّمة إلى غير ذلك.

وإنّما تفشّى الإسلام بين الشعوب وانتشر بين الأُمم بسرعة هائلة، لأجل أنّه لم يعارض أعرافهم المحلّلة المعقولة، ولم يخالفها، وإنّما اكتفى بأن طالبهم بالإيمان بأُصوله وفروعه والإتيان بالواجبات واجتناب المحرّمات، وإصلاح الأخلاق.

٢ـ الاحتفال بمواليد الأنبياء والأئمّة والصالحين الذين لهج الكتاب والسنّة بمدحهم، وفضلهم من **هذه** الأعراف والمراسم التي لا يعارضها الإسلام، فليس لنا رميها بصفة «البدعة» لما عرفت من أنّ البدعة هو العمل الذي لم يرد بشأنه نصّ في الكتاب والسنّة، ويؤتى به على أساس أنّه من الدين.

فقد أمر الكتاب والسنّة بحب النبيّ وودّه أوّلاً، وتوقيره وتكريمه ثانياً

وحثّ عليهما في الشريعة وستتعرف على دلائل لزوم حبه كما ستتعرف على لزوم تكريمه وتوقيره.

وعلى ذلك فلو احتفل المسلمون منذ قرون ولا يعلم مبدأ تلك الاحتفالات إلاّ الله سبحانه، فإنّهم لم يريدوا بفعلهم ذلك أن يُدخلوا في الدين ما ليس منه بل أرادوا أن يُعبّروا عن حبّهم ووفائهم للنبيّ ﷺ ويجسّدوا توقيرهم وتكريمهم له.

وبذلك تقف على قيمة قول الكاتب المعاصر محمّد حامد الفقي حين يقول في تعاليقه على فتح المجيد: الذكريات التي ملأت البلاد باسم الأولياء هي نوع من العبادة لهم وتعظيمهم (١) وكيف انّه قد تجافى عن الحقيقة في قولته هذه.

فقد عرفت أنّ الوارد في الأدلّة هو الأُصول، وأمّا الصور والأشكال فموكولة إلى الأزمنة واختلاف الحضارات والأعراف، وهو أمر جار في مسألة الاحتفال بمواليد الأنبياء والأئمّة الكرام، فإنّ الكتاب والسنّة حثا على أصل الحب والمودة لهم وتركا بيان نوعية التعبير عن هذه المودة والحب، ليقوم كلّ بإظهار هذا الحب والودّ، والقيام بهذا التوقير والتعزير بطريقته المتّبعة ما لم يكن العمل الذي يقوم به في هذا المضمار حراماً بذاته أو مقروناً بأمر حرام.

والعجب أن نسمع بعض الإذاعات ـ رغم وضوح هذا الأصل ـ وهي تنقل أحاديث بعض العلماء وهم يهاجمون الاحتفال بمولد رسول الله ﷺ

١ـ فتح المجيد: ١٥٤. والكاتب المذكور وهابي النزعة.

ويشجبونه، لا بما أنّـه يشتمل على محرّم أو منكر، بل لعدّ نفس العمـل بدعة فتنتابنا الدهشة كيف لا يفرّق هـؤلاء بين «البدعة» و «السنّة»، وهل التظاهر بمحبة النبيّ، وإبـداء مودّته في ممارسـات مباحة ذاتاً بـدعة؟! أو أنّ توقيره وتكريمه وترفيعه إثم، وقد حث عليهما الكتاب والسنّة؟

وبعبارة واضحة:

إنّ ما يقـوم به المسلمون في مـولد النبيّ الأكرم إنّما هـو تجسيد لأصلين دعا إليهما الذكر الحكيم:

١ـ حبّ النبيّ ومودّته التي ستقـف على آياتها وأحاديثها مستقبلاً، في هذا الكتاب.

٢ـ تعزيره وتوقيره وتكريمه الذي دلّ عليه قوله سبحانه: ﴿... **فَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِـهِ وعَـزَّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُـوا النُّـورَ الَّـذِي أُنـزِلَ مَعَـه أُولئِكَ هُـم المُفلِحُونَ**﴾[1] وقد فُسّـر التعزير، بالتكريم والتوقير.

والعمل الـذي له أصل في الكتـاب والسنّة، لا يُعـدّ بدعـة وان أُتي به باسـم الدين، لأنّه لم يُـدخل فيه شيئـاً ليس فيه، أمّـا الأصل فموجـود، وأمّا الصورة فهي متروكة لكل عصر حسب متطلباته.

فما معنى عدّ هذه الاحتفالات التي هي تجسيد صادق للأُصول الكلّية الواردة، في الكتاب والسنَّة من البدعة؟

١ـ الأعراف: ١٥٧.

أوَليست البدعة هي أن يُؤتى بشيء باسم الشرع وليس هو من الشرع؟

أوَليس القرآن والسنَّة قد حثّا على حبّ النبي كما ستعرف ذلك على نحو التفصيل؟

أوَليس القرآن يقول: ﴿وَمَنْ يَتَوَلّ اللهَ وَرَسُولَهُ والَّذِينَ آمَنُوا فإنَّ حزبَ اللهِ هُمُ الغالِبُونَ﴾ [1].

أوَليس القرآن يقول: ﴿... فَالَّـذِينَ ءَامَنُوا بِهِ وعزّرُوهُ وَنَصَـرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذي أُنزِلَ مَعَه أُولئِكَ هُم المُفلِحُونَ﴾ [2].

أوليس الاحتفـال تجسيداً للحب والودّ، أو للتعـزير الذي هـو بمعنى التكريم والتوقير؟! ألا تكفي هذه الأُوامر الكلّية. وهل ينتظر الذين يهاجمون هـذه الاحتفـالات بحجّـة أنّها بدعـة ويتـوقعـون أن ينـصّ الشرع على جميع المصاديق والجزئيات للمفاهيم الكلّية؟

أليست وظيفـة الشرع هـي إلقاء الأُصـول وعلى المسلمين أن يقـومـوا بالتطبيقات؟

الله الله ... لا تشدّدوا على المسلمين ... ولا تعسّـروا عليهم في الدين ... قلّلوا من تكرار هذه الكلمة «بدعـة ... بدعة» قلّلوا من الازدراء با لمسلمين، وأكثروا فهم دينكم وجالسوا العلماء كيما تعلموا.

٣ـ إنّ المحـافظة على آثـار رسول الإسـلام وعترته الطـاهرة ومـا يمتّ

١ـ المائدة: ٥٦.

٢ـ الأعراف: ١٥٧.

إليهم بصلـة ليس بدعـة في الشريعة فـإنّ الشريعة الإسـلامية أمـرت بحبّ النبيّ، ومودَّته، وللحب والود مظـاهر، وتجسيدات، وحفظ المراقد وتنظيفها، والمحافظـة على الآثار وصيـانتها من الانـدثار ومـا شابه ذلـك تندرج تحت نطاق الحب والتكريم، وتعدّ مظاهر له بإتفاق كل العقلاء.

٤ـ إنَّ اجتماع قادة الشعوب وزعماء البلاد في موسم الحجّ، واستعراض المشاكل الإسـلامية ومدارستها، واتّخاذ القرارات الضـامنة لمصلحة المسلمين ليس بـدعة في الـدين بـل هو تحقيـق لغرض الحجّ، أوَليس القـرآن الكـريم يقول: ﴿**جَعَلَ اللهُ الكَعبَةَ ٱلبيتَ ٱلحَرامَ قِياماً للناسِ**﴾[1].

يعني أنّ الكعبـة المشرفـة، وموسم الحجّ، جُعلـت قيامـاً للنـاس تقيم حياتهم وتضمـن مصالح الأُمّـة الإسلاميّـة وما يقيم حيـاتهم وكيانهم، وأيّ شيء يقيم حيـاتهم أفضل مـن العمل السياسي والتـداول في قضـايا الأُمّـة، ومعالجتها بالتفكير والتخطيط والتنسيق؟

كيف لا وهذا التـاريخ ينقل لنا أنَّ قادة الإسلام وزعماءه مـن الصحابة والتابعين مارسوا العمل السياسي والحكومي والاجتماعي أثناء موسم الحجّ.

فهذا هـو الخليفة الثالث «عثمان بن عفـان» يحاسب عمّـاله في الحجّ، ويتخذ حتّى غير المسلمين مـن موسم الحجّ وأيّامـه فرصة لعـرض ظلامتهم عليه في ذلك الموسم[2].

وهـذا هو الإمـام سيد الشهـداء الحسين بن علي ـعليه السلامـ يطـرح في

١ـ المائدة: ٩٧.

٢ـ راجع العبادة في الإسلام للأُستاذ يوسف القرضاوي.

موسم الحجّ مشاكل الأُمّة ويدعوا علماءها إلى النهوض بمسؤولياتهم [١].

بل لو اقتضى الأمر أن يُظهر المسلمون قوَّتهم المادية، وقدرتهم الشكلية إرهاباً للعدو وتخويفاً للطامع فيهم، وذلك بإخراج مسيرات وتظاهرات استنكارية على هامش الحجّ كان ذلك جائزاً بل لازماً كما فعل رسول الله ﷺ لمّا أمر أصحابه في عمرة القضاء بالرملان والهرولة في الطواف ليُري المشركين قوتهم وجلدهم [٢].

تقسيم البدعة إلى الحسنة والسيئة:

وقد اشتهر بين أهل السنّة تقسيم البدعة إلى قسمين حسنة وسيئة.

قال النووي في شرح صحيح مسلم: البدعة على خمسة أقسام واجبة ومندوبة ومحرَّمة ومكروهة ومباحة، ومن الواجبة نظم أدلّة المتكلّمين للرد على الملاحدة والمبتدعين وشبه ذلك، ومن المندوبة تصنيف كتب العلم وبناء المدارس والربط وغير ذلك، ومن المباحة التبسط في ألوان الأطعمة، وغير ذلك والحرام والمكروه ظاهران [٣].

وقال الجزري في النهاية: البدعة بدعتان، بدعة هُدىً وبدعة ضلالٍ، فما كان في خلاف ما أمر الله به ورسوله فهو في حيّز الذم والإنكار، وما كان واقعاً تحت عموم ما ندب الله إليه وحضّ عليه رسوله فهو في حيّز المدح،

١ـ الاحتجاج للطبرسي: ١٩.
٢ـ راجع صحيح البخاري كتاب الحجّ، والنهاية في غريب الأثر لابن الأثير مادة (رمل).
٣ـ صحيح مسلم شرح النووي، باب صلاة الجمعة ، الحديث: ٤٣.

وما لم يكن له مثال موجودٌ كنوع من الجود والسخاء وفعل المعروف فهو من الأفعال المحمودة ولا يجوز أن يكون ذلك في خلاف ما ورد الشرع به (١).

ويظهر هذا التقسيم في كثير من الكلمات وقد رووا عن عمر بن الخطاب أنّه بعد ما رأى أنّ أُبي بن كعب أقام صلاة التراويح جماعةً وصف ذلك الفعل بالبدعة الحسنة (٢).

لكن هذا التقسيم باطل لو أُريد منه البدعة بمعناها المصطلح عند الفقهاء أي «إدخال ما ليس من الدين في الدين».

وهذا المعنى ليس إلاّ قسماً واحداً وهو محرّم بالكتاب والسنّة، والعقل والإجماع إلى يوم القيامة، ولا يسوّغها شيء قطّ، ولا مبرر لتقسيمها إلى البدعة الحسنة والبدعة السيئة ما دامت من باب ادخال ما ليس من الدين، في الدين.

نعم يصح هذا التقسيم بالنسبة إلى التقاليد والأعراف الاجتماعية، وأيّ شيء محدث آخر في حياة المجتمعات من العادات والرسوم، فما يؤتى منها من دون الإسناد إلى الدين، ولم يكن محرّماً بالذات شرعاً كان بدعةً حسنةً، ومفيدة مثل ما اذا احتفل الشعب بيوم استقلاله، أو تجمّع للبراءة من أعدائه أو أقام الأفراح لمولد بطل من أبطاله، أو ما هو معهود ومرسوم بين الملوك والرؤساء بأن يبرق كلٌ إلى الآخر بمناسبة عيد الاستقلال الوطني، أو ولادة الرئيس إظهاراً للفرح، وتجسيداً للتوادد المحمود عقلاً.

١ـ النهاية لابن الأثير مادة «بدعة»، ج١: ١٠٦.

٢ـ صحيح البخاري: مجلد ٣ كتاب التراويح ص ١٥٦.

نعم بما أنّه حلال بالذات لا مانع أن تتفق عليه الأُمّة وتتّخذه عادة وتقليداً مُتّبعاً في المناسبات.

وأمّا إذا أتى به من دون إسناده إلى الدين، ولكنّه كان محرّماً بالذات كان حينذاك فعلةً سيئةً لكونه عملاً محرماً مثل دخول النساء سافرات مُتبرجات في مجالس الرجال في الاستقبالات والضيافات وحينئذ لا تكون حرمة هذا الأمر من باب كونه بدعة بل من باب كونه حراماً بالذات شرعاً، فلا ينطبق عليه عنوان «شرّ الأُمور مُحدثاتها» لأنّ للبدعة قسماً واحداً وهو «إدخال ما ليس من الدين في الدين» وهو المعنيّ بأحاديث تحريم البدعة ليس غير، والمورد الأخير ليس من قبيل ادخال ما ليس من الدين في الدين، بل من باب الإتيان بشيء حرام بالذات، والفرق بين البابين واضح.

٤

حُبّ النبيّ وعترته الطاهرة
في الكتاب والسنّة
ومظاهره في حياة الفرد والمجتمع

- ❑ حبُّ النبيّ ﷺ في الكتاب.
- ❑ العوامل الداعية إلى حبّ النبيّ ﷺ.
- ❑ مكانة النبيّ ﷺ وعلوّ كعبه.
- ❑ الأحاديث الحاثّة على حبّ النبيّ ﷺ.
- ❑ مظاهر الحبّ في الحياة.
- ❑ وظائف الأُمّة تجاه النبيّ ﷺ.
- ❑ حبُّ ذوي القربى في الكتاب والسنّة.
- ❑ البواعث إلى محبّة أهل البيت.
- ❑ ما يترتّب على هذا الأصل.
- ❑ صيانة الآثار الإسلامية.
- ❑ البناء على القبور في ضوء الكتاب والسنّة.

الحبّ والبغض خلّتان تتواردان على قلب الإنسان، تشتدان وتضعفان، ولنشوئهما واشتدادهما أو انحلالهما وضعفهما عوامل وأسباب.

ولا شكَّ أنّ حُبّ الانسـان لذاته من أبـرز مصاديق الحبّ، وهـو أمر بديهي لا يحتـاج إلى البيان، وجبلّــي لا يخلو منـه إنسان، ومن هـذا المنطلق حب الانسـان لما يرتبط بـه أيضاً، فهـو كما يحب نفسه يحبُّ كـذلك كلّ مـا يمتّ إليه بصلة، سواء كان اتّصاله به جسمانياً كالأولاد والعشيرة، أو معنوياً كالعقائد والأفكار والآراء والنظريات التي يتبنّاها، وربّما يكون حبّه للعقيدة أشد من حبّه لأبيـه وأُمّه، فيذب عن حياض العقيدة بنفسـه ونفيسه، وتكون العقيدة أغلى عنده من كلّ شيء حتّى نفسه التي بين جنبيه.

فإذا كان للعقيدة هذه المنزلة العظيمة يكون لمؤسسها ومغذّيها، والدعاة إليها منزلة لا تقل عنها، إذ لـولاهم لما قام للعقيدة عمود، ولا اخضرّ لها عود ولأجل ذلـك كان الأنبيـاء والأوليـاء بل جميع الـدعـاة إلى الأُمـور المعنويـة والروحيـة مُحترمين لدى جميع الأجيـال من غير فرق بين نبي وآخـر، ومُصلح وآخر، فالإنسان يجد من صميم ذاته خضوعاً تجاههم، وإقبالاً عليهم.

ولهذا لم يكن عجيبـاً أن تحترم بل تعشق النفـوس الطيّبة طبقـة الأنبياء والرُسل منـذ أن شرع الله الشرائع وابتعث الرسل، فترى أصحابها يُقـدّمونهم على أنفسهم بقدر ما أُوتوا من المعرفة والكمال.

حبّ النبيّ في الكتاب:

ولوجـود هذه الأرضية في النفس الإنسـانية والفطرة البشرية تضـافرت الآيات والأحاديث على لزوم حبّ النبيّ وكل ما يرتبط به، وليست الآيات إلاّ إرشـاداً إلى ما تـوحيه إليـه فطـرته قـال سبحانـه: ﴿قُلْ إِنْ كَانَ ءَابَاؤُكُمْ

وَأَبْنـاؤُكُمْ وَإِخـوانُكُـمْ وَأَزْواجُكُمْ وَعَشيرَتُكُمْ وَأَمـوالٌ اْقْتَرَفْتُمُـوهـا وتِجارَة تَخْشَوْنَ كَسادَها وَمَساكِنُ تَرْضَـوْنَها أَحب إِلَيكُمْ مِنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهادٍ في سَبيله فَتَرَبَّصُوا حَتّى يَأتِـي اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي القَوْمَ الفاسقِينَ﴾ (١).

وقال سبحانه: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللهَ وَرَسُـولَهُ وَالَّذِينَ ءَامَنُـوا فَإِنَّ حِزْبَ اللهِ هُمُ الغالِبُونَ﴾ (٢).

وليست الآيـات الحاثّة على حُبّ الـرسول الكـريم ﷺ مُنحصرة في ذلك، وسيوافيك ما يدلّ على لزوم تكريمه وتوقيره فانتظر.

العوامل الداعية إلى حُبّ النبي:

لم يكن أمر الله سبحانه بحبّ النبيّ أمـراً اعتباطياً بل كان لأجل وجود عوامل اقتضت البعث إلى حُبّه والحث على موادته نشير إلى بعضها:

١ ـ انّ الإيمان إذا نضج في قـرارة الإنسان، واعتقد بنبوة الـرسول ﷺ وأدرك أنَّ سعادتـه تكمُن في مـا جاء بـه أصبح حبه للنبـيّ في قلبه أشـدّ من حبه لأبنائه وآبـائه فضلاً عن إخوانه وعشيرته، لأنّه يشعـر بقوة الإيمان ونوره انّه سعـد بالنبي الأكرم، ونجا مـن الشقاء ببركته وفضله، فعنـدئذ يتفانى في حبّه ويتهـالك في وُدّه، فيكـون الحث على حبّ النبيّ استجـابة لهذه الـرغبة النفسية السليمة المنطقية، وتأكيداً لها.

١ـ التوبة: ٢٤.

٢ـ المائدة: ٥٦.

٢ـ صلـة النبيّ الوثيقة بـالله سبحانه وارتبـاطه بخالق الكـون، فيكون الحث على حبّ النبـيّ واضمار المودّة لـه تقـديراً لهذه العـلاقـة وتثمينـاً لهذه الصلة المقدسة بالخالق.

٣ـ مـا فاق بـه على جميع النـاس من مناقـب وفضائل ومـا يحمله بين جوانحه من محاسن الأخلاق ومحامدها.

٤ـ سعيه الحثيث في هـداية الأُمّـة بحيث كـان يبذل جهـداً كبيراً في هداية أُمّته إلى حـدّ التضحية براحته بل بنفسه، وكـان يُصيبه الحزن الشديد إذا رأى إعراضهم عن رسـالته ولأجل ذلك نزل الذكر الحكيم يُسلّيـه بقوله: ﴿فَلَعلَّكَ باخِعٌ نَفسكَ على ءَاثارِهِمْ إِنْ لَـمْ يُؤمِنُوا بهذا الحَديثِ أَسَفًا﴾ [١].

وقال عزَّ من قائل: ﴿فَلا تَذْهَبْ نَفسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَـرات إِنَّ اللهَ عَلِيمٌ بِما يَصْنَعُونَ﴾ [٢].

إنَّ النبي كـاد أن يُهلك نفسه أسفـاً على الذين يُفضّلون الضـلالة على الهدى، ويُعرضون عن الهداية والرشاد، أوَليس هذا مُستحقاً لأن تحبّه القلوب وتودّه الأفئدة؟

أوَليس هذا التأسّـف دليلاً على رحمة هذا النبي بالنـاس، وحبه العميق للبشريـة، وهل يمتلك القلـب إن كان سـوياً إلاّ أن يبـادل النبيّ العطـوف الخلص، الحبَ والمودَّة؟

١ـ الكهف: ٦.

٢ـ فاطر: ٨.

ولقد انعكس حُبُّـه للأُمّة وتفانيه في الهداية والارشاد، في غير واحدة من الآيات نعرض بعضها قال سبحانه: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظّاً غَليظَ القَلْبِ لانْفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ فَاْعْفُ عَنْهُمْ وَاْسْتَغفِرْ لَهُمْ وَشاوِرْهُمْ في الأمْرِ﴾ [1].

وقد بلغ حسن خلقه وكرامة نفسه إلى حدّ يصفه القرآن الكريم بالعظمة ويقول: ﴿وَإِنَّ لَكَ لأجْراً غَيْرَ مَمْنُونٍ * وإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيم﴾ [2].

وهذا هو البوصيري يعكس مضمون الآية في قصيدته المعروفة:

فاق النبيّين في خَلقٍ وفي خُلُقٍ ... ولم يُدانُوه في علمٍ ولا كَرَمِ
أكْرِم بِخَلق نبيٍ زانه خُلُقٌ ... بِالحُسن مُشتَمِلٌ بالبِشرِ مُتَّسِمِ

وهل يمكن للنفس أن لا تعشق رسول الله ﷺ عشقاً جمّاً وهو الشفيع الأكبر يوم القيامة وقد أعطاه الله تعالى تلك المنزلة الرفيعة إذ قال: ﴿وللآخِرةُ خَيرٌ لَكَ مِنَ الأُولى * وَلَسْوفَ يُعْطِيكَ رَبُكَ فَتَرْضى﴾ [3].

وقد فُسّرت في غير واحد من الأحاديث بمقام الشفاعة.

وهل يرضى ﷺ وهو نبيّ الرحمة ببقاء مؤمن به في النار بل ودخوله

١ـ آل عمران: ١٥٩.

٢ـ القلم: ٣ـ ٤.

٣ـ الضحى: ٤ ـ ٥.

فيها إلاّ إذا كان مقطوع الصلة بالله تعالى ورسوله بسبب الموبقات؟

أم هل يمكن للنفس أن لا تحب ذلك النبي الكريم الرؤوف الرحيم بأُمّته، الحريص على هدايتهم بنص القرآن الكريم إذ يقول عزَّ وجلّ: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتّمْ حَرِيصٌ عَلَيكُمْ بالمؤمِنينَ رَءُوفٌ رَحِيم﴾ (١).

ثمَّ إنَّ للشيخ العلاّمة: محمّد الفقي أحد الأزهريين كلاماً في مكانة النبي نأتي بنصّه:

مكانة النبيّ وعلوّ كعبه عند ربّه:

وقد شرّف الله تعالى نبيّه بأسمى آيات التشريف، وكرَّمه بأكمل وأعلى آيات التكريم، فأسبغ عليه نعمه ظاهرةً وباطنةً، فذكر منزلته منه جلَّ شأنه حيّاً وميتاً في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ وملائكتَهُ يُصَلّونَ عَلَىٰ النَبِيّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلّوا عَلَيْهِ وَسَلّمُوا تَسْلِيماً﴾ (٢).

فأيّ تشريف أرفع وأعظم من صلاته سبحانه وتعالى هو وملائكته عليه؟

وأيّ تكريم أسمى بعد ذلك من دعوة عباده وأمره لهم بالصلاة والسلام عليه؟

١ـ التوبة: ١٢٨.

٢ـ الأحزاب: ٥٦.

ولم يقف تقدير الله تعالى عند هذا التقديـر الرائع بل هناك ما يدعو إلى الإعجاب ويلفت الأنظار إلى تعظيمٍ على جانب من الأهمية.

ألم تر في قولـه تعالى: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْـرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [١] ما يأخذ بالألباب ويدهش العقول فقد أقسم سبحانه وتعالى بحياة نبيّه في هذه الآية، وما سمعت أنّه تعالى أقسم بحياة أحد غيره.

والقرآن الكريـم تفيض آياته بسمو مقـامه، وتوحي بعلـوّ قدره وجميل ذكره، فقد جعل طـاعته طاعةً له سبحـانه إذ قال: ﴿مَنْ يُطِعِ الرَّسُـولَ فَقَدْ أَطاعَ اللهَ﴾ .

وعلَّق حبَّـه تعالى لعبـاده على اتّباعـه فيما بعث به وأُرسـل للعالمين إذ يقول سبحانه: ﴿قُلْ إنْ كُنْتُمْ تحِبُّـونَ اللهَ فَاتَّبِعُوني يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِـرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُـمْ﴾ [٢].

وممّا يـدلّ على مبلغ تقديره ومـدى محبّة الله وتشريفه لرسـوله ﷺ قوله تعالى: ﴿وإِذْ أَخَـذَ اللهُ مِيثـاقَ النَّبيينَ لَما ءاتَيتُكُمْ مِـن كِتـابٍ وَحِكْمَـة ثُـمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِقٌ لِما مَعَكُمْ لَتُؤمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُـرُنَّهُ...﴾ [٣].

وقد قال علي ـعليه السلامـ : لم يبعث الله نبيـاً من آدم فمـن بعده إلاّ أخـذ عليه العهد في محمّد، لَئِن بُعِثَ وهوَ حيٌ لَيُؤمِنَنَّ به ولينصرنّه ويأخذ العهد.

وتتحدث آية أُخرى عن مـدى ذلك التقدير والجلال فتقول: ﴿يا أَيُّها

١ـ الحجر: ٧٢.
٢ـ آل عمران: ٣١.
٣ـ آل عمران: ٨١.

النَّبِيّ إنّا أَرْسَلْنَاكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً * وداعياً إلى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِراجَاً مُنِيراً﴾ (١).

إنَّ هذه الآية في روعتها لتتكلم بأجلى بيان عن أروع ما يتصوّره بشر في هذه الحياة من عظمةٍ وإكبارٍ وتقديرٍ لذاته ﷺ وتعبّر عن الموهبة الربانيّة والعطيةِ الإلهية التي لم يتمتع بها نبيٌ ولا رسولٌ قبله.

وهناك نواحٍ أُخرى بعيدة المدى تنطق بسموّ منزلته، وبالغ قدره وتوجّه الثقلين إلى مبلغ تعظيم الله تعالى له ويتحدث به قوله تعالى: ﴿يَا أَيّها الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوقَ صَوتِ النَّبيّ وَلا تَجهَرُوا لَهُ بالقَولِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالكُمْ وأَنْتُمْ لا تَشْعُرُون﴾ (٢).

وقوله تعالى: ﴿إنَّ الَّذينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذِينَ ٱمْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلْتَقْوى﴾ (٣).

وقوله تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَينكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً...﴾ (٤) فأيّ إجلال أبلغ من هذا وأيّ تقدير أروع من هذا التقدير؟

وهل نال بشرٌ في هذا الوجود مثل ما نال هذا النبيُّ العظيم الذي يصفه مولاه بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلى خُلُقٍ عَظِيم﴾ (٥)؟

وهذه الآيات تدعو المؤمنين إلى توقيره وتعظيمه حال مخاطبته.

١ـ الأحزاب: ٤٥ـ٤٦.

٢ و ٣ ـ الحجرات: ٢ ـ ٣.

٤ـ النور: ٦٣.

٥ـ القلم: ٤.

ولست أقـف بك عند هـذه الـروائع والمُثل العليـا التي يمتاز بها هـذا النبيّ العظيم والرسول الصادق الأمين ولكنّي أُحدثك عن شؤون أُخرى لها خطرها في التقديـر والتعظيم، وتتجلّـى فيها مكانته ومقامـه، قال سبحانه: ﴿لَقَدْ جاءَكُمْ رَسُولٌ مِن أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيهِ ما عَنِتّم حَريصٌ عَليكُم بالمُؤْمنينَ رَءُوفٌ رَحِيم﴾ (١). ففيـه أروع وصف من أوصـافه تعـالى (رؤوف رحيم) وأبلغ نعت يقرّره له مولاه، فإنّ هذين الوصفين ممّا اتّصف به سبحانه وتعالى من جلائل الأوصاف.

وقد بلغت مكـانته عند الله سبحانـه إلى حد لا يأخذ أُمّته بمعـاصيها وذنوبها ما دام هو فيهـم يقول سبحانه: ﴿وَما كَانَ اللهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِم وَمَا كَانَ اللهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُون﴾ (٢).

فأيّ كرامة أولى وأعظـم من معجزته الخالدة الباقيـة ما بقيت الشمس وضحاها؟

وأية رحلة تاريخية قام بها أكبر من رحلته التاريخية التي نص بها القرآن الكريم وقال: ﴿سُبْحانَ الذِي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِنَ المَسجِدِ الحَرامِ إلى المَسْجِدِ الأقْصى الّذي بارَكْنا حَوْلَهُ...﴾ (٣).

وقد تضافـرت الروايات على أنّ جبرئيل كان يلازمـه من مكّة إلى بيت المقدس فهذه الملازمـة أكبر مظهر من مظاهر الشرف والفخـار وأسمى آية

١ـ الأنفال: ١٢٨.

٢ـ الأنفال: ٣٣.

٣ـ الإسراء: ١.

من آيات التقدير للرسول الأعظم في حياة الأُمم وتاريخها.

ونختم البحث بما يدلّ على علوّ مكانته وجليل قدره، أعني: قوله سبحانه: ﴿وَرَفَعْنا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [١] فقرن اسمه باسمه وجعل الإيمان لا يتحقّق إلاّ بالنطق بالشهادتين وفي ذلك يقول حسّان بن ثابت:

أغـرٌّ عليـه للنبـوة خـاتمٌ ... مـن الله من نـور يلـوحُ ويشهـدُ

وضم الإلـهُ اسمَ النبي إلى اسمِـهِ ... إذا قالَ في الخَمسِ المؤذِنُ أشهَدُ

وشـقَ لـه مـن اسمِـهِ ليجلَّـه ... فـذو العرشِ محمـودٌ وهذا محمّـدُ

وبعد هذا لا يمكن للقلم أن يكتب، وللسان أن يتكلم، فإنّ عظمته لا تصل إلى كُنهها العقول، ولا تُدرك حقيقتها الأفهام والمدارك، ولا يعرف مداها إلاّ واهبها ومُعطيها، جلّ شأنّه العظيم، وليس لنا بعد ذلك إلاّ أن نتمثّل بقول الشاعر:

وعلى تفنن واصفيـه بحسنـه ... يَفنى الزمان وفيه ما لم يوصف [٢]

هذه العوامل الأربعة هي التي يؤدّي كلُّ واحدٍ منها بالإنسان ذي القلب السليم إلى حبّ النبيّ ﷺ ومودته ولأجل ذلك تضافرت الآيات الدالة على ذلك.

١ـ الانشراح: ٤.

٢ـ التوسّل والزيارة للأُستاذ محمّد الفقي من علماء الأزهر الشريف: ١٥٦ـ ١٦٠.

وقد تعرّفت على آيتين منها وهناك آية ثالثة تأمر بتعزير النبيّ ﷺ مضافاً إلى نصرته، قال سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا به وعَزَّرُوهُ وَنَصرُوهُ وَٱتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِل مَعَهُ أُولئِكَ هُمْ المُفْلِحُونَ﴾ (١).

فالآية الكريمة تأمر بأُمور أربعة:

١ـ الإيمان به.

٢ـ تعزيره.

٣ـ نُصرته.

٤ـ اتّباع كتابه وهو النور الذي أُنزل معه.

وليس المراد من تعزيره نصرته لأنَّه قد ذكره بقوله «ونصروه» وإنّما المراد توقيره، وتكريمه وتعظيمه بما أنّه نبي الرحمة والعظمة، ولا يختص تعزيره وتوقيره بحال حياته بل يعمُّها وغيرها، تماماً كما أنَّ الإيمان به والتبعية لكتابه لا يختصان بحال حياته الشريفة.

هذه هي العوامل الباعثة إلى حب النبيّ ﷺ وهذه هي الآيات المرشدة إلى ذلك.

ولأجل دعم المطلب نذكر بعض ما ورد من الروايات في الحث على حبّه ومودّته.

١ـ الأعراف: ١٥٧.

الأحاديث الحاثّة على حبّ النبيّ ﷺ :

قال رسول الله ﷺ :

١ــ «لا يؤمِنُ أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من وُلده والناس أجمعين».

٢ـ «والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكونَ أحبَّ الناس إليه الده وَوَلده».

٣ـ «ثلاثٌ من كُنَّ فيه ذاقَ طعم الإيمان: من كان لا شيء أحب إليه من الله ورسوله، ومن كان لئن يُحرَق بالنار أحب إليه من أن يرتَّد عن دينه، ومن كان يحبّ لله ويبغض لله».

٤ــ «والله لا يكون أحدكم مؤمناً حتّى أكون أحبَّ إليه من ولده ووالده».

٥ـ «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه».

٦ـ «من أحبَّ الله ورسوله صادقاً غير كاذِبٍ ولقي المؤمنين فأحبَّهم وكان أمرُ الجاهلية عنده كمنزلة نار أُلقي فيها فقد طُعِمَ طعم الإيمان أو قال فقد بلغ ذروة الإيمان».

إنَّ الذي يرى سعادته في ما جاء به رسول الله ﷺ من شريعة ودين هو الذي يذوق طعم الإيمان، وتذوّقُ طعم الإيمان لا يتحقّق إلاّ عندما يستن

الإنسان بسنّة رسول الله ويعمل بشريعته فيحصل على سعادته.

٧ـ عن أبي رزين قال: قلت يا رسول الله ما الإيمان قال: «أن تعبد الله ولا تُشرك به شيئاً، ويكون الله ورسوله أحبَّ إليك مما سواهما، وتكون أن تحُرَق بالنار أحبّ إليك من أن تُشرك بالله شيئاً، وتحبّ غير ذي نسب لا تحبه إلاّ لله فإذا فعلت ذلك فقد دخل حبّ الإيمان في قلبك كما دخل قلبَ الضمآن حب الماء في اليوم القائظ».

٨ـ «ثلاثٌ من كنَّ فيه وَجَدَ حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه ممّا سواهما».

٩ـ عن أنس انَّ رجلاً سأل النبيّ ﷺ عن الساعة فقال: متى الساعة؟ قال: وما أعددت لها؟ قال: لا شيء، إلاّ أنّي أُحِبُّ الله ورسوله، فقال: أنت مَعَ من أحببت. قال أنس: فما فرِحنا بشيء فَرَحَنَا بقول النبيّ ﷺ : أنتَ مع من أحببت.

١٠ـ أبو ذر قال: يا رسول الله الرجلُ يحبُّ القوم ولا يستطيع أن يعمل بعَمَلِهِمْ؟ قال: أنتَ يا أبا ذر مع من أحببتَ . قال: فإنّي أُحب الله ورسوله، قال: فإنَّك مع من أحببتَ، قال: فأعاد (ها) أبو ذر، فأعادها رسول الله ﷺ .

١١ـ «مَنْ أحيا سُنّتي فقد أحبَّني ومن أحبَّني كان معي في الجنّة».

١٢ـ «والذي نفْس محمّد بيده ليأتيَن على أحدكم يوم ولا يراني، ثمّ لئن يراني أحبّ إليه من أهله وماله معهم».

١٣ـ «إنَّ أحدكم سيوشك أن يحب ينظرَ إليَّ نظرةً بما له من أهل وعيال».

١٤ـ «مِن أشدّ أُمّتي لي حُبّاً أُناسٌ يكونونَ بَعدِي يودّ أحدُهم لو رآني بأهله وماله».

١٥ـ «أشدُّ أُمتي لي حُبّاً قومٌ يكونون بعدي يودّ أحدّهم أنّه فقد أهله وماله وأنّه رآني».

١٦ـ «إنَّ أُناساً من أُمّتي يأتُونَ بَعدي يودّ أحدهم لو اشترى رؤيتي بأهله وماله».

١٧ـ «من دعا بهؤلاء الدعوات في دبر كلّ صلاة مكتوبة حَلَّت له الشفاعةُ مني يوم القيامة: اللّهمّ اعطِ محمّداً الوسيلةَ واجْعلَ في المصطفين محبّته، وفي العالمين درجته وفي المقربين ذكر داره».

١٨ـ من قال في دبر كل صلاة مكتوبة: «اللّهمّ اعطِ محمّداً الدرجة والوسيلة، اللّهمّ اجعل في المصطفين محبَّته وفي العالمين درجته، وفي المقرّبين ذكره» من قال تلك في دُبُر كلّ صلاة فقد استوجب عليّ الشفاعة وَوَجَبَتْ له الشفاعة.

وقد رُوي عن أبي بكر قال: الصلاة على النبيّ ﷺ أمحقُ للخطايا من الماءِ للنارِ، والسَّلام على النبيّ ﷺ أفضلُ مِن عتق الرِّقاب، وحبُّ رسول الله ﷺ أفضلُ من عِتق الأنفس أو قالَ: من ضرب السيف في سبيل الله عزّ وجلّ [1].

١ـ راجع للوقوف على هذه الأحاديث ونظائرها جامع الأُصول ج١ نقلاً عن صحيح البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، وكنز العمال ج٢، و ٦ و ١٢.

اختلاف الأُمّة في درجات حُبّهم للنبيّ ﷺ :

وليست الأُمّـة المؤمنة في ذلك شرعـاً سواء بل هـم فيه متفـاوتون على اختلاف درجات عرفانهم به، كاختلافهم في حبّ الله تعالى.

قال الإمام القرطبـي: كلُ من آمن بالنبيّ ﷺ إيماناً صحيحاً لا يخلو عن وجـدان شيء من تلك المحبّة الـراجحة غير أنّهم متفاوتـون فمنهم من أخذ من تلك المرتبة بالحظِ الأوفى، ومنهم مـن أخذ منها بالحظّ الأدنى كمن كان مُستغـرقاً في الشهـوات محجوبـاً في الفضلات في أكثر الأوقـات، لكن الكثير منهم إذا ذكـر النبيّ ﷺ اشتاق إلى رؤيتـه بحيث يـؤثرهـا على أهله وولده وماله ووالده ويبذل نفسه في الأُمور الخطيرة ويجد مخبر ذلك من نفسه وجداناً لا تردّد فيه [١].

مظاهر الحبّ في الحياة:

إنّ لهذا الحب مظاهـر ومجالي، إذ ليـس الحب شيئـاً يستقـر في صقـع النفس من دون أن يكون له انعكاسٌ خارجيٌ على أعمال الإنسان وتصرفاته، بل إنّ من خصائص الحب أن يظهر أثـره على جسم الإنسان وملامحه، وعلى قوله وفعله، بصورة مشهودةٍ وملموسةٍ.

فحبُّ الله ورسولـه الكريم لا ينفكّ عن اتّباع دينـه، والاستنان بسنته،

١ـ فتح الباري لابن حجر ١: ٥٠ـ ٥١.

والإتيان بأُوامره والانتهاء عن نواهيه، ولا يُعقلُ أبداً أن يكون المرء مُحبّاً لرسول الله ﷺ أشدَّ الحب، ومـع ذلك يُخالفه فيما يُبغضـه، ولا يُرضيـه، فمن ادّعى الحبّ في النفس وخالف في العمل فقد جمع بين شيئين متخالفين متضادين.

ولنِعمَ ما قال الإمـام جعفر الصادق ـ عليه السلام ـ في هذا الصدد مـوجهاً كلامه إلى مُدّعي الحب الإلهي كذباً:

تعصي الإلـه وأنـتَ تُظهِـرُ حبَّـه   هـذا لعمـرِي في الفِعـال بـديـعُ
لـو كـان حبُّك صـادقـاً لأطعتَـه   إنّ المُحِـبَّ لِمَنَ يُحبُّ مُطيـعُ [1]

نعم لا يقتصر أثـر الحب على هذا بل لـه آثار أُخرى في حيـاة المحب، فهو يزور محبوبـه ويكرمه ويعظّمه ويزيل حاجته، ويـذبّ عنه، ويدفع عنه كلّ كارثة ويهيئ له ما يُريحه ويسره إذا كان حيّاً.

وإذا كان المحبـوب ميّتاً أو مفقوداً حـزن عليه أشد الحزن، وأجـرى له الدموع كما فعل النبي يعقوب ـ عليه السلام ـ عندما افتقد ولده الحبيب يوسف ـ عليه السلام ـ فبكاه حتى ابيضـت عيناه من الحزن، وبقي كظيماً حتى إذا هـبّ عليه نسيم من جانب ولده الحبيب المفقود هشَّ له وبش، وهفا إليه شوقاً، وحباً.

بل يتعدّى أثـر الحب عند فقد الحبيب وموته هـذا الحد فنجد المحب يحفظ آثار محبوبه، وكلّ ما يتّصل به، من لباسه وأشيائه كقلمه ودفتره وعصاه ونظـارته. كما ويحترم أبنـاءه وأولاده ويحترم جنـازتـه ومثواه ويحتفـل كلّ عـام بميلاده وذكرى موته، ويكرمه ويعظمه حباً به ومودةً له.

---

١ ـ سفينة البحار مادة «حب».

وظائف الأُمّة تّجاه النبيّ ﷺ :

ويكفي في بيان مقام النبيّ وسمو منزلته أنَّ الله تعالى أوجب على الأُمّة وظائف تّجاه النبيّ ﷺ في الكتاب العزيز نشير إليها باختصار:

١ـ الصلاة عليه إذا ذُكر اسمه الشريف. قال الله تعالى: ﴿إنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَىٰ النَّبِيّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا صَلّوا عَلَيهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ [١].

٢ـ عدم دعائه ﷺ كدعاء الناس بعضهم بعضاً، قال تعالى: ﴿لا تَجْعَلُوا دُعاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً﴾ [٢].

٣ـ عدم رفع الصوت فوق صوته ﷺ وعدم الجهر له بالقول ومناداته من وراء الحجرات قال تعالى: ﴿يَا أَيّها الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوقَ صَوتِ النَّبيّ ولا تَجْهَرُوا لَهُ بالقَولِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أنْ تَحْبَطَ أَعمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُون * إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصواتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُولئِكَ الَّذِينَ ٱمتَحَنَ اللهِ قُلُوبَهُمْ لِلتَقْوى لَهُمْ مَغْفِرة وَأَجْر عَظِيم * إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الحُجُرات أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُون﴾ [٣].

٤ـ عدم التقدّم عليه في أمر قال تعالى: ﴿يَا أَيُّها الَّذِينَ ءَامَنُوا لا تُقدّمُوا

١ـ الأحزاب: ٥٦.

٢ـ النور: ٦٣ ، أي أن لا يدعوه قائلين: يا محمد، بل يقولوا مثلاً: يا رسول الله، أو يا نبي الله.

٣ـ الحجرات: ٢ـ ٤.

بَينَ يَدَي الله ورَسُولَه واْتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ سَمِيعٌ عَليم﴾ (١).

٥ـ عدم إيذائه ﷺ قال الله تعالى: ﴿إنَّ الَّذِينَ يُؤذُونَ اللهَ وَرَسُولَهُ لَعَنَهُمْ اللهُ في الدُنْيا والآخِرَةِ وَأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً﴾ (٢).

٦ـ عدم نكاح زوجاته ﷺ من بعده قال الله تعالى: ﴿مَا كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤذُوا رَسُولَ اللهِ ولا أَنْ تَنْكحُوا أَزواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إنَّ ذَلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللهِ عَظِيماً﴾ (٣).

٧ـ عدم الخروج عن مجلس المشاورة إلاّ بإذنه، قال تعالى: ﴿إنَّما المؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ وإذا كانُوا مَعَهُ عَلى أَمرٍ جامِعٍ لَمْ يَذْهَبُوا حَتّى يَسْتَأْذِنُوه﴾ (٤).

٨ـ وجوب طاعته ﷺ قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ والرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُون﴾ (٥).

هذه هي بعض الوظائف التي كلّف الله تعالى المسلمين أن يقوموا بها تجاه رسول الإسلام العظيم وهي تُنبئ عن عظمة شأنه وعلوّ درجته وكما هي في نفس الوقت تبعث كلّ إنسان إلى الإعجاب بشخصيته وإلى محبته ومودّته.

❁ ❁ ❁

١ـ الحجرات: ١.

٢ـ الأحزاب: ٥٧.

٣ـ الأحزاب: ٥٣.

٤ـ النور: ٦٢.

٥ـ آل عمران: ١٣٢.

حبّ ذوي القربى في الكتاب العزيز:

وإذا كان القرآن الكريم دعا إلى حبّ النبيّ، فهو في الوقت نفسه دعا إلى حبّ ذوي القربى إذ قال عزّ وجلّ: ﴿**قُلْ لا أَسْئَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إلاّ المَوَدَّةَ في القُرْبى**﴾ (١).

ولسنا الآن بصدد التحقيق في أنّ المودَّة في القربى هل هو أجر حقيقي أو ليس أجراً حقيقياً، بل أجره على الله سبحانه كما تضافرت بذلك الآيات في شأنه وشأن غيره من الأنبياء والرسل (٢).

وإنّما المقصود هو أنّ الله سبحانه أمر النبي ﷺ أن يطلب من أُمّته أن يودّوا ذوي قرباه ويحبوهم، وقد وردت في شأن ذوي القربى روايات أُخرى رواها المحدثون في صحاحهم ومسانيدهم ومن أراد التوسع فليراجع الكتب المؤلّفة في هذا المضمار.

والّذي يهمّنا هو نقل الأحاديث النبويّة الحاثة على حبّ العترة الطاهرة.

الأحاديث النبويّة الحاثّة على حبّ العترة:

قال رسول الله ﷺ:

١ـ «لا يؤمن عبدٌ حتى أكون أحبَّ إليه من نفسه وتكون عترتي أحبَّ

١ـ الشورى: ٢٣.

٢ـ الشعراء: ١٠٩، ١٢٧، ١٤٥، ١١٤، ١٨٠.

إليه من عترته ويكون أهلي أحبَّ إليه من أهله».

٢ـ «إنَّ لكلّ نبيّ عُصبة ينتمون إليها إلاّ وُلد فاطمة فأنا وليّهم وأنا عُصبتهم وهم عترتي خُلقوا من طينتي ويلٌ للمكذبين بفضلهم من أحبّهم أحبّه الله ومن أبغضهم أبغضه الله».

٣ـ «شفاعتي لأُمّتي من أحبَّ أهل بيتي وهم شيعتي».

٤ـ «أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة المُكرِّمُ لذريتي، والقاضي لهم حوائجهم، والساعي لهم في أُمورهم عندما اضطروا إليه والمحب لهم بقلبه ولسانه».

٥ـ «يا عليّ إنّ الإسلام عريان، لباسُه التقوى، ورياشُه الهدى وزينتُه الحياء، وعمادُه الورع وملاكه العمل الصالح، وأساس الإسلام حُبي وحبّ أهل بيتي».

٦ـ «إنّ النبيّ ﷺ أخذ بيد حسن وحسين وقال: مَن أحبّني وأحبّ هذين وأباهما وأُمهما كان معي في درجتي يوم القيامة».

٧ـ «أحبّوا الله لما يغذوكم به من نِعَمِهِ وأحبُّوني بحبِّ اللهِ، وأَحبّوا أهلَ بيتي لحبّي».

٨ ـ «من أحبّني وأحبَّ هذين (يعني حسناً وحسيناً) وأباهما وأُمهما كان معي في درجتي يوم القيامة».

٩ـ «أنا وفاطمة والحسن والحسين مجتمعون ومن أحبّنا يوم القيامة، نأكُل ونشربُ حتّى يفرّق بين العباد».

١٠ـ عن ابن عباس قال: خرج رسول الله ﷺ قابضاً على يد «علي» ذات يوم فقال: «ألا مَن أبغَضَ هذا فقد أبغَضَ اللهَ ورسوله، ومَن أحبَّ هذا فقد أحبَّ اللهَ ورسولَه» .

١١ـ عن ابن عباس أيضاً قال مشيتُ وعمر بن الخطاب في بعض أزقة المدينة فقال: يا ابن عباس أظنُّ القومَ استصغروا صاحِبَكُم إذ لم يُولُّوه أُمورَكُم؟

فقلت: والله ما استصغَره رسولُ الله ﷺ إذ اختاره لسورة براءة يقرؤها على أهل مكة.

فقال لي: الصوابَ تقولُ واللهِ لَسَمِعت رسولَ الله ﷺ يقول لعلي بن أبي طالب: « من أحبَّك أحبَّني، ومن أحبَّني أحبَّ اللهَ، ومن أحبَّ الله أدخلَهُ الجنَّة مُدلاً».

١٢ــ «من أحبَّ علياً فقد أحبَّني ومن أحبَّني فقد أحبَّ الله ومن أبغَضه فقد أبغَضني ومن أبغَضني فقد أبغَض الله» .

١٣ـ «الحسن والحسين ابناي من أحبَّهما أحبَّني ومن أحبَّني أحبَّه اللهُ وأدخلهُ الجَنَّة وَمن أبغَضهُما أبغضني ومَن أَبغَضني أبغَضهُ اللهُ وأدخَلَهُ النار».

١٤ـ عن أُسامة بن زيد قال: طرقت النبيَّ ﷺ ذاتَ ليلةٍ في بعض الحاجة فخرج النبيُّ ﷺ وهو مُشتملٌ على شيء لا أدري ما هو فلمّا فرغت من حاجتي قلت: ما هذا الذي أنتَ مُشتملٌ عليه؟ فكشفه فإذا هو حَسنٌ وحسينٌ على وركيه، فقال: «هذان ابناي وابنا ابنتي، اللّهمّ إنّي

أُحبُّهما فَأَحِبَّهُما وأَحبَّ من يُحبُّهُما».

١٥ـ عن سعد بن مالك قال: دخلتُ على النبيّ ﷺ والحسن والحسين يلعبان على ظهره فقلتُ: يا رسول الله أتحبهما؟ فقال: «وما لي لا أُحبُّهما، إنّهما ريحانتاي من الدنيا».

١٦ـ «شفاعتي لأُمّتي من أحبَّ أهل بيتي».

١٧ـ ابن عباس قال: «خَرَج رسول الله ﷺ قابضاً على يد «عليّ» ذات يوم فقال: ألا من أبغَضَ هذا فقد أَبغَضَ الله ورسولَه».

١٨ـ عن زهير بن الأقمر قال بينما الحسن بن علي يخطب إذ قامَ شيخ من أزدشنؤة فقال: رأيتُ النبيّ ﷺ واضعاً هذا الذي على المنبر في حبْوته وهو يقول: «من أحبني فليحبَّه فليبلغ الشاهدُ الغائبَ» ولولا عزمة رسول الله ﷺ ما حدَّثتُ.

١٩ـ عن البراء بن عازب قال رأيت النبيّ ﷺ حَمَلَ الحسن على عاتقه وقال: «اللّهمّ إنّي أُحبّه فأحبَّه».

٢٠ـ عن عائشة أنّ النبيّ ﷺ كان يأخذ حَسَناً فيَضمُّه إليه ثُم يقول: «اللّهمّ إنّ هذا ابني وأنا أُحبّه فأحبّه وأحبُّ من يُحبُّه».

٢١ـ عن سعيد بن زيد قال: احتضن رسول الله ﷺ حسناً ثم قال: «اللّهمّ إنّي قد أحببتُه فأحبَّهُ».

٢٢ـ عن أبي هريرة قال: بَصرَ عيناني هاتان وسَمِع أُذناي النبيَّ ﷺ

وهو آخذ بيد حَسَن أو حسين وهو يقول ترقَّ عين بقة، فيضعُ الغُلام قدمه على قَدمِ النبيَّ ﷺ ثمّ يرفعهُ فيَضَعُه على صَدْره ثم يقول: افتحْ فاكَ ثم يقبّله ثم يقول: «اللّهمّ إنّي أُحبُّه فأَحِبَّهُ».

٢٣ـ عن ابن عباس قال جاءَ العباس يعود النبيّ ﷺ في مرضه فَرَفَعَهُ فأجلَسَه على السَّرِير فقال له رسول الله ﷺ: رَفَعَكَ اللهُ يا عمّ، ثمّ قالَ العباس هذا «علي» يستأذن فدَخَلَ ودَخَلَ معهُ الحسن والحسين فقال له العباسُ: هؤلاء وُلدُكَ يا رسول الله.

قال: وهم وُلْدُكَ يا عمّ.

فقال: أتحبّهم؟ قال: نعم. فقال: أحبّكَ اللهُ كما أحببتهما[1].

هذه طائفة ممّا ورد من الأحاديث النبويّة الحاثّة على حبّ العترة وموّدتهم وهي أكثر من أن تُحصى.

البواعث إلى محبّة أهل البيت:

ولقد توفرت ملاكات المحبّة والمودّة وموجباتها ومبرراتها في أهل البيت ـعليهم السلامـ حتّى أنّ الإنسان لا يقف عليها إلاّ ويندفع إلى مودّتهم ومحبّتهم من دون إرادته.

فهم أعدال القرآن الكريم بموجب حديث الثقلين المتواتر عند

١ـ لاحظ للوقوف على هذه الأحاديث ونظائرها كنز العمال ج١٠ و ١٢ و ١٣.

المسلمين وهو الحديث الذي قال فيه رسول الله ﷺ : «إنّي تاركٌ فيكمُ الثقلين كتابَ الله وعترتي أهلَ بيتي ما إن تمسكتم بهما لن تضلّوا بعدي أبداً، وإنّهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض» (١).

فهم حسب هذا الحديث أئمّة الهدى ومثلهم مثل القرآن الكريم في إنقاذ البشرية من تيه الجهالة وحيرة الضلالة وهدايتها إلى الحياة السعيدة.

وهم شارة الإيمان وعلامته كما في الحديث الصحيح المنقول في كتب الفريقين: حيث قال رسول الله ﷺ في شأن سيدهم وأوّلهم علي بن أبي طالب: «يا علي لا يحبك إلاّ مؤمنٌ ولا يُبغضك إلاّ منافق» (٢).

وهم سلامُ الله عليهم سُفنُ النَّجاة حيث قال رسول الله ﷺ في حديث صحيح: «مثل أهل بيتي فيكم كمثل سفينةِ نوح من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق وهوى» (٣).

وهم الذين لا يصلّى على النبي من دون الصلاة عليهم وإلاّ كانت صلاةً بتراء ناقصةً، إذ قال رسول الله ﷺ : «لا تُصلُّوا عليّ الصلاةَ البتراء» فقالوا: وما الصلاة البتراء؟

قال: تقولون: اللّهمّ صلّ على مُحمّد وتسكتون بل قولوا: اللّهمّ صلِّ

١ـ وقد جمع العلامة الشيخ قوام الوشنوي كل أسناد وصور هذا الحديث في رسالة مستقلة طبعتها دار التقريب في القاهرة.

٢ و ٣ـ المستدرك للحاكم ٣: ١٥١.

على محمّدٍ وعلى آل محمّد [١].

وهم أمانٌ للأُمّة كما في الحديث النبوي المعروف:

«النجوم أمانٌ لأهل السماء، وأهلُ بيتي أمانٌ لأُمّتي» [٢].

قال الإمام الرازي في قضيّة الصلاة على الآل: إنّ الدعاء للآل منصبٌ عظيمٌ ولذلك جعل هذا الدعاء (أي الصلاة على النبيّ وآله) خاتمة التشهُّد وقوله: اللّهمّ صلّ على محمّد وعلى آله وارحم محمّداً وآله. وهذا التعظيم لم يوجَد في غير الآل فكلُ ذلك يدلُّ على أنّ حبَّ محمدٍ وآل محمدٍ واجبٌ ـ إلى أن قال :ـ وأهلُ بيته ساووهُ في خمسة أشياء:

١ـ في الصلاة عليه وعليهم في التشهد.

٢ـ وفي السلام.

٣ـ وفي الطهارة.

٤ـ وفي تحريم الصدقةِ عليهم [٣].

٥ـ وفي المحبّةِ [٤].

١ـ الصواعق لابن حجر : ٢٣٣.

٢ـ أخرجه الطبراني في الأوسط كما في الأربعين للنبهاني: ٢١٦، ولاحظ الصواعق: ٢٣٥.

٣ـ إشارة إلى الحديث النبوي: لا تحلّ الصدقة لأهل بيته.

٤ـ تفسير الرازي ج٧: ٣٩١.

محبة أهل البيت في الشعر الإسلامي:

وقد استوعب المسلمون الأوائل هـذه الحقيقة، وأحبّوا أهل البيت محبّة صادقةً واعيةً وأنشدوا في ذلك أناشيد وقصائد خالدة منها قول الفرزدق:

مِـن معشرٍ حبُّهـم ديـنٌ وبغضُهُـمُ
كُفــرٌ وقــربُهُمُ مَنْجـىً ومعتَصَـمُ
إن عُــدّ أهل التُقـى كــانُـوا أئمَتهُـمْ
أو قيلَ مَن خيرُ أهلِ الأرْضِ قِيلَ هُمُ(١)

وقول الشافعي ـ رحمه الله ـ:

يــا أهـلَ بيـتِ رَسُــولِ اللهِ حُبّكُـمُ
فــرضٌ مِـنَ اللهِ في القُــرآن أنــزلَـهُ
كفــاكـمُ مـن عظيـم الفخـر أنّكـم
مَـن لم يُصلّ عليكـم لا صـلاة لـه(٢)

---

١ و ٢ ـ الصواعق لابن حجر الباب ١١/ ٨٨.

وقول الشيخ ابن العربي:

رأيــتُ ولائي آلَ طـــه فـــريضـــةً
على رَغم أهـلِ البُعد يُـورثُني القُـربىٰ

فما طَلَـبَ المبْعُـوثُ أجـراً على الهُدىٰ
بِتَبْلِيغِـــهِ إلاّ المودّةَ في القُـــربــىٰ (١)

وقال المعاصر النبهاني:

آلَ طـــــه يـــــا آل خيرِ نَبـــيٍّ
جَـــدُّكُـم خيرةٌ وأَنتُـم خِيـــارُ

أَذهَـــبَ اللهُ عَنكُـــمُ الـــرِجْـسَ
أَهـلَ البيتِ قِـدمـاً فـأنتـمُ الأطهـارُ

لم يَسَـلْ جَـدُّكُـمْ عَلَى الـدِّين أَجْـراً
غَيرَ ودّ القُـــربـىٰ ونِعْـمَ الأجـــار (٢)

ثمّ إنّ بواعث الحبّ الذاتية الموجودة فيهـم من طهارة المحتد وقداسة الأُرومة وشرف الحَسَب والنَسَب، وما يمتازون به من الحكمة والعلم، والخُلُق

---

١ و ٢ـ لاحظ: الفصول المهمّة لشرف الدين: ٢٢٩.

السامية، والزهد والورع والتقوى إلى ملكات كريمة ونفسيات فاضلة وفواضل وفضائل أُخرى لا تعدّ ولا تحصى، وهي بواعث كلٌّ منها بمفرده عاملٌ قويٌّ في أخذ حبّهم بمجامع القلوب، وتعطف النفوس عليهم برمتها.

ما يدلّ على لزوم محبة الصحابة:

وقد توفَّرت مُقتضيات الحبّ وبواعثه في الصحابة أيضاً. يقول الله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ والَّذِينَ مَعَهُ أَشِداءُ على الكُفّار رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجدَّاً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرضواناً سِيماهُمْ في وُجُوهِهِمْ مِنَ أَثَرِ السُجُودِ ذلك مَثَلُهُم في التَوراةِ ومَثَلُهُمْ في الإنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَج شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوى على سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُرّاع لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً﴾ (١).

فحقيق أن يحب الإنسان من توفّرت فيهم هذه الصفات من الصحابة ويودّهم.

إذا وقفت على هذا الأصل الذي له جذور في الكتاب والسنّة ورأيت دعوتها إليه، لابدّ أن تعرف أنَّ لهذه المحبة مظاهر ومجالي حسب مقتضيات العصور والأجيال، ولا يمكن تحديد هذه المظاهر لاختلافها حسب اختلاف الظروف واللازم على الشريعة الدعوة إلى الأصل والجوهر، وهي محبة النبيّ وعترته، وأمّا الكيفيات والقوالب فمتروك أمرها إلى عادة الناس وعرفهم، وإلى الظروف والأجيال.

١ـ الفتح: ٢٩.

ما يترتب على هذا الأصل:

إذا كان حبّ النبيّ ﷺ وعترته الطاهرة وأصحابه المنتجبين أصلاً من أُصول الإسلام فلابدّ أن يكون لهذا الحب أثر في الروح والجسم، وفي الأعضاء والجوارح، ولا معنى لكبت النفس في هذا المجال وكتمان الحب وإخفائه، والإصرار على أنّ حبّ النبيّ وآله وأصحابه أمر قلبي دون أن يكون له مظهر في السلوك والحياة الفردية والاجتماعية.

وعلى هذا يجوز للمسلم أن يقوم بكلّ ما يُعدّ مظهراً لحبّ النبيّ وعترته شريطة أن يكون عملاً حلالاً بالذات ولا يكون منكراً في الشريعة مبغوضاً في الكتاب والسنّة نظير:

١ـ تنظيم السنَّة النبويّة، وإعراب أحاديثها وطبعها ونشرها بالصور المختلفة، والأساليب الحديثة، وفعل مثل هذا بالنسبة إلى أقوال أهل البيت وأحاديثهم.

٢ـ نشر المقالات والكلمات، وتأليف الكتب المختصرة والمطوّلة حول حياة النبيّ وعترته وإنشاء القصائد بشتى اللغات والألسن، في حقهم، كما كان يفعله المسلمون الأوائل.

فالأدب العربي بعد ظهور الإسلام يكشف عن أنّ إنشاء القصائد في مدح رسول الله ﷺ كان ممّا يعبّر به أصحابها عن حبهم لرسول الله ﷺ.

فهذا هو كعب بن زهير ينشئ قصيدة مطوّلة في مدح رسول الله ﷺ

منطلقاً من إعجابه وحبه له ﷺ فيقول في جملة ما يقول:

بـانَت سُعـادُ فقلبـي اليـومَ مَتبـول
مُتيَّـمٌ إثـرَهـا لم يُفْـد مَكبـولُ

نُبِّئْـتُ أنّ رسـولَ اللهِ أوْعَـدَني
والعفـوُ عنـد رَسـول اللهِ مَـأمُـولُ

ويقول:

مَهـلاً هـداكَ الـذي أعطـاكَ نـا
فِلَـة القُـرآن فيهـا مـواعيظٌ وتَفْصِيـلُ

إنَّ الـرسـول لنَـور يُستضـاء بـه
مهنّـد مـن سيـوف الله مسلـول [١]

وقد ألقـى هذه القصيـدة في حضرة رسول الله ﷺ وأصحابـه ولم ينكر عليه رسول الله ﷺ.

وهذا هـو حسّان بن ثـابت الأنصاري يـرثي النبيّ ﷺ ، ويذكـر فيه مدائحه، ويقول:

١ـ السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٥١٣.

بِطيبــة رســمٌ لِلــرســول ومعهَــدُ
مُنير وقــد تعفــو الـرســومُ وتحمَــدُ

إلى أن قال:

يــدلُّ على الــرحمانِ مَن يقتــدي بــه
وينقِـذُ مِـن هـولِ الخَزايـا ويــرشِـدُ
إمــامٌ لهمْ يهديهمُ الحقَ جــاهــداً
مُعلـمُ صـدقٍ إن يطيعـوه يسعُـدوا (١)

وهذا هو عبد الله بن رواحة ينشئ أبياتاً في هذا السياق فيقول فيها:

خَلُّــوا بَنـي الكفــار عـن سَبيلــه
خَلُّــوا فكـلُ الخَير في رَسُــولــه
يــا ربِ إنّــي مــؤمــنٌ بِقيلــه
أعــرفُ حــقّ اللهِ في قَبــولِــه (٢)

هذه نماذج ممّا أنشأه الشعراء المعاصرون لعهد الرسالة في النبيّ الأكرم ونكتفي بها لدلالتها على ما ذكرنا.

١ـ السيرة النبوية لابن هشام ٢: ٦٦٦.
٢ـ المصدر نفسه ٢: ٣٧١.

ولـو قام بـاحث بجمـع ما قيل مـن الأشعار والقصـائد حـول النبيّ الأكرم لاحتاج في تأليفه إلى عشرات المجلدات.

فإنّ مدحَ النبي كان الشغلَ الشاغلَ للمخلصين والمؤمنين منذ أن لبى الرسـول دعوة ربّـه ولا أظن أنّ أحداً عـاش في هذه البسيطة نـال من المدح بمقدار ما ناله الرسول ﷺ من المدح بمختلف الأساليب والنظم.

وهناك شعـراء مخلصون أفرغوا فضـائل النبي ومناقبه في قصـائد رائعة وخالـدة مستلهمين ما جاء في الذكـر الحكيم والسنّة المطهرة في هـذا المجال فشكر الله مساعيهم الحميدة وجهودهم المخلصة.

٣ـ تقبيل كـلّ ما يمتّ إلى النبيّ بصلة كبـاب داره وضريحه وأستار قبره انطلاقاً من مبدأ الحب الذي عرفت أدلته .

وهذا أمـر طبيعي وفطري فبما أنّ الإنسان المؤمن لا يتمكن بعـد رحلة النبيّ ﷺ من تقبيل الرسول [1] ﷺ يقبّل ما يتصل به بنوع من الاتصال، وهو كما أسلفنـا أمـر طبيعي في حيـاة البشر حيـث يلثمـون مـا يـرتبط بحبيبهـم ويقصدون بذلك نفسه. فهذا هو المجنون العامري كان يقبّل جدار بيت ليلى ويصرّح بأنّه لا يقبّل الجدار بل يقصد تقبيل صاحب الجدار، يقول:

أَمُـرُّ على الـديـارِ ديـار ليلى ... أُقَبّـــلُ ذا الجدار وذا الجدارا
فما حـبُّ الـديـارِ شَغفنَ قَلبـي ... ولكنْ حبّ مَـن سَكَن الديـارا

١ـ ولقد ورد في الحديث والتـاريخ انّ الإمام علياً، وأبا بكر قبّـلا وجه رسول الله ﷺ بعد موته وقالا: فداك أبي وأُمي طبت حيّاً وميّتاً اذكرني عند ربّك (راجع نهج البلاغة وخلاصة الكلام).

٤ــ إقامة الاحتفالات في مواليدهم وإلقاء الخطب والقصائد في مدحهم وذكر جهودهم ودرجاتهم في الكتاب والسنّة شريطة أن لا تَقْتَرِن تلك الاحتفالات بالمنهيات والمحرّمات.

ومن دعا إلى الاحتفال بمولد النبيّ في أيّ قرن من القرون فقد انطلق من هذا المبدأ، أيّ حبّ النبي الذي أمر به القرآن والسنّة بهذا العمل.

هذا هو مؤلف تاريخ الخميس يقول في هذا الصدد: لا يزال أهل الإسلام يحتفلون بشهر مولده ويعملون الولائم ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات، ويُظهرون السرور، ويزيدون في المبرات ويعتنون بقراءة مولده الشريف ويظهر عليهم من كراماته كلُ فضلٍ عظيمٍ [١].

وقال القسطلاني: ولا زال أهلُ الإسلام يحتفلون بشهر مولده ـ عليه السلام ـ يعملون الولائم ويتصدّقون في لياليه بأنواع الصدقات ويُظهرون السرور ويزيدون المبرات ويعتنون بقراءة مولده الكريم ويظهر عليهم من بركاته كلّ فضل عميم ... فرحم الله امرئ اتّخذ ليالي شهر مولده المبارك أعياداً ليكون أشد علّة على من في قلبه مرض وأعياه داء [٢].

٥ــ تشييد مراقدهم، وتعمير قبورهم، وتنظيم باحاتها، وتنظيف ساحاتها والمحافظة على آثارهم، وحفظ معالمها وبالتالي العناية بكل ما يتصل بهم بل حتى الاحتفاظ والاهتمام بما صلّوا فيه من ألبسة أو شربوا منه الماء من أوان أو استخدموه من اشياء كلّ ذلك انطلاقاً طبيعياً من الحب

١ـ تاريخ الخميس ١: ٣٢٣ للديار بكري.

٢ـ المواهب اللدنية ١: ٢٧.

الكامن في النفوس والود المتمكّن في القلوب.

وقد كانت هذه الممارسات الناشئة من المحبّة والمودّة لا تزال أمراً عالمياً يشترك فيه جميع الناس في جميع المجتمعات البشرية، حيث يهتم الأخلاف بقبور الأسلاف وآثارهم ويقومون بإصلاحها وتجديدها واحترامها وهو أمر سار عليه المسلمون الأُول، وجروا عليه في مجال احترام مراقد النبيّ الأكرم وعترته الطاهرة والسلف الصالح من أصحابه الطيبين.

الآثار الإسلامية ولزوم صيانتها:

إنّ هذه الآثار التاريخية هي في الحقيقة معالم الأصالة الإسلامية وهي إلى جانب ما تركه رسول الإسلام من تراث ثقافي عظيم، تدل على واقعية الرسالة المحمّدية المباركة وتجذّرها في التاريخ.

ومن هنا تسعى الأُمم المتحضرة المعتزة والمهتمة بماضيها وتاريخها بما فيه من شخصيات ومواقف وأفكار، إلى الإبقاء على كلِّ أثرٍ تاريخيٍ يبقى من ذلك الماضي لتدلّل به على واقعية ماضيها، وتُبقي على أمجادها وأشخاصها في القلوب والأذهان.

ولا شكّ أنّ لهدم الآثار والمعالم التاريخية الإسلامية وخاصّة في مهد الإسلام: مكّة، ومهجر النبي الأكرم ﷺ: المدينة المنورة، نتائج وآثار سيئة على الأجيال اللاحقة التي سوف لا تجد أثراً لوقائع التاريخ الإسلامي وربّما تنتهي بالمآل إلى الاعتقاد بأنّ الإسلام قضية مُفتعلة، وفكرة مُبتدعة ليس لها أيّ أساس واقعي، تماماً كما أصبحت قضية السيد المسيح ـ عليه السلام ـ في نظر

الغرب، الذي بـات جُلُ أهله يعتقدون بأنّ المسيح ليس إلاّ قضيـة أُسطورية حاكتها أيدي البـابوات والقساوسة، لعدم وجود اية آثـار ملموسة تدلّ على أصالة هذه القضية ووجودها التاريخي.

فـالـواجـب على المسلمين أن يكـوّنـوا لجنـة مـن العلماء مـن ذوي الاختصاص للمحـافظة على الآثار الإسـلامية وخاصّـة النبويّة منهـا، وآثار أهل بيته والعناية بها وصيانتها من الاندثار، أو عمليات الإزالة والمحو لما في هذه العناية والصيانة من تكريم لأمجاد الإسلام وحفظ لذكرياتها في القلوب والعقول وإثبات لأصـالة هذا الدين، إلى جانـب ما في أيدي المسلمين من تراث ثقافي وفكري عظيم.

وليس في هذا العمـل أي محذور شرعي فحسب، بل هو أمـر محبّذ كما عرفت، بل هو أمر وافق عليه المسلمون الأوائل.

فهذا هو السلف الصـالح قد وقفوا ـ بعد ما فتحـوا الشام ـ على قبور الأنبيـاء ذات البناء الشـامخ... فتركوهـا على حـالها من دون أن يخطر ببـال أحدهم وعلى رأسهم عمر بن الخطاب بأنّ البناء على القبور أمرٌ محرّمٌ فيجب أن يهدم، وهكذا الحال في سائر القبـور المشيَّد عليها الأبنية في أطـراف العالم وإن كنت في ريـب من هـذا فاقـرأ تـواريخهم وإليك نـص ما جـاء في دائرة المعارف الإسلامية:

إنَّ المسلمين عنـد فتحهـم فلسطين وجـدوا جماعـةً في قبيلـة «لخم» النصرانيـة يقـومون على حـرم إبـراهيـم بـ «حبرون» ولعلَّهـم استغلّـوا ذلك ففرضوا اتاوة على حجّاج هذا الحرم ... وربّما يكون توصيف تميم الداري أن

يكـون نسبــة إلى الـدار أي الحرم، وربّما كـان دخــول هـؤلاء اللخميين في الإسلام، لأنّه قـد مكَّنهم من القيام على حرم إبراهيم الذي قـدَّسه المسلمون تقديس اليهود والنصارى من قبلهم (١).

وجـاء في دائرة المعارف الإسـلامية في مـادة «الخليل» أيضاً: ويقـول المقدسي وهو أوّل من أسهب في وصف الخليل: أنّ قبر إبـراهيم كانت تعلوه قُبَّة بُنيت في العهد الإسلامي.

ويقول مُجير الـدين: أنّها شُيّدت في عهد الأُمويين وكـان قبر إسحاق مغطى بعضُه، وقبر يعقـوب قباله، وكـان المقدسي أوّل من ذكـر تلك الهبات الثمينة التي قدَّمها الأُمراء الورعون من أقاصي البلاد إلى هذا الضريح وذلك الاستقبال الكريم الذي يلقاه الحجاج من جانب التميميين (٢).

ولو قام بـاحث بوصف الأبنية الشـاهقة التي كانت مشيَّـدة على قبور الأنبياءوالصالحين قبـل ظهور الإسلام وما بناه المسلمـون في عصر الصحابة والتابعين لهم بـإحسان إلى يـومنا هـذا في مختلف البلدان، لجاء بكتـاب فخمٍ ضخمٍ، يكشف عن أنّ السيرة الرائجة في تلـك الأعصار قبل الإسلام وبعده من عصر الرسول والصحابة والتابعين لهم إلى يـومنا هذا، كانت هي العناية بحفظ آثـار رجال الـدين الكاشفـة عن مشروعيـة البناءعلى القبـور، وإنّه لم ينبس أيُّ شخص في رفض ذلك ببنت شفة ولم يعترض عليها أحد بل تلقّاها الجميع بالقبول والـرضا إظهاراً للمحبة وودّاً لأصحاب الـرسالات والنبوّات

١ـ دائرة المعارف الإسلامية ٥: ٤٨٤ مادة تميم الداري.

٢ـ المصدر نفسه: ٨: ٤٢٠، مادة خليل.

وأصحاب العلم والفضل، ومن خالف تلك السنَّة وعدّها شركاً أو أمراً محرّماً فقد اتَّبع غير سبيل المؤمنين قال سبحانه: ﴿وَمَنْ يُشاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعدِ ما تَبَيَّنَ لهُ الهُدى ويَتَّبِع غَيْرَ سَبيلِ المُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ ما تَوَلّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وساءَت مَصيراً﴾ (١).

وقد وارى المسلمون جسد النبي الأكرم في بيته المسقَّف ولم يزل المسلمون مذ ووري ذلك الجسد الطاهر، على العناية بحجرته الشريفة بشتى الأساليب وقد بنى عمر بن الخطاب حول حجرته داراً، وقد جاء تفصيل كلِّ ذلك مع ذكر وصف الأبنية التي توالت عليها عبر القرون في الكتب المتعلّقة بتاريخ المدينة لا سيَّما «وفاء الوفاء» للعلاّمة السمهودي (المتوفى عام ٩١١) (٢).

والبناءُ إلاّ القبر الذي شُيّد عام ١٢٧٠ قائم لم يمسُّه سوءٌ، وسوف يبقى بفضل الله تبارك وتعالى محفوظاً عن الاهتراء، مصوناً من الاندثار.

وأمّا المشاهد والقباب المبنية في البقيع في العصور الأُولى فحدّث عنها ولا حرج ولا سيما في بقيع الغرقد ومن أراد التفصيل فليرجع إلى كتب التاريخ وأخبار المدينة.

هذا هو المسعودي (المتوفى عام ٣٤٥) يقول: «وعلى قبورهم في هذا الموضع من البقيع رخامة مكتوب عليها بسم الله الرحمن الرحيم الحمد لله مُبيد الأُمم ومُحيي الرمم هذا قبر فاطمة بنت رسول الله ﷺ سيدة نساء

١ـ النساء: ١١٥.

٢ـ وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ج٢ الفصل التاسع ص ٤٥٨ إلى آخر الفصل.

العالمين وقبر الحسن بن علي بن أبي طالب وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب ومحمد بن علي وجعفر بن محمد»[١].

وذكر السبط الجوزي (المتوفى عام ٦٥٤) في «تذكرة الخواص» ص ٣١١ نظير ذلك.

وهذا هو محمّد بن أبي بكر التلمساني يصف المدينة الطيبة وبقيع الغرقد في القرن الرابع بقوله: وقبر الحسن بن علي عن يمينك إذا خرجت من الدرب ترتفع إليه قليلاً، عليه مكتوبٌ هذا قبر الحسن بن علي دُفن إلى جنب أُمّه فاطمة ـ رضي الله عنها وعنه ـ[٢].

ويقول الحافظ محمد بن محمد بن النجار (المتوفى عام ٦٤٣) في أخبار مدينة الرسول ﷺ : في قُبّة كبيرة عالية قديمة البناء في أوّل البقيع وعليها بابان يفتح أحدهما في كل يوم للزيارة رضي الله عنهم[٣].

ويقول ابن جبير الرحّالة الطائر الصيت (المتوفى عام ٦١٤) في «رحلته» في وصف بقيع الغرقد: يقع في مقابل قبر مالك قبر السلالة الطاهرة إبراهيم ابن النبي عليها قُبّة بيضاء وعلى اليمين منها تربة ابن عمر ابن الخطاب (رض) ... وبازائه قبر عقيل بن أبي طالب ـ رضي الله عنه ـ. وعبد الله بن جعفر الطيار (رض) وبإزائهم روضة فيها أزواج النبي ﷺ وبإزائها روضة صغيرة فيها ثلاثة من أولاد النبي ﷺ ويليها روضة العباس

---

١ ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر ٢: ٢٨٨.

٢ ـ مجلة العرب رقم ٥ ـ ٦، المؤرخ ١٣٩٣.

٣ ـ أخبار مدينة الرسول إهتم بنشره صالح محمد جمال طبع بمكة المكرمة ١٣٦٦.

ابن عبد المطلب والحسن بن علي (رض) وهي قبة مرتفعة في الهواء على مقربة من باب البقيع المذكور، وعن يمين الخارج منه، ورأس الحسن إلى رجلي العباس ــ رضي الله عنهما ــ وقبراهما مرتفعان عن الأرض متّسعان مغشّيان بالواح ملصقة، أبدع إلصاق، مرصّعة بصفائح الصفر، ومكوكبة بمسامير على أبدع صفة، وأجمل منظر وعلى هذا الشكل قبر إبراهيم بن النبي ﷺ ويلي هذه القبة العباسية بيت يُنسب لفاطمة بنت الرسول ﷺ ويُعرف ببيت الحزن ... وفي آخر البقيع قبر عثمان الشهيد المظلوم ذي النورين (رض) وعليه قبة صغيرة مختصرة وعلى مقربة منه مشهد فاطمة ابنة أسد أُم علي رضي الله عنها وعن بنيها [1].

وروى البلاذري أنَّه لمّا ماتت زينب بنت جحش سنة عشرين صلّى عليها «عمر» وكان دفنها في يومٍ صائفٍ، ضرب «عمر» على قبرها فسطاطاً [2].

ولم يكن الهدف من ضربه ذلك الفسطاط تسهيل الأمر لمن يتعاطى دفنها، بل لأجل تسهيله لأهلها حتى يتفيّأوا بظلّه، ويقرأوا ما يتيسر من القرآن والدعاء، فلاحظ.

ويقول السمهودي في وصف بقيع الغرقد: قد ابتنى عليها مشاهد منها المشهد المنسوب لعقيل بن أبي طالب وأُمهات المؤمنين، تحوي العباس والحسن بن علي ... وعليهم قبةٌ شامخةٌ في الهواء قال ابن النجار ... وهي كبيرةٌ عاليةٌ قديمة البناء وعليها بابان، يفتح أحدهما في كل يوم.

١ـ رحلة ابن جبير طبع بيروت دار صادر ، وقد زار ابن جبيرالمدينة المنورة عام ٥٧٨.

٢ـ أنساب الأشراف ١: ٤٣٦.

وقال المطري: بناها الخليفة الناصر أحمد بن المستضيئ ... وقبر العباس وقبر الحسن مرتفعان عن الأرض متَّسعان مُغشّيان بألواح ملصقة أبدع إلصاق، مصفَّحة بصفائح الصفر مكوكبة بمسامير على أبدع صفة وأجمل منظر ...»(١).

إلى غير ذلك من المؤرّخين والسيّاحين الذين زاروا المدينة المنوَّرة، ووَصفُوا تلكم المزارات والمشاهد والعتبات المرتفعة، ونظر الكلُّ إليه بعين الرضا والمحبة، لا بعين السُخط والغضب.

ولكنها صارت اليوم أطلالاً مندرسة تلعب بها الرياح والعواصف وكأن شيئاً لم يكن، وكأنّها لا تتصل بالتاريخ الإسلامي المجيد، والتراث الإسلامي العظيم، ولا علاقة لها بالإسلام والمسلمين !!

وفي الختام نذكر ما أنشده العلاّمة السيد محسن الأمين في كتابه العقود الدرية يقول:

مَضَت القرونُ وذي القباب مَشِيدةٌ ... والناسُ بَين مُؤسّسٍ ومُجَدّدِ
في كل عصرٍ فيه أهلُ الحَلّ والـ ... ـعَقْدِ الَّذِينَ بِقَبْرِهم لم يعقدِ
لم ينكِرُوا أَبداً على من شادَها ... شِيدَتْ ولا مِن مُنكر ومُفَنّدِ
مِنْ قَبْلِ أن تَلِد ابنَها تَيْمِيّةٌ ... أو يَخْلُقَ الوَهّابُ بعض الأعبُدِ
أفأَي إجماعٍ لَكُمْ أقوى عَلىٰ ... أَمثالِهِ مِن موردٍ لم يُورَدِ

١ـ وفاء الوفا ٣: ٩١٦ـ ٩٢٩.

فَبِسيرةٍ للمسلِمِين تَتَـــابَعَــتْ   في كـلّ عصر نستــدلُ ونَقْتَــدي
أَقـوىٰ مـن الإجماعِ سِيْــرَتُهُمْ ومَـن   قـد حـادَ عَنْها فَهُـوَ غيرُ مُسَـدَّدِ (١)

إجابة عن سؤال:

وهناك سؤال ربّما يتردد في الأذهان وهو أنَّ ما ذكرَ من لزوم حبّ النبيّ وعترته وأصحابه أمر لا شكّ فيه وأنّ تجديد القبور واعمارها من مظاهر ذلك الـودّ، ولكن هـذه القـاعـدة إنّما تتّبـع إذا لم يـدل دليل خـاص على تحريـم البناء، فهو بالنسبة إلى القاعـدة كالخاص للعام فالمتَّبع في المقام هو الخاص دون العـام وقـد وردت روايـات خاصـة تـأمر بهدم القبـور المبنيـة، فما هـو الجواب؟

الجواب:

إنّ هذا السؤال سؤال وجيه لابدّ من الإجـابة عليه ومعالجته ولهذا فإنّنا نطرحه على طاولة البحث هنا وندرس هذه الروايات سنداً ومتناً ودلالة حتّى تتّضح الحقيقة ويتبين الحقّ، فنقول:

لقـد استدل القـائلون بتحـريم البنـاء على القبور والمراقـد بأحـاديث وروايات نأتي بها الواحد تلو الآخر:

١ـ العقود الدرية : ١٠.

(الأوّل) حديث أبي الهياج

روى مسلم في صحيحه عن وكيع، عن سفيان عن حبيب بن أبي ثابت، عن أبي وائل، عن أبي الهياج الأسدي، قال: قال لي عليٌ بن أبي طالب: «ألا أبعثك على ما بَعَثني عليه رسول الله ﷺ أن لا تَدَع تمثالاً إلاّ طمسته ولا قبراً مُشرفاً إلاّ سوَّيته»(١).

ولقد تمسّك المستدل بالجملة الأخيرة وادّعى أنّ معناه: ولا قبراً عالياً إلاّ سوّيته بالأرض.

والاستدلال بهذا الحديث باطل، لأنّه ضعيف السند، قاصر الدلالة.

الحديث في دراسة سنديّة:

وأمّا السند فيكفي في ضعفه أنّ علماء الرجال ضعّفوا الرواة الأربعة الواقعين في السند وهم:

١ـ وكيع.

٢ـ سفيان الثوري.

٣ـ حبيب بن أبي ثابت.

٤ـ أبو وائل الأسدي(٢).

١ـ صحيح مسلم ج٣، كتاب الجنائز: ٦٠ والسنن للترمذي ج٢: ٢٥٦ باب ما جاء في تسوية القبور.

٢ـ لاحظ تهذيب التهذيب للعسقلاني، الأجزاء ٣، ٤، ١١: ١٧٩، ١١٥، ١٣٠، ١٢٥.

كما ويكفي في ضعف الحديث أيضاً أنّه رواه أبو الهياج وليس له في الصحاح والمسانيد حديث غير هذا.

فكيف يستدلّ بسندٍ يشتمل على المضعَّفين الّذين لا يُحتجُّ بحديثهم كما ذكره ابن حجر في ترجمة هؤلاء الأربعة.

وحتى يكون القارئ على بصيرة من الأمر ننقل نص أقوال العلماء في حقهم، واحداً واحدا:

١ـ وكيع:

هو وكيع بن الجراح بن مليح، الرواسي، الكوفي، روى عن عدَّةٍ منهم سفيان الثوري، وروى عنه جماعةٌ منهم يحيى بن يحيى. وهو مع ما مدحوه نقلوا فيه أيضاً قدحاً كثيراً.

قال فيه ابن حجر في تهذيب التهذيب: قال عبد الله بن أحمد عن أبيه (أحمد بن حنبل) قال سمعت أبي يقول: كان وكيع أحفظ من عبد الرحمان ابن مهدي كثيراً كثيراً، وقال في موضع آخر: ابن مهدي أكثر تصحيفاً من وكيع، ووكيع أكثر خطأ منه.

وقال في موضع آخر: أخطأ وكيع في خمسمائة حديث.

وقال ابن عمار قلتُ لوكيع: عدّوا عليك بالبصرة أربعة أحاديث غَلطت فيها؟ فقال: حدّثتهم بعبّادان بنحوٍ من ألفٍ وخمسمائة ، وأربعةٌ ليس بكثير في ألف وخمسمائة.

وقال علي بن المديني: كان وكيع يلحن ولو حدّث بألفاظه لكان عجباً.

وقال محمد بن نصر المروزي: كان يحدّث بآخره من حفظه فيغيّر ألفاظ الحديث، كأنّه كان يحدّث بالمعنى، ولم يكن من أهل اللسان [١].

وقال الذهبي في ميزان الاعتدال بعدما مدحه:

قال ابن المديني: كان وكيع يلحن، ولو حدّث بألفاظه كان عجباً [٢].

إذن فوكيع وصف بالخطأ والتصحيف، واللحن والنقل بالمعنى في رواية الأحاديث، وهي أوصاف تقلّل من شأنه وشأن مرويّاته، واسوأ من ذلك استهانته بالخطأ كما لاحظت في عبارة ابن عماد، وكل هذا يجعل الرجل في دائرة الضعف، ويسقطه عن الوثاقة.

٢ـ سفيان الثوري:

وهو سفيان بن سعيد بن مسروق، الثوري، الكوفي أكثروا المدح في حقّه، وقال الذهبي عنه: مع أنّه كان يدلّس عن الضعفاء، ولكن كان له نقد وذوق، ولا عبرة لقول من قال: يدلّس ويكتب عن الكذابين [٣].

١ـ تهذيب التهذيب: لابن حجر ج١١: ١٢٣ـ١٣١.

٢ـ ميزان الاعتدال: للذهبي ٤: ٣٣٦.

٣ـ المصدر نفسه ٢: ١٦٩ برقم ٣٣٢٢.

وقال ابن حجر: قال ابن المبارك حدّث سفيان بحديث فجئته وهو يدلّس فلما رآني استحيى، وقال: نرويه عنك [١].

وقال ابن حجر في ترجمة يحيى بن سعيد بن فروخ قال أبو بكر: وسمعت يحيى يقول: جهد الثوري أن يدلّس عليّ رجلاً ضعيفاً فما أمكنه [٢].

والتدليس هو أن يروي عن رجل لم يلقه، وبينه وبين ذلك الرجل واسطة فلا يذكر الواسطة.

وقال أيضاً في ترجمة سفيان: قال ابن المديني عن يحيى بن سعيد لم يلق سفيان أبا بكر بن حفص ولا حيان بن إياس ولم يسمع من سعيد بن أبي بردة.

وقال البغوي: لم يسمع من يزيد الرقاشي.

وقال أحمد: لم يسمع من سلمة بن كهيل حديث: السائبة يضع ماله حيث يشاء، ولم يسمع من خالد بن سلمة المعروف بالفافا ولا من ابن عون إلاّ حديثاً واحداً [٣].

وهذا تصريح من ابن حجر بكون الرجل مدلّساً وعندئذ يكون فاقداً لملكة العدالة، لأنّه كان يصوّر غير الواقع واقعاً.

وقال الإمام الذهبي: قال صاحب الحلية أخبرنا أبو أحمد الغطريفي

١ـ تهذيب التهذيب ٤: ١١٥ في ترجمة سفيان.

٢ـ المصدر نفسه ١١: ٢١٨.

٣ـ المصدر نفسه ٤: ١١٥.

أخبرنا محمد بن أحمد بن مكرم أخبرنا علي بن عبد الحميد أخبرنا موسى بن مسعود أخبرنا سفيان، قال: دخلت على جعفر بن محمد وعليه جبة خز وكساء خز دخاني فقلت: يا ابن رسول الله ﷺ ليس هذا من لباس آبائك.

قال: «كانوا على قدر إقتار الزمان، وهذا زمان قد أسبل عزاليه» ثمّ حسر عن جبة صوف تحت، وقال: «يا ثوري: لبسنا هذا لله وهذا لكم فما كان لله أخفيناه وما كان لكم أبديناه» (١).

إنَّ هذا الاعتراض يدل على عدم فهم سفيان للأُمور، وعدم معرفته بها.

❀ ❀ ❀

٣ـ حبيب:

هو حبيب بن أبي ثابت قيس بن دينار، تابعي، وثّقه بعض، ولكن قال ابن حبان في الثقات: كان مدلّساً، وقال العقيلي غمزه ابن عون، وقال القطان: له غير حديث عن عطاء لا يتابع عليه، وليست محفوظة.

وقال ابن خزيمة في صحيحه: كان مدلّساً.

وقال العقيلي: وله عن عطاء أحاديث لا يتابع عليها (٢).

وقال ابن حجر أيضاً في تقريب التهذيب:

حبيب بن أبي ثابت: قيس، ويقال: هند بن دينار الأسدي، مولاهم:

١ـ تذكرة الحفّاظ ١: ١٦٧ والمقصود بجعفر بن محمد الإمام الصادق ـ عليه السلام ـ.

٢ـ تهذيب التهذيب ٢: ١٧٩.

أبو يحيى الكوفي، ثقة فقيه جليل، وكان كثير الإرسال والتدليس، من الثالثة، مات سنة تسع عشرة ومائة (١).

ونقل ابن حجر عن كتاب الموضوعات لابن الجوزي من نسخةٍ بخط المنذري أنّه نقل فيه حديثاً عن أبي كعب في قول جبرئيل: لو جلست معَكَ مثل ما جَلَس نوح في قومه ما بلّغت فضائل عمر، وقال: ولم يعلّه ابن الجوزي إلاّ بعبد الله بن عامر الأسلمي شيخ حبيب بن أبي ثابت (٢).

❁ ❁ ❁

٤ـ أبو وائل الأسدي:

وهو شقيق بن سلمة الكوفي. كان منحرفاً عن عليّ بن أبي طالب، قال ابن حجر: قيل لأبي وائل: أيّهما أحبُّ إليك علي أم عثمان؟ قال: كان علي أحبَّ إليّ ثمّ صار عثمان (٣).

ولفظة «أحبَّ» هناك ليست صيغة أفعل التفضيل بل المراد أنّه كنت علوياً ثمّ صرت عثمانياً، وكان الحزبان يومذاك يبغض أحدهما الآخر.

ويشهد لذلك ما ذكره ابن أبي الحديد حيث قال: ومنهم أبو وائل شقيق بن سلمة، كان عثمانياً يقع في عليّ ـ عليه السلام ـ ويقال إنّه كان يرى رأي

١ـ تقريب التهذيب ١: ١٤٨ تحت رقم ١٠٦.
٢ـ لسان الميزان ٢: ١٨٦ في ترجمة/حبيب بن ثابت.
٣ـ تهذيب التهذيب ٤: ٣٦٢.

الخوارج ولم يختلف في أنّه خرج معهم، وأنّه عاد إلى عليّ -عليه السلام- منيباً مقلعاً، روى خلف بن خليفة، قال: قال أبو وائل: خرجنا أربعة آلاف فخرج إلينا عليٌ فما زال يكلّمنا حتّى رجع منّا ألفان.

وروى صاحب كتاب «الغارات» عن عثمان بن أبي شيبة عن الفضل ابن دكين، عن سفيان الثوري، قال: سمعت أبا وائل يقول: شهدتُ صفين وبئس الصفوف كانت.

قال وقد روى أبو بكر بن عياش عن عاصم ابن أبي النجود قال: كان أبو وائل عثمانياً [١].

ويكفي أنّه كان من ولاة عبيد الله بن زياد لعنه الله.

قال ابن أبي الحديد: وقال أبو وائل: استعملني ابن زياد على بيت المال بالكوفة [٢].

هذا كلّه حول سند الرواية. وقد عرفت أنّ سندها يشتمل على رواةٍ ضعافٍ، وعلى فرض ورود المدح في حقّهم فهو معارَض بما عرفت من الجرح، وعند التعارض يقدَّم الجارحُ على المادح فيسقط الحديثُ عن الاعتبار ويُرجَع إلى أدلّة أُخرى، وسيوافيك أنَّ الأصل في المقام هو الجواز، كما سيوافيك ذلك في آخر هذا البحث.

❀ ❀ ❀

١ـ شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ٤: ٩٩.

٢ـ المصدر نفسه ١٢: ٢٢٣.

الحديث في دراسة دلاليّة:

وأمّا ضعفه دلالةً فإليك بيانه:

إنَّ تبين ضعف دلالة الحديث يتوقف على توضيح معنى اللفظين الواردين في الحديث المذكور:

١ـ قبراً مشرفاً.

٢ـ إلاّ سوّيته.

وأمّا الأوّل فقد قال صاحب القاموس: والشرف ـ محرّكةً ـ: العُلوّ. ومن البعير سنامُه.

وعلى ذلك فيحتمل أن يراد منه مطلق العُلوّ أو العلوّ الخاصّ كسنام البعير ولا يتعيّن أحد المعنيين إلاّ بالقرينة، كما هو الحال في المشترك اللفظي.

وأمّا الثاني: أعني: قوله «سوّيته» فهو يستعمل على وجهين:

أ ـ يُطلق ويرادُ منه مساواةُ شيء بشيءٍ فيتعدّى إلى المفعول الثاني بحرف التعدية كالباء، قال سبحانه: ﴿**إذْ نُسَوّيكُمْ بِربّ العالَمِين**﴾ [1].

أي نعدّ الآلهة المكذوبة متساوين مع ربّ العالمين، فنضيفُ إليها ما نُضيفُ إلى ربّ العالمين.

وقال سبحانه حاكياً عن حالِ الكافرين يوم القيامة: ﴿**يَومَئِذٍ يَوَدُّ**

١ـ الشعراء: ٩٨.

الَّـذِينَ كَفَـرُوا وعَصَـوا الـرَّسُـولَ لَو تُسَـوّى بِــهِمُ الأرض وَلا يَكْتُمـونَ اللهَ حَديثاً﴾ (١) أي يَودّون أن يكونوا تراباً أو ميتاً مدفوناً تحت الأرض.

ب ـ يُطلَـق ويُراد منـه ما هـو وصفٌ لنفس الشيء لا بمـلاحظة شيء آخر فيكتفى بمفعـول واحد قال سبحـانه: **﴿الَّذي خَلَقَ فَسوّى﴾** (٢) وقال سبحانه: **﴿بَلى قادريـنَ عَلَـىٰ أَنْ نُسَوي بَنـانَهُ﴾** (٣)، وقال سبحـانه: **﴿فإذا سَوَّيتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعوا لَهُ ساجِدين﴾** (٤).

ففي هذه الموارد تقع التسوية وصفـاً لنفس الشيء بلا إضافة إلى غيره، ويراد منه حسب اختلاف الموارد تارة كمال الخلقة واستقامته في مقابل نقصه واعوجـاجه، وهذا هو المقصـود في الآيات الكريمـة، وأُخرى تعديلـه مقابل اعوجاجه وبسطه مقابل كونه كالسنام.

إذا عرفت ذلك فلنعد إلى الحديث ولندرسه في ضوء هذه الضابطة.

إنّ الذي نلاحظه في هذا الحديث هـو أنّه استعمل لفظ «التسوية» مع مفعول واحد، فلا يُراد منه المعنى الأوّل أي مُساواته بالأرض، وإلاّ كان عليه أن يقول: «سـوَّيته بالأرض» بل يُـراد منه ما هـو وصف لنفس القبر، والمعنى المنـاسب حينئـذ هـو تسطيح القبر في مقـابل تسنيمـه، وبسطـه في مقـابل اعوجـاجه وهذا هو الـذي فهمه شُـرّاح الحديث، وبما أنَّ السنَّة كـانت هي

١ـ النساء: ٤٢.

٢ـ الأعلى : ٢.

٣ـ القيامة : ٤.

٤ـ الحجر: ٢٩.

التسطيح، والتسنيم طرأ بعـد ذلك، لهذا أمر عليّ ـ عليه السلام ـ بأن تكافح هذه البدعة ويسطَّح كل قبرٍ مسنَّم.

روى أبو داود والحاكم مـن طريق القاسـم بن محمّد بن أبي بكـر قال: دخلت على عـائشـة وقلت لها: يـا أُم اكشفي لي عن قبر النبـي وصاحبيـه، فكشفت لي عن ثلاثة قبـور لا مشرفة ولا لاطية [١]، مفتوحة ببطحاء العرصة الحمراء.

أمّا ما في صحيح البخـاري عن سفيان التمار أنَّه رأى قبر النبيّ مُسنّماً، فلا يعارض ما قدّمناه لأنّ سفيان ولـد في زمان معاوية فلم ير القبر الشريف إلاّ في آخر الأمر فيحتمل ــ كما قال البيهقي ـ أنّ القبر لم يكن في الأوّل مُسنّماً ثم سُنّم عندما سقط الجدار.

وروى يحيى عن عبد الله بن الحسين قال: رأيت قبر النبي مُسنّماً في زمن الوليد بن هشام [٢].

وإنّما صار التسنيم بدعة والتسطيح سنّة لأنّ النبيّ لما دفن ابنه إبراهيم سطَّح قبره ولم يُسنّمه [٣].

وممّا يـؤيّد أنّ المراد مـن الإشراف هو العلـوُّ الخاصُّ أي كونـه كسنام البعير، ومن التسـوية بسطه وتسطيحـه، أنَّ صاحب الصحيح عنونَ الباب هكـذا: «باب تسـويـة القبور» ثـمّ نقل روايـة عن ثمامـة أنّه قـال: كنّـا مع

١ـ والمراد باللاطية انّها مُسَوّاة بالأرض.

٢ـ وفاء الوفا ٢: ٥٥١ـ٥٥٦.

٣ـ إرشاد الساري ٢: ٤٦٨.

فضالة بن عبيد في أرض الروم فتوفّـي صاحب لنا فأمر فضالة بن عبيد بقبره فسوّي، قال: سمعت رسول الله ﷺ يأمر بتسويته ثمّ أورد بعده حديث أبي الهياج المتقدم[١].

وقال القرطبي في تفسير الحديث قال علماؤنا: ظاهر حديث أبي الهياج منع تسنيم القبور، ورفعها، وأن تكون واطئة ....

نعم ما ذكـره من استفادة عدم كـون القبر مرتفعاً فهـو مردودٌ بما اتّفق عليه كلمةُ الفقهاء للمذاهـب الأربعة فإنَّهم أجمعوا على استحباب رفع القبر بقدرِ شبرٍ[٢].

وأظن أنَّ مـا ذُكر كافٍ في تفسير الحديث، ومـن أراد التفصيل فليرجع إلى إرشاد الساري لابن حجر القسطلاني الجزء الثاني ص ٤٦٨.

❁ ❁ ❁

(الثاني) حديث جابر:

وربّما يستدلُّ على تحريم البناء على القبور بحديث جابر، روى مسلم في صحيحه عن أبي بكـر بن أبي شيبة، عن حفص بن غياث، عـن ابن جريج، عن أبي الزبير، عن جابر قال: نهى رسول الله ﷺ أن يجصّص القبرُ، وأن يقعد

١ـ شرح صحيح مسلم ٧: ٣٦.

٢ـ الفقه على المذاهب الأربعة ١: ٤٢٠.

عليه، وأن يُبنى عليه [١].

والجواب هو: أنَّ الاستدلال بهذا الحديث غير صحيح سنداً ومتناً.

وأمّا الأوّل فلأنّ جميع أسانيده مشتملة على رجلين هما في غاية الضعف والرجلان هما:

١ـ ابن جريج وهو عبد الملك بن عبد العزيز.

٢ـ أبو الزبير وهو محمد بن مسلم الأسدي [٢].

فلا نطيل الكلام بنقل أقوال الرجال في حقّهما.

على أنّ بعض أسانيد هذه الرواية مشتملة على عبد الرحمان بن أسود المتَّهم بالكذب والوضع [٣].

وأمّا المتن فقد روي بصورٍ سبعٍ اشتمل بعضها على لفظ البناء دون البعض و إليك صور الحديث المختلفة التي تعرب عن أنّ الراوي أو الرواة لعبوا بحديث الرسول ﷺ بعد فرض صدوره عنه:

١ـ نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، والاعتماد عليه.

٢ـ نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر.

١ـ صحيح مسلم كتاب الجنائز ٣: ٦٢ والسنن للترمذي ٢: ٢٠٨ وصحيح ابن ماجة ١: كتاب الجنائز: ٤٧٦ إلى غير ذلك.

٢ـ لاحظ تهذيب التهذيب ٦: ٢ ـ ٤، ٦٠٥.

٣ـ تهذيب التهذيب ترجمة أبو الزبير: ٤٤٢.

٣ـ نهى رسول الله ﷺ عن تجصيص القبر، والكتـابة عليه، والبنـاء ، والمشي عليه.

٤ـ نهى رسول الله ﷺ عن الكتابة على القبر.

٥ـ نهى رسول الله ﷺ عن الجلوس على القـبر وتجصيصـه، والبنـاء، والكتابة عليه.

٦ـ نهى رسول الله ﷺ عن الجلوس على القبر وتجصيصه، والبناء عليه.

٧ـ نهى رسول الله ﷺ عن الجلوس على القبر، وتجصيصه، والبناء عليه، والزيارة، والكتابة عليه [1].

أفيصح الاستدلال بحديث ذلك سنده وهـذه نصوصه المضطربة رغم كـونها من راوٍ واحـد؟ أضف إلى ذلك أنّ النهـي في كلام النبـي استعمل في الكراهة كثيراً، وقد أعرض جماهير المسلمين عن بعض صور هذا الحديث ولم يعملوا به قط، كما أفاده الحاكم في مستدركـه حيث شاعت الكتابة على القبر من عصر الصحابة إلى يومنا هذا.

ولو سلّمنا بالكراهة فربّما ترتفع هذه الكراهة إذا كان للبناء منافع كثيرة ومختلفة منهـا تلاوة القـرآن في ظلّه، ومنهـا إذا ترتّب على حفظ القبـور حفظ الآثار الإسلامية كما أوضحناه سابقاً.

١ـ لاحـظ للوقـوف على المتون المختلفـة للحديث مصـادرها التي أشرنـا إليها بـالاضافـة إلى صحيح النسائي ٤ : ٨٧ وسنن أبي داود ٣: ٢١٦ ومسند أحمد ٣: ٢٩٥ و ٣٣٥.

(الثالث) حديث أبي سعيد وأُمّ سلمة

وربّما يُستدلّ على تحريم البناء على القبور بأحاديث أُخر:

١ـ ما رواه أبو سعيد من أنّ النبيّ نهى أن يُبنى على القبر [١].

٢ـ ما رُوي عن أُمّ سلمة قالت: نهى رسول الله ﷺ أن يبنى على القبر أو يجصَّص [٢].

٣ـ ما روي عنها أيضاً أنّها قالت: نهى أن يجصَّص قبر أو يُبنى عليه، أو يجلس عليه [٣].

والجواب: أنَّ الاستدلال بهذه الروايات ساقط جداً فإنّ سند الحديث الأوّل يشتمل على «وهب» وهو مُردّد بين سبعة عشر رجلاً وفيهم الوضّاعون والكذّابون [٤].

والحديث الثاني والثالث لا يُحتجُّ بهما لاشتمالهما على عبد الله بن لهيعة الذي هو ضعيف لا يُحتج به [٥].

❁ ❁ ❁

١ـ صحيح ابن ماجة ١: ٤٧٤.

٢و ٣ـ مسند أحمد ٦: ٢٢٩.

٤ـ ميزان الاعتدال ٣: ٣٥٠ـ ٣٥٥.

٥ـ المصدر نفسه ٢: ٤٧٦ والتهذيب ١: ٤٤٤.

هذه هي الأحاديث التي استخدمت ذريعة لتدمير الآثار الإسلامية ولما وقف القوم على ضعفها جاء القاضي ابن بُليهد وقد أعوزته الحجّة فتمسّك بكون البقيع مُسبَّلَةً موقُوفةً، وأنَّ البناء على القبور مانعٌ من الانتفاع بأرضها[1].

سبحان الله ما أتقنها من برهنة، فمن أين علم أنَّ البقيع كانت أرضاً حيّةً فوقَفَها صاحبُها على دفن الأموات؟

عرض المسألة على الأدلة المحكمة:

إذا وقفت على ضعف ما استدل به القوم على تحريم البناء على القبور، وسقوطه عن الاعتبار فيجب عرض المسألة على الأدلة المحكمة التي لا يصح لأحد النقاش في اعتبارها وحجيتها.

فإذا دلَّت تلك الأدلة على الجواز، فلا محيص من رفض هذه الأحاديث الضعاف، أو حملها على الكراهة، أو غير ذلك. وإليك بيان تلك الأدلة:

١ـ القرآن الكريم والبناء على القبور:

يظهر من القرآن الكريم أنَّ البناء على القبور، بل بناء المسجد عليها كان جائزاً في الشرائع السابقة، وأنّ الناس عندما وقفوا على قبور أصحاب الكهف، اختلفوا على قولين: فمن قائل:

١ـ في سؤال وجهه إلى علماء المدينة المنورة استفتى فيها حول بقاء البناء على القبور، حيث ذكر في متنه كون أرض البقيع مسبلة.

﴿أَبْنُوا عَلَيهِمْ بُنْياناً﴾ .

ومن قائل آخر:

﴿لَنَتّخِذَنّ عَليهِم مَسجِداً﴾ [١].

والاستدلال بالآية واضح لمن يرى القرآن قدوة ويتخذه مرجعاً.

فإنّ القرآن ينقل كلا القولين، من دون أن ينتقده أو يعترض عليه ويردع عنه، بل الظاهر أنّه ينقله بصورة التحسين وأنّ أصحاب الكهف بلغ بهم تديّنهم إلى حدّ لما عثر عليهم الناس اجتمعوا على تكريمهم واحترامهم، بل التبرّك بهم، فمن قائل بلزوم البناء عليهم، وآخر بإتخاذ مرقدهم مسجداً، وليس القرآن كتاب قصة، وأُسطورة، وإنّما هو كتاب إرشاد وقدوة وإمام، فلو كانوا في عملهم هذا ضالّين لعلّق عليهم بشيء أو عابه، كما هو الحال فيما ينقل عن المشركين، والكافرين، عملاً أو رأياً.

قال سبحانه حاكياً عن كيفية غرق فرعون: ﴿حَتّى إذا أَدْرَكَهُ الغَرَقُ قالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إلاّ الذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إسْرائِيلَ وأَنا مِنَ المسلِمِين﴾ ولأجل إيقاف المؤمنين على أنَّ الإيمان في هذا الظرف غير مُفيد عقّب عليه بقوله: ﴿الآن وقَد عَصَيتَ قَبْلُ وَكُنْتَ مِنَ المُفْسِدِينَ﴾ [٢].

فلأجل ذلك يكون القرآن قدوة في كلّ ما ينقله من أعمال الماضين، إلاّ إذا عقّب عليه بالردّ، أو دلّت القرائن على كونه عملاً غير مقبول.

١ـ الكهف: ٢١.

٢ـ يونس: ٩١.

وعلى ذلك فيكون كلٌ من الاقتراحين مقبولاً من غير نكير. وسيوافيك البحث عن اتّخاذ المشاهد مساجد.

٢ـ سيرة المسلمين والبناء على القبور:

إنَّ سيرة المسلمين من عصر الصحابة ثمّ التـابعين ثمّ تابعي التابعين، وإلى عصرنا هذا أقوى حجة على الحكم الشرعي، فإنّ إتفاق العلماء في عصر واجتماعهم على حكم حجّـة شرعية عليه، فكيف اتّفـاقهم عليه طيلـة قرونٍ ولا سيّما الصحابة العدول.

فالصحابة وارَوا جسد النبي الأكرم ﷺ في بيته ولم يخطر ببـال أحد أنّ البناء على القبور محرّم، ولا أظن أنّ جاهلاً يُفرّق بين البناء المتقدّم على الدفن، والمتأخّـر عنـه فضـلاً عن العـالِم، فإنَّ كـون قبر الميّت تحت بنـاءٍ تكـريمٌ لـه وتعظيم، بينما يعتبر الوهـابيون هذا شركـاً لأنَّه تعظيم لغير الله، فـلا فرق بين البناء على المقبور أو دفـن الميت تحت بناء طالما يكون كلا الأمـرين ذا نتيجة وهدف واحد.

وليس هذا شيء ينكره أحد من المسلمين.

والعجيب أنّ كتّاباً من الوهابيين لما واجهوا هذه السيرة المستمرة عمدوا إلى تفسير هذه السيرة بأن كتب مؤلف من مؤلّفيهم قائلاً بأنّ النبيّ إنّما دُفن في بيته، لأجل حديثٍ رواه أبو بكـر. قال ابن كثير: إنَّ أصحاب النبيّ ﷺ لم يدروا أين يقبرون رسول الله ﷺ حتّى قال أبو بكر سمعت النبيّ ﷺ يقول:

«لم يُقبر نبيٌّ إلاّ حيث يموت»[١].

ثمّ أضاف المؤلّف قائلاً فعَلِمنا من هذه الأحاديث أنَّ النبي ﷺ دُفن في بيته كما أمر بذلك، فعلى هذا فلا حجة فيه للقبوريين في البناء على القبور، إذ لم يُبن على قبره، و إنّما دُفن في بيته[٢].

وهكذا فرّق بين الدفن تحت بناءٍ قائم، والبناء على القبر في عبارته الأخيرة.

ولا يخفى وجود التهافت في عبارته فصدرها يدلُّ على أنّ دفن النبيّ في بيته كان بأمره ﷺ ولو لم يكن أمره لما دفنوه فيه، لأنّ الدفن في البناء حرام أساساً ـ حسب زعم الوهابيين ـ وذيل العبارة يدل على التفريق في الحكم بين الدفن تحت البناء القائم والبناء على القبر فيما بعد.

وعلى كلّ حال ففي كلا قوليه إشكال.

أمّا الوجه الأوّل والذي استقصى مصادر حديثه قرابة ست صفحات، فهو مردودٌ بدفن الشيخين في البيت، مع أنّه لم يرد في حقّهما ما ورد في حقّ النبي، فكيف جاز دفنهما في الحجرة تحت السقف إن لم يكن مثل ذلك جائزاً بالأصالة والذات؟

وأمّا الثاني فهو تفريق لا يجنح إليه ذو مسكة، بعد وحدة الملاك، والاشتراك في المصلحة المزعومة، من أنّ وجود القبر تحت البناء تعظيم لغير

١ـ البداية والنهاية ٥: ٢٦٦ وقد جاءت مصادر هذه الرواية في كتاب رياض الجنّة: ٢٦٤.

٢ـ رياض الجنّة: ٢٦٩.

الله وعبادة لـه، أو أنّه قد يؤدي إلى عبـادة القبر فالمصلحة تقتضي عـدم كون القبر تحت بناءٍ.

والحق أنّه بعد دلالة الـذكر الحكيم والسيرة على الجواز، لا مناص من رفض هـذه الروايات أو تـأويلها على الأقل وحملهـا على الكراهـة المنتفية في بعض الحالات.

٥

التوحيد والشرك في العبادة

- ❑ مراحل التوحيد الثمانية.
- ❑ ماهي حقيقة العبادة.
- ❑ هل العبادة بمعنى الخضوع المجرّد.
- ❑ هل التشابه ملاك العبادة.
- ❑ ملاكات العبادة في ضوء القرآن
- ❑ ما يترتب على هذا الأصل.

لا شكّ في أنّ الأنبياء عامّة بُعثوا لنشر التوحيد في العبادة ودعمه، ورفض الشرك وإزالته، ولا يمكن أن يكون الإنسان من الموحدين إلاّ إذا كان شعاره وعمله مطابقاً لقوله سبحانه: ﴿إيّاكَ نَعْبُدُ﴾.

وفي هذا الصدد قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنا في كُلِّ أُمّةٍ رَسُولاً أَن اعْبُدُوا اللهَ وَاجتَنِبُوا الطّاغُوتَ ...﴾ (١).

وقال أيضاً: ﴿وَاسأَلْ مَن أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُسُلِنا أَجعَلْنا مِن دُونِ

١ـ النحل: ٣٦.

الرَّحمانِ ءَالهةً يُعْبَدُونَ﴾ (١).

إلى غير ذلك من الآيات التي تثبت أنّ الغاية من بعث الأنبياء وإرسالهم هو إحكام هذا الأصل في القلوب والعقول، ولا أظنّ أنّ أحداً من المسلمين والموحدين يُنكر ذلك أو يشكّ فيه.

إنّما الكلام هو في المصاديق الجزئية والموارد الخاصّة التي عدّها الوهابيّون عبادةً، دون سائر المسلمين، فربَّ أمر تعدّه جميع الفرق تكريماً واحتراماً، ويعدّه الوهابيون عبادة وشركاً، فتجد هؤلاء يعدّون التوسّل بالأنبياء والصالحين شركاً، ودعائهم والاستغاثة بهم شركاً، بل التبرّك بالضرائح والمشاهد شركاً، والصلاة عند قبور الصالحين شركاً، ولا يعنون بذلك إلاّ الشرك في العبادة أو الشرك في الألوهية حسب تعبيرهم.

ولكن الآخرين يعدّون كلّ ذلك أُموراً مباحة بل مُستحبة مأموراً بها من دون أن يكون فيها شائبة عبادة، وعند ذلك لا ينتهي البحث والنقاش إلاّ إذا حددنا معنى العبادة تحديداً منطقياً حتّى يتميّز في ضوئه العمل العبادي عن غيره، وهذا هو البحث المهم، بل هو المفتاح الوحيد لحلّ النزاع بين هذه الطائفة والطوائف الأُخرى، في أكثر المسائل.

وفي غير هذه الصورة يكون البحث بحثاً غير مُفيد بل داخلاً في الجدل والمراء، والنقاش العقيم.

إنّ هذه الطائفة إنّما وقعت فيما وقعت فيه عندما أفرطت في استخدام

١ـ الزخرف: ٤٥.

لفظة الشرك والمُشرك، وعدّ كثير من المسلمين مشركين بسبب انّها لم تضع حدّاً منطقياً للتوحيد، والعبادة، والشرك فيهما، فخبطت خبط عشواء، وخرجت بتكفير عامّة المسلمين لأعمال وأُمور جرت عليهم سيرتهم منذ قرون وقرون.

مراحل التوحيد الثمانية:

وقبل أن نخوض في صلب الموضوع نقدّم أمرين:

الأوّل: إنّ للتوحيد ثمانية مراحل هي:

١ـ التوحيد في الذات: وهو أن الله واحد لا نظير له ولا مثيل ولا ثانٍ ولا عديل.

٢ـ التوحيد في الصفات: وهو أن ذاته سبحانه عين صفاته، وصفاته عين ذاته، فذاته نفس العلم والقدرة وكذا العكس لا انّ هناك علماً وقدرة زائدتين على الذات والتفصيل في محلّه.

٣ـ التوحيد في الخالقية: وهو أن الله وحده خالق الكون، وليس للكون خالق سواه ولو نُسِب الخلق إلى موجود سواه كما في قوله: ﴿**أَنّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيراً بِإِذْنِ الله**﴾ (١).

٤ـ التوحيد في التدبير: وهو أنّ الله ربّ الكون ومدبره ولا مدبر على نحو الأصالة سواه.

١ـ آل عمران: ٤٩.

٥ـ التـوحيد في التقنين والتشريـع: وهو أنّ حـقّ التشريـع والتقنين منحصر فيه ولا مشرّع سواه.

٦ـ التوحيد في الطـاعة: والمراد منه أنّه لا تجب طاعة أحـد بالذات إلاّ الله تعـالى فهو وحـده الـذي يجب أن يُطـاع وتمتثل أوامـره، وأمّـا طاعـة غيره فتجب بإذنه وإلاّ كانت محرّمة مُوجبة للشرك.

٧ـ التوحيـد في الحاكمية: والمراد منـه أنّـه لا حاكـم إلاّ الله، وأنّ حقّ الحكم مختص به سبحانه ولا تصحّ الحكومة إلاّ بإذنه.

٨ ـ التوحيد في العبـادة: وهو أنّ حقّ العبادة محض حقّ لله، ولا يجوز عبادة غيره، فلا معبود سواه.

الثاني: إنّ الشائع بين الوهابيين هو تقسيم التوحيد إلى:

١ـ التوحيد في الربوبية.

٢ـ التوحيد في الألوهية.

ثمّ يقولون: إنّ التـوحيد في الربوبية بمعنى الاعتقـاد بخالق واحد لهذا الكون كان موضع اتّفاق عند جميع المشركين إبّان عهد الرسالة.

وأمّا التوحيد في الألوهية ويقصدون منـه التوحيد في العبادة الذي يراد منه أنّـه لا يعبد سـوى الله، فهو الـذي كانـوا يفتقده المشركـون آنذاك وقـد انصب جهد الرسول الكريم على هذا الأمر.

والحق أنّ اتّفاق جميـع المشركين إبان عهد الـرسالـة في مسألة التـوحيد

الخالقي ليس موضع شك، ولكن تسمية التوحيد الخالقي بالتوحيد الربوبي خطأ واشتباه، وتسمية التوحيد في العبادة بالتوحيد في الألوهية مثله.

أمّا الأوّل: فلأنّ معنى الربوبية ليس هو الخالقية كما توهّم هذا الفريق بل هو ما يفيد التدبير وإدارة العالم وتصريف شؤونه وهو لم يكن موضع اتّفاق بين جميع المشركين والوثنيين في عهد الرسالة كما ادّعى هذا الفريق، وإن كان التوحيد في الخالقية موضع اتفاق بينهم.

وممّا يدلّ على أنّ الربوبيّة لا تعني الخالقية، قولُ الله تعالى: ﴿**بَلْ رَبّكُمْ رَبّ السّماواتِ والأرْضِ الّذِي فَطَرَهُنَّ**﴾ [1]. فلو كان المقصود من الربّ هنا هو الخالق لكانت جملة «الذي فطرهنّ» زائدة لأنّنا لو وضعنا لفظة «الخالق» مكان «الربّ» في مطلع الآية لَلَمسنا عدم الاحتياج ـ حينئذٍ ـ إلى الجملة المذكورة، أعني: «الذي فطرهنّ» بخلاف ما إذا فُسّر الرب بالمدبر والمتصرّف ففي هذه الصورة تكون الجملة الأخيرة مطلوبة لأنّها حينئذٍ تكون علّة للجملة الأولى فتعني هكذا: أنّ خالق الكون هو المتصرّف فيه وهو المالك لتدبيره والقائم بإدارته.

وعلى ذلك فكلما أُطلق لفظ التوحيد في الربوبيّة وجب أن لا يُراد منه التوحيد في الخالقية بل التوحيد في التدبير وإدارة عالم الوجود.

أمّا الثاني: لأنّ الإله ليس بمعنى المعبود بل لفظ الإله ولفظ الجلالة (الله) متساويان، والتفاوت بينهما هو كون الأوّل كلّياً، والآخر مصداقاً لذلك الكلّي وهو المصداق الوحيد.

١ـ الأنبياء: ٥٦.

ويدلّ على ذلك أنّه ربّما يُستعمل لفظ الجلالة مكان الإله أي على وجه الكلّية والوصفية دون العَلَمية فيصحُ وضع أحدهما مكانَ الآخر كما في قوله سبحانه:

﴿وَهُوَ اللهُ في السَّماواتِ وفي الأرْضِ يَعْلَمُ سرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [١].

فإنّ وزان هذه الآية وزان قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ الَّذِي في السَّماءِ إِلٰهٌ وفي الأرْضِ إِلٰهٌ وَهُوَ الحَكِيمُ العَليمُ﴾ [٢].

وقد يُحملُ الإله على لفظ الجلالة حملَ الكلّي على مصداقه، قال سبحانه: ﴿ وَلا تقُولُوا ثَلاثَةٌ انْتَهُوا خيْراً لَكُمْ إنّما اللهُ واحدٌ سُبْحانَهُ أنْ يَكُون لَهُ وَلَدٌ﴾ [٣].

والنصارى إنّما يعتقدون بالتثليث في الأُلوهية لا بالتثليث في المعبودية أي أنّ الواجب سبحانه عندهم ثلاثة.

وهناك آيات تدلّ بوضوح على أنّ الإله ليس بمعنى المعبود، بل المراد منه هو نفس ما يُراد من لفظ الجلالة، غير أنَّ الأوّل كلّي دون الآخر، وإليك بعض الآيات: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا ءَالِهَةٌ إلاّ اللهُ لَفَسَدَتا﴾ [٤].

فإنّ البرهان على نفي تعدد الآلهة المذكور في الآية لا يتمّ إلاّ إذا فُسِّر

١ـ الأنعام: ٣.

٢ـ الزخرف: ٨٤.

٣ـ النساء: ١٧١.

٤ـ الأنبياء: ٢٢.

الإله بمعنى الخالق أو المدبّر لا الإلـه بمعنى المعبود، وإلاّ لانتقض البرهان لبداهة تعدد المعبود في هذا العالم مع عدم طروء الفساد في النظام الكوني.

ومثله قولـه سبحانه: ﴿مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَد وَمـا كـانَ مَعَهُ مِنْ إلـه إِذاً لَذَهَبَ كُلّ إِله بِما خَلَقَ وَلَعَلا بَعْضُهُمْ عَلىٰ بَعْض﴾ [١].

والبرهان المذكور في الآية لا يتم إلاّ إذا أُريد من الإله نفس ما يُراد من لفظ الجلالة مـن الخالق والمدبّر المتصرّف ولو فُسِّـر بمعنـى المعبود لانتقض البرهان كما قلناه.

ومثله الآية الثالثة: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَة كَمَا يَقُولُونَ إِذاً لابْتَغَواْ إِلى ذِى الْعَرشِ سَبيلاً﴾ [٢].

فإنّ ابتغـاء السبيل إلى ذي العـرش من لـوازم تعـدد الخالق أو المدبّـر المتصرّف أو من بيده أزمَّة أُمور الكون أو غير ذلـك ممّا يرسمه في ذهننا معنى الأُلوهية وأمّا تعدّد المعبود بما هو معبود فلا يُلازم ذلك.

ثمّ إنّ من يفسّـــر الإله بمعنى المعبـود التجأ في مثل هـذه الآيات إلى تقـدير كلمـة «بـالحق» وهو خـلاف الظاهـر، ولا يُصـار إليه حتّـى يستقيم البرهان المذكور في الآية.

نعم تفسير الإلـه بالمعبـود هو من بـاب تفسير اللفظ بـلازم معناه لا بمعناه فإنّ الإله الخالق المدبّر هو اللائق بالعبادة، أي أنّ الخالقية والمدبرية تلازم المعبودية وتستلزمها.

١ـ المؤمنون: ٩١.

٢ـ الإسراء: ٤٢.

وعلى ضـوء ذلك بَطَلَ تقسيمُ التـوحيد إلى الـربـوبية بمعنى الخالقيـة والأُلوهية بمعنى العبادة والأولى أن يعبّـر عن كلّ واحد بنفس ما عبّـرنا به.

إذا اتّضح هذا فلنعمد إلى تبيين حقيقة العبادة.

ما هي حقيقة العبادة؟

وهذه هي الجهة التي عقدنا هذا الفصل لتحليلها وبيانها، ولو أنّ أحداً ضلّ في هذا المقام فإنّما ضلّ لأجل عدم تحديد حقيقة العبادة، ومفومها.

فماذا تعني العبادة، وما هي حقيقتها؟

هل العبادة بمعنى الخضوع أو منتهى الخضوع؟

إنّ مقوّم حقيقة العبادة ليس هو الخُضُوع المطلق، بل ولا حتّى الخضوع البالغ نهايته، وذلك لأنّ الخضوع بهذا الحدّ (وهو السجود) قد فعله الملائكة أمام آدم ـ عليه السلام ـ كما فعله يعقـوب ـ عليه السلام ـ وأولاده أمام ابنـه يوسف ـ عليه السلام ـ، ولم يكن مع ذلك عبادة.

قال سبحانه مخبراً عن هذين الحادثين: ﴿**وَإِذْ قُلْنَا لِلمَلائِكَةِ ٱسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُواْ إلاّ إِبْلِيس أَبَـى وَٱسْتَكْبَرَ**﴾ [١].

وقال تعالى: ﴿**وَرَفَعَ أَبَوَيْـهِ عَلَىٰ الْعَرْشِ وَخَرّوا لَهُ سُجّداً وَقـالَ يا أَبَتِ هذا تَأْوِيلُ رُؤيايَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَها رَبّـي حَقّاً**﴾ [٢].

١ـ البقرة: ٣٤.

٢ـ يوسف: ١٠٠.

والله سبحانه يُطري على قوم يخضعـون للمؤمنين نهاية الخضوع ويقول في وصفهم: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَىٰ الْكافِرِينَ﴾ (١).

ويأمـر سبحـانـه الأولاد بخفض الجنـاح لآبـائهـم بقولـه سبحـانـه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَناحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ (٢).

إنّ الخضـوع بهذا الحدّ موجـود في جميع هـذه الموارد ومع ذلك لا يُعـدّ عملهم عبادة لآدم أو يوسف أو المؤمن أو الوالد.

وربّما يُتخيّل أنّ خضوعهم وتـذلّلهم يُعدّ عبادة حقيقـةً إذا لم يأمر الله تعالى به، فإذا أمر به تعالى خرج عن كـونه عبادة فعدم تسميته عبادة في هذه الموارد لا يكون دليلاً على عدم كونها عبادة فيها إذا لم يأمر به.

ولكن هـذا محاولـة باطلـة فإنّ العمل إذا كـان بـذاته عبـادة لشيء أو إنسان كان ماهيته شركاً، والشرك ظلم والله لا يأمر بالظلم وكان فاحشةً والله سبحانه لا يأمـر بها قال سبحانه: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَـةً قَالُوا وَجَدْنـا عَلَيْها ءَابـاءَنا واللهُ أَمَـرَنا بها قُلْ إِنَّ اللهَ لا يَـأْمُرُ بِـالفَحْشاءِ أَتَقُـولُونَ عَلَى اللهِ مَـا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (٣).

نعم ربّما تُطلق العبادة لبيـان شدَّة التعلّق بالشيء مثل عبـد الدينار أو عبد معشوقه أو عبد الشيطان في قوله ﷺ : «من أصغى إلى ناطق فقد عبده فإن كان ينطق عن الله فقد عبد الله، وإن كان ينطق عن غير الله فقد عبد غير

١ـ المائدة: ٥٤.

٢ـ الإسراء: ٢٤.

٣ـ الأعراف: ٢٨.

الله» وهو لا ريب من التجوّز والاستعمال المجازي للكلمة، إذ لا يقول أحد بكفر هؤلاء وعبادتهم لغير الله حقيقة.

هل التشابه ملاك العبادة؟

ليس التشابه بين ما كان يفعله المشركون وبين ما يفعله المسلمون في الصور مقوّماً للعبادة فإنّ أعمال الحجّ من بدوها إلى ختمها تشبه عمل الوثنيين، ومع ذلك لا يُعدّ الطواف بالأحجار والأخشاب واستلام الحجر الأسود والسعي بين جبلي الصفا والمروة أعمالاً شركية، مع أنّها لا تفترق حسب الصورة والظاهر عن ممارسات المشركين وأعمالهم الذين كانوا يقومون بأعمال الحجّ على غرار ما يفعله المسلمون اليوم في الأكثر.

فإذن يجب أن نقف على ما هو المقوّم الحقيقي للعبادة فنقول: إنّ اتّصاف قول أو فعل بصفة العبادة متوقف على وجود عنصر في القلب يُضفي على العمل الجارحيّ من القول والفعل وصف العبادة.

فما دام هذا العنصر موجوداً في القلب وشاغلاً ساحة الروح يُعدّ العمل من الإنسان النابع من ذلك العنصر القلبي، ومن تلك العقيدة، عملاً عبادياً.

وأمّا إذا افتقدت الروحُ والنفس ذلك العنصر ولم يصدر القولُ والفعلُ عن تلك العقيدة لا يُعدّان عبادة، وإنّما يتّصفان بواحد من الأوصاف من كونه تعظيماً أو تكريماً أو غير ذلك.

ملاكات العبادة ومقوّماتها في ضوء القرآن:

وأمّا ذلك العنصر فإليك بيانه بتعابير ثلاثة:

١ـ الاعتقاد بأُلوهية المعبود المخضوع له.

٢ـ الاعتقاد بربو بيته وكونه مالكاً لشأن من شؤون الكون أو الإنسان ومصيره.

٣ـ الاعتقاد بأنّ المسؤول مستقلٌ في الإجابة وكونه يقدر على تلبية الطلب من دون إذن أحد أو معونته.

فلو خضع الإنسان لأحد أو شيء أو طلب منه شيئاً باعتقاد أنّه إله (ولو كان إلهاً صغيراً في مقابل الإله الأكبر) أو رب، أو مستقل في التأثير والإجابة فإنّه يكون قد عَبَده.

وفي القرآن الكريم إلماعات إلى هذه الملاكات والقيود التي تحقق مفهوم العبادة وتشكّل حقيقتها وجوهرها.

فأمّا الملاك الأوّل: فيقول سبحانه: **﴿أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللهِ سُبْحانَ اللهُ عَمّا يُشْرِكُون﴾** [1].

فقد جعل في هذه الآية اعتقادهم بأُلوهية غير الله هو الملاك للشرك .

ويقول سبحانه: **﴿إِنَّهم كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾** [2] أيّ أنّهم يرفضون هذا الكلام لأنّهم يعتقدون بأُلوهية

١ـ الطور: ٤٣.

٢ـ الصافات: ٣٥.

معبوداتهم ويعبدونها بما أنّها آلهة ... وغير ذلك من الآيات وهي كثيرة.

وأمّا الملاك الثاني: فقوله سبحانه: ﴿**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُم...**﴾ [١].

وقوله تعالى: ﴿**ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ**﴾ [٢].

فتعليل لزوم العبادة بكونه سبحانه الربّ في الآية الأُولى أو الربّ والخالق لكلّ شيء في الآية الثانية يعرب عن أنّ الدافع إلى العبادة هو ذلك الاعتقاد، فلا يتّصف الخضوع بوصف العبادة إلاّ إذا اعتقد الإنسان بأن المخضوع له خالقٌ أو ربٌّ أو يملك شأناً من شؤون الإنسان.

وأمّا الملاك الثالث: فقوله: ﴿**اللهُ لا إِلَه إِلاَّ هُوَ الحَيُّ القَيّومُ**﴾ [٣].

وقوله: ﴿**وَعَنَتِ الوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيّومِ**﴾ [٤] والقيوم هو الموجود القائم بنفسه ليس فيه شائبة من الفقر والحاجة.

والآيتان تُفيدان أنّ الإله الحقيقي هو من يكون مستغنياً في ذاته وفعله عن غيره، فلو استغثنا بأحد باعتقاد أنّه يقضي حاجاتنا ويُلبي مطالبنا بالاستقلال ومن عند نفسه فقد وصفناه بالربوبيّة أوّلاً، وزعمنا أنّه قائم بالفعل على النمط الذي يقوم به الله ثانياً، وكأنّا أضفينا عليه صفة القيومية.

١ـ البقرة: ٢١.

٢ـ الأنعام: ١٠٢.

٣ـ البقرة: ٢٥٥، آل عمران: ٢.

٤ـ طه: ١١١.

هذه هي ملاكات العبادة وهذا مفهومها في ضوء آيات القرآن الكريم فالعبادة هو الخضوع والتذلّل أمام أحد ـ غير الله ـ أو طلب شيء منه باعتقاد أنّه إله أو ربّ أو مستقلّ في تنفيذ الحاجة، وهي صفات تختصّ بالله، ولا شكّ انّ خضوعاً وطلباً كهذا يكون عبادة، وعملاً متّسماً بالشرك، لأنّه صيّر المخلوق مساوياً لله سبحانه في مجالي العقيدة والعمل، فأعطاه من الصفات ما ليس له وأعطاه من الخضوع والطلب ما يختص بالله سبحانه.

وبذلك يتّضح أنّه لا يتّصف أيُّ عمل وفعل بالعبادة إلاّ إذا كان العامل معتقداً بأُلوهية مَن أتى بالعمل لأجله أو بربوبيته.

وإن شئت قلت: إنّه لا يكون أيّ خضوعٍ لفظي أو عَمَليٍّ متّسِماً بسمةِ العبادةِ إلاّ إذا كان الخاضعُ معتقداً بأنّ المخضوع له هو الإله الكبير، أو الإله الصغير (كما في الأوثان والأصنام حسب عقيدة المشركين) أو اعتقد بربوبيته وأنّه مدبّر الكون كلِه أو بعضِهِ وبيده شؤون الإنسان كلّه أو بعضِه ولا أقلّ بيده مغفرة الذنوب والشفاعة، والإدخال في الجنّة والنار.

كما أنّه إذا طلب شيئاً من إنسان أو مَلَكٍ لا يعدّ طلبه وسؤاله واستغاثته عبادة للمسؤول إلاّ إذا اعتقد أنّه يضرّ وينفع، وينقض ويبرم باستقلاله من دون استئذان من الله سبحانه، على وجه فُوّض إليه شأن ذلك العمل.

وأمّا إذا خلا الخضوع والسؤال من هذه العناصر ولم يكن المخضوع له عند الخاضع إلهاً أو رباً، ولا المسؤول قائماً بشيء من عند نفسه، بل كانا في نظره وعقيدته من عباد الله الصالحين، يُرجى استجابة دعائهما وقضاء حاجته

في ظل طلبهما، فلا يكون الخضوع والسؤال إلاّ عملاً عادياً، له من الحكم ما لسائر الموضوعات من الأحكام.

نعم ليست هناك ملازمة بين عدم اتّصاف العمل بالشرك وبين كونه عملاً مباحاً جائزاً في الشرع وإنّما يُطلب حكمه من الجواز والحرمة، من سائر الأدلّة أي أنّه ليس حراماً بدليل كونه شركاً، وإنّما يكون حراماً أو مباحاً بدليل آخر.

ولأجل ذلك ركزنا في هذا البحث على نفي صفة الشرك لا على الجواز، وإنّما يُستفاد جوازه وحرمته من عرضه على الكتاب والسنّة.

ما يترتّب على هذا الأصل:

بعد أن عرفت في دراسة قرآنية أنّ مقوِّم العبادة عبارة عن اعتقاد السائل أو الخاضع أو الداعي أو المنادي بأنّ المسؤول والمخضوع له والمدعوّ «إله» أو «ربٌّ» يملك شيئاً ممّا يرجع إليه في عاجله وآجله ومسيره ومصيره، أو أنّه يقوم بما يطلبه على نحو الأصالة والاستقلال، وعرفت أنّ الخضوع والدعوة لو تجرّدا عن هذا الاعتقاد لما اتّصفا بوصف العبادة وإن بلغا منتهاهما، كيف لا وقد خضعت الملائكة لآدم خضوعاً ليس فوقه خضوع ومع ذلك لم يكن عملهم عبادة لآدم، وخضع يعقوب وأولاده ليوسف خضوعاً لا مثيل له، ومع ذلك لم يكن فعلهم عبادة، وما ذلك إلاّ لخلو عملهم عن مقوم العبادة والشرط الجوهري فيه.

إذا عرفت كلّ هذا يتضح في ضوء هذا الأصل أنّ كثيراً من الأعمال

التي يقوم بها أشياع الأنبياء ومحبّوهم من الخضوع والتكريم والاحترام ليست عبادة لهم، وإن بلغت نهاية التذلل والخضوع، بل هي تنطلق من مبادئ أُخرى كالحب والودّ والتعزير والتكريم وهذه الأفعال هي:

١ــ تقبيل الأضرحة وأبواب المشاهد التي تضم أجساد الأنبياء والأولياء، وما يرتبط بها، فإنّ ذلك ليس عبادة لصاحب القبر والمشهد لفقدان عنصر العبادة في ما يفعله الإنسان من التقبيل واللمس، وما شابه ذلك.

٢ـ إقامة الصلاة عند المشاهد تبرّكاً بالموضع الذي تضمّن جسد النبيّ ﷺ أو الإمام ـعليه السلام ـ كما نتبرك بالصلاة عند مقام إبراهيم اتّباعاً لقوله تعالى: ﴿**واتّخِذُواْ مِنْ مَقام إِبْراهيمَ مُصَلّى**﴾[1].

٣ـ التوسّل بالنبيّ ﷺ سواء كان توسلاً بشخصه وذاته أو بمقامه وشخصيته أو بدعائه، فإن كل ذلك لا يكون إلاّ من باب التوسّل بالأسباب، لا أنّه عبادة للنبيّ لعدم توفر العنصر المقوّم لمفهوم العبادة في هذه التوسّلات، فإنّ النداء والدعاء إنّما يكون متّسماً بصفة العبادة إذا اعتقد المتوسّل بأنّ المتوسَّل به مالك لشيء، أو فاعل بالاستقلال أو مُفوّض إليه أمورُ الله سبحانه بعضها أو كلها، أمّا إذا كان النداء أو الدعاء خالياً عن هذا الاعتقاد، أي لم يعتقد المنادي والداعي أنّه إله أو ربٌ أو مستقلٌ في التأثير بل هو عبد صالح أكرمه الله تعالى كان التوسّل به من قبيل التوسّل بالأسباب، أمّا كونّه مفيداً أو غير مفيد فهو خارج عن مجال البحث.

١ـ البقرة: ١٢٥، ولا يصحّ أن يبرّر ذلك بالأمر الإلهي لما سبق منا من ردّ هذا التبرير.

٤ـ إنّ طلب الشفاعـة من الأنبياء والنبيّ الأكرم ﷺ ليس شركاً لأنّه إمّـا أن يكون مـأذوناً في الشفـاعـة فيشفع و إمّـا أن لا يكون كـذلك فيكـون التوسّل لغواً.

إنّ طلب الشفاعة من النبيّ الأكـرم ليس إلاّ طلب الدعاء ولا أظنّ أن يعدّ أحد طلب الدعاء شركاً سواء كان المدعو حيّاً أو ميّتاً.

وهذا هو أمير المؤمنين يطلب الشفاعة من النبيّ الأكرم عندما فرغ من تغسيله، وقال: «بأبي أنت وأُمي طبتَ حيّاً وميّتاً ... أُذكرنا عند ربّك» (١).

وهذا أبو بكر لمّا توفي رسـول الله كشف عن وجهه وقبّلـه وقال: «بأبي أنت وأُمي طبتَ حيّاً وميّتاً أُذكرنا عند ربّك» (٢).

وهذا هو عمـر بن عبد العزيز يطلب الشفاعـة من أحد ذراري رسول الله ﷺ:

دخل عبد الله بن حسن على عمـر بن عبد العزيز وهـو حديث السن وله وفـرة فرفع مجلسه وأقبـل عليه وقضى حوائجـه، ثمّ أخذ عكنـة من عكَنهِ فغمزها حتـى أوجَعَه، وقال له: أُذكرهـا عندك للشفاعة فلما خـرج لامه أهله وقالوا: فعلتَ هذا بغلام حديث السنّ!

فقال: إنّ الثقة حدّثني حتّى كأني أسمعه مِن فِـي رسول الله ﷺ قال: «إنما فاطمة بضعة منّـي يسرني ما يسرّها» وأنا أعلم أنّ فاطمة لـو كانت حيّة

١ـ نهج البلاغة، الخطبة: ٢٣٠.

٢ـ كشف الارتياب: ٦٥.

لسرَّها ما فعلت بابنها.

قالوا: فما معنى غمزك بطنه وقولك ما قلت؟

قال: إنّه ليس أحد من بني هاشم إلاّ وله شفاعة فرجوت أن أكون في شفاعة هذا[١].

والاستدلال على كون طلب الشفاعة شركاً بقوله سبحانه: ﴿**وَيعبدون من دون اللهِ ما لا يضرّهم ولا يَنفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**﴾[٢]، ساقط جداً لأنّهم كانوا يطلبون الشفاعة ممّن يعتقدون بأُلوهيتهم، وكونهم مالكين لها وأنّه سبحانه فوّض إليهم أمرَ الشفاعة فيكون مثل هذا الطلب عبادة.

وأمّا المسلمون فإنّما يطلبون الشفاعة من أُناس يعتقدون بأنّهم عباد صالحون لا يعصون الله في أمره، وبذلك تعرف سقوط كثير من استدلالاتهم على تحريم طلب الشفاعة من النبيّ الأكرم ﷺ.

٥ـ الاستغاثة بالأرواح المقدّسة ليس إلاّ كالاستغاثة بهم في حياتهم، وقد استغاث شيعة موسى به قال تعالى:

﴿**فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِن شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِن عَدُوِّهِ**﴾[٣].

فلو استغاث أحد في حال مماته بالنبيّ كانت استغاثته كالاستغاثة

١ـ الأغاني لأبي فرج الاصفهاني ج٩ : ٢٦٣.

٢ـ يونس: ١٨.

٣ـ القصص: ١٥.

به ﷺ حال حياته، فتفسير الأُولى ووصفها بالتعلّق بالأسباب والثانية بعبادة المستغاث به، تفسير لا أساس لـه من الصحّة، إذ لا يعقل أن يوصف شيءٌ واحدٌ متّحـدٌ في جميع الخصوصيـات إلاّ في كون المسؤول في صـورةٍ حيّاً، وفي صورة أُخرى ميّتاً، بأنّه عبادة في الثانية غير عبادة في الأُولى.

وستعـرف في ما يـأتي أنَّ مماتهم بعـد خـروج الـروح من أبـدانهم ليس بمعنى فنائهم وانعدامهم.

٦ـ الاستعانـة بهم في مشاهدهم ومزاراتهم أو خارجهـا نظير الاستغاثة حرفاً بحرف.

ولا ينافي جواز الاستغاثة والاستعانـة بهم انحصار الاستعانة بالله تعالى المنصوص عليه في قوله تعالى: ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ فإنّ المنحصر في الله تعالى هو الاستعانة بالمعونة المستقلّة النابعة من ذات المُستعان به، غير المتوقفة على شيء فهذا هو المنحصر في الله تعـالى، وأمّا الاستعانة بالإنسـان الذي لا يقوم بشيء إلاّ بحول الله وقوّتـه، وإذنه ومشيئته، فهو غير منحصر بـالله سبحانه، بل إنّ الحيـاة قائمة على هـذا الأساس فإنّ الحيـاة البشرية مليئـة بالاستعـانة بالأسباب التي تؤثر وتعمل بإذن الله تعالى.

ولإيقاف القـارئ على هذه الحقيقـة، نلفت نظره إلى آيـات تحصر جملةً من الأفعال الكونيـة في الله تارة مع أنّه تُنسب نفس الأفعـال في آيات أُخرى إلى غير الله أيضاً ، ومـا هذا إلاّ لأنّه لا تنافي بين النسبتين لاختـلاف نوعيّتهما فهي محصـورةٌ في اللهِ سبحانه مـع قيد الاستقلال، ومـع ذلك تُنسب إلى غير الله مع قيد التبعيّة والعرضيّة.

الآيات الناسبة للظواهر الكونية إلى الله وإلى غيره:

١ـ يقول سبحانه: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ [١].

بينما يقول سبحانه فيه (أي في العسل): ﴿شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [٢].

٢ـ يقول سبحانه: ﴿إِنَّ اللهَ هُوَ الرَّزَّاقُ﴾ [٣] بينما يقول: ﴿وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا﴾ [٤].

٣ـ يقول سبحانه: ﴿أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ﴾ [٥]. بينما يقول سبحانه: ﴿يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾ [٦].

٤ـ يقول تعالى: ﴿وَاللهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [٧] بينما يقول سبحانه: ﴿بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ [٨].

٥ـ يقول تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾ [٩] بينما يقول سبحانه: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْراً﴾ [١٠].

١ـ الشعراء: ٨٠.

٢ـ النحل: ٦٩.

٣ـ الذاريات: ٥٨.

٤ـ النساء: ٥.

٥ـ الواقعة: ٦٤.

٦ـ الفتح: ٢٩.

٧ـ النساء: ٨١.

٨ـ الزخرف: ٨٠.

٩ـ يونس: ٣.

١٠ـ النازعات: ٥.

٦ـ يقول سبحـانه: ﴿اللهُ يَتوفّى الأنْفُسَ حينَ مَوْتِها﴾ [١]. بينما يقول: ﴿الّذِينَ تَتَوَفّاهُمُ الملائِكَةُ طَيِّبينَ﴾ [٢].

إلى غير ذلك من الآيـات التي تنسبُ الظـواهر الكـونية تـارةً إلى الله، وتارةً إلى غيره تعالى.

والحلّ هو: أن يُقال أنّ المحصور على الله تعالى هو انتساب هذه الأُمور على نحو الاستقـلال، وأمّا المنسوب إلى غيره فهـو على نحو التبعية، وبـإذنه تعالى، ولا تعارض بين الانتسابين، ولا بين الاعتقاد بكليهما.

فمن اعتقـد بأنّ هذه الظـواهر الكـونية مُستنـدة إلى غير الله على وجه التبعيـة لا الاستقلال لم يكن مُخطئاً ولا مشركـاً وكذا مـن استعان بـالنبيّ أو الإمام، على هذا الوجه.

هذا مضـافاً إلى أنّـه تعالى الـذي يعلمنا أن نستعين بـه فنقول: ﴿إيّاكَ نَعْبُدُ وإيّـاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يحثنا في آيـة أُخرى على الاستعـانة بـالصبر والصلاة فيقول: ﴿واستعينوا بالصبر والصلاة﴾ [٣].

٧ـ الحلف بكتاب الله وسنّة نبيه، ونبيـه وأوليائه، هو الآخر ليس عبادة ولا شركاً، إذ لو كان الحلف بغير الله شركـاً ولو صغيراً لاستلزم نسبة ارتكاب الشرك إلى الله حيث قد حلف بغير ذاته من الموجودات المادية العظيمة [٤].

١ـ الزمر: ٤٢.

٢ـ النحل: ٣٢.

٣ـ البقرة: ٤٥.

٤ـ مثل الحلف بالشمس والقمر والتين والزيتون والبلـد الأمين والضحى والليل وما شابه ذلك (ممّا في الجزء الثلاثين من القرآن الكريم).

وإذا كانت ماهية الحلف بغير الله ماهية شركية لا يفرق بينه وبين عباده: قال سبحانه: ﴿قُلْ إِنّ اللهَ لا يَأْمُرُ بِالْفَحْشاءِ أَتَقُولُونَ عَلَىٰ اللهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (١).

إنّ الحلف بتلك الأُمور العظيمة يتضمّن أمرين:

الأوّل: الدعوة إلى الدقة والتدبّر فيها، وفي صنعها.

الثاني: الاشارة إلى قداسة المقسَم به وكرامته، كما حلف الله سبحانه بحياة النبي إذ قال: ﴿لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ (٢).

نعم ثمت روايات نهت عن الحلف بغير الله ولقد استدل بها هذا الفريق، ولكن يجب النظر في الأحاديث الناهية عن الحلف بغير الله والتحقيق في مفاداتها وملابساتها، والاجتهاد في فهمها ودراستها.

فما جاء في بعض الروايات من أنَّ رسول الله ﷺ سمع عمر يقول: وأبي.

فقال: «إنّ الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم ومن كان حالفاً فليحلف بالله أو يسكت» (٣).

فإنّ وجه نهي النبيّ عن الحلف بالآباء هو أنّ آباءهم في الغالب كانوا مشركين وعَبَدَةَ الأصنام فلم تكن لهم حُرْمة ولا كرامة حتّى يَحلِفَ أحدٌ بهم،

١ـ الأعراف: ٢٨.

٢ـ الحجر: ٧٢.

٣ـ سنن ابن ماجة ١: ٢٧٧.

ولهذا نهى رسول الله ﷺ عن الحلف بهم.

ويؤيد هذا مجيء ذكر الآباء إلى جانب الطواغيت في قوله: «وَلاَ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ وَلاَ بالأُمَّهاتِ وَلا بالأنْدادِ»[١].

وقوله: «لاَ تحْلِفوا بِآبائِكُمْ وَلاَ بِالطَّواغِيتِ»[٢].

٨ـ إحلاف الله سبحانه بحقّهم، وقد زعم ابن تيمية حُرمة هذا العمل، ورآه من تبعه شركاً.

وقد استدل أحد كُتّابهم على أنّه شرك يقول:

إنّ الإقسام على الله بمخلوقاته أمرٌ خطيرٌ قريب إلى الشرك إن لم يكن هو ذاته، فالإقسام على الله بمحمّد (وهو مخلوقٌ بل وأشرفُ المخلوقين) لا يجوز، لأنّ الحلف بمخلوقٍ حرام، وإنّه شرك لأنّه حلِفٌ بغير الله، فالحلف على الله بمخلوقاته من باب أولى، أي جَعَلنا المخلوق بمرتبة الخالق والخالق بمرتبة المخلوق، لأنّ المحلوف به أعظم من المحلوف عليه، ولذلك كان الحلف بالشيء دليلاً على عظمته، وأنّه أعظم شيء عنده من المحلوف عليه[٣].

إنّ كلام هذا الكاتب يشتمل على أمرين:

١ـ إنَّ الحلف بغير الله شرك.

١ـ سنن النسائي ٧: ٩.

٢ـ المصدر نفسه ٧: ٧.

٣ـ التوصّل إلى حقيقة التوسّل: ٢١٧ ـ ٢١٨.

٢ــ إنَّ المحلوف بـه يجب أن يكـون أعظم مـن المحلُوف عليـه فـلازم الحلف بالمخلوق على الله كونه أعظم من الله.

وقد تبيّـن فيما مضى بطلان الأوّل [١].

وأمّـا الثاني فإنّ لازم الحلـف بشيء على الله هو أن يكـون المحلوف بـه مُحترماً عند الله ومقبول الشفـاعة والدعاء عنده لا كونَـه أعظم من المحلوف عليه [٢] والكاتب المذكور لم يفرّق بين كونه أكرم عند الله وبين كونه أعظم من الله.

ثمّ انّـه كيـف يقـول: إنّ الحلف على الله بمخلـوقـه شرك وقـد ورد في الصحاح والمسـانيد النصّ على جوازه، وإليك طـائفة من الروايـات في هذا المجال:

أ ـ مـا رواه أبو سعيد الخدري قال: قـال رسول الله ﷺ: «من خَرَج رجلٌ من بيتـه إلى الصلاة، فقـال: اللهم إنّي أسألك بحقّ السـائلين عليك وحقّ ممشاي ...» [٣].

ب ـ ما رواه البيهقـي عن عمر بن الخطاب قـال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا اقترف آدم الخطيئـة قـال: يـا ربّ أسـألك بحـقّ محمّـد إلاّ مـا غفـرت لي...» [٤].

١ـ راجع المقطع السابق (أي المرقم برقم ٧) ص ١٤١.

٢ـ نعـم فيما إذا حلف المنكر بالله في فصـل الخصومات يكـون المحلوف به (الله) أعظم مـن المحلوف عليه أي المدعى لكنّه من خصوصيات المورد وليس قاعدة كليّة.

٣ـ سنن ابن ماجة ١: ٢٥٦، الحديث: ٧٧٨.

٤ـ مستدرك الصحيحين ٢: ٦١٥، والدر المنثور ١: ٥٩.

ج ـ روى الطبراني بسنده عن أنس بن مالك (رض) أنّه لما ماتت فاطمةُ بنت أسدٍ أُمّ عليّ (رض) دَخَل عليها رسول الله ﷺ، فجلس عند رأسها فقال: «رَحمَكِ اللهُ يا أُمّي، كنتِ أُمّي بعد أُمّي، تجوعين وتُشبعينَني، وتَعرين وتُكسِينَني، وتَمنعين نفساً طيباً وتُطعِمينَني، تريدينَ بذلك وجهَ اللهُ والدارَ الآخرةِ».

ثمّ أمرَ أن تُغسَّلَ ثلاثاً، فلما بلغ الماء الذي فيه الكافور سكبه رسول الله ﷺ بيده ثمّ خلع رسول الله ﷺ قميصه فألبسها إيّاه وكفَّنها ببرد فوقها، ثمّ دعا رسول الله ﷺ أُسامةَ بن زيد وأبا أيّوب الأنصاري وعمر بن الخطاب، وغلاماً أسوداً يحفُرون، فحفَروا قبرها فلما بلغوا اللحد، حفرهُ رسولُ الله بيده، وأخرج ترابه بيده، فلمّا فرغ دخلَ رسول الله ﷺ فاضطجعَ فيه وقال ﷺ: «الله الذي يُحيي ويُميتُ وهُوَ حيٌّ لا يَموتُ. إغْفرِ لأُمّي فاطمة بنت أسد ولقّنها حُجَّتَها، ووسّع عليها مدْخلها بحقّ نبيّك والأنبياء الذين من قبلي فإنّك أرحمُ الراحمين» وكبّـرَ عليها أربعاً وأدخلها اللحد هو والعباس وأبو بكر[١].

إلى غير ذلك من الأحاديث الصحيحة التي تتكفّل جواز إحلافه سبحانه بحقّ أنبيائه صريحاً أو تضمّناً، وسيجيئ عند البحث عن التعلّق بالأسباب والوسائل، الذي هو أحد الأُصول، بعضُ الروايات فلاحظ حديث ابن حنيف هناك.

وبما أنّ الموضوعين: إحلافه سبحانه بحقّ أنبيائه والتوسل بهم

١ـ معجم الطبراني الأوسط ٣٥٦، حلية الأولياء ٣: ١٢١ والمستدرك ٣: ١٠٨.

متقاربان، قسّمنا ما يدل عليهما من الأحاديث على البابين.

٩ــ النـذر للصالحين: والمقصـود نـذر الـذبيحـة لله، وإهداء ثـوابـه للصالح من النبي وغيره، فقول القائل نذرت للنبي معناه: نذرتُ لله أن أذبحَ شاةً، وأتصدّق بها، وأُهدي ثوابه للنبيّ.

فهناك «لامان»:

«لامٌ» يراد منها الغاية، يقول سبحـانه حاكياً عن امرأة عمران: ﴿رَبِّ إِنّـي نَذَرْتُ لَكَ ما في بَطْني مُحرّراً﴾ [1].

و «لام» يُـراد منهـا بيـان وجه المصرف كما في قـولـه سبحـانـه: ﴿إِنَّما الصَّدَقاتُ لِلفُقَراءِ والمساكِين﴾ [2].

والذي يصف هذه الأعمال بـالشرك لم يفرّق بين اللامين، وإنّما نظر إلى صورة القضية دون واقعهـا، وسنوضّح حال هذه الفعال في أصـلٍ آخر وهو «**لزوم النظر إلى النيّات والضمائر، لا الصور والظواهر**» .

فلو أراد النـاذرُ من قـوله: «نـذرت للنبيّ» التقرّبَ منـه، يكون فعلـه شركاً.

وأمّا إذا أراد كونه محلاً لإهداء ثوابه فهو نفس التوحيد، وهذا مثل قول الوالد، لعقيقة ولده: هذا لولدي.

فإذا اتّضح كلّ هـذا ، هل يجوز تكفير المسلمين الموحّدين المعتقـدين

١ـآل عمران: ٣٥.

٢ـالتوبة : ٦٠.

بعبوديـة النبيّ والأئمّـة والصالحين وأنّهم لا يملكون شيئاً من شـؤون تدبير الإنسان في حياته ومصيره، وأنّهم لا يستقلّـون بشيء، بأنّهم مشركون، يعبدون غير الله في توسّلاتهم ونذورهم، وحلفهـم، وتقبيلهم لأضرحة الأنبياء والأئمّة ...و ...و... لمجرّد مشابهة أعمالهم لأعمال المشركين، مع اختلاف جوهر عَمَل المشركين عن جوهـر عمل المسلمين، ومع عدم تـوفّر مقوّم العبـادة في عمل المسلمين؟!!

وهل تـرى يصح أن يجري العلماء وراء عقيـدة مـوروثـة من ابن تيميّـة وتلميـذ منهجه محمّـد بن عبـد الوهـاب وهما لا يعـدوان عن كـونهما بشرين يخطئان ويصيبان كسائر البشر؟!

أفلا يقتضي هذا أن يُعيد العلماء النظر في ما قـالاه وتركاه من أفكار، ممّا خرقـا به إجماع الأُمّـة وسيرة السلف ونهج العقلاء، بل وخـالفا فيـه الكتاب والسنّة؟!

هذا مع أنّ الـذكر الحكيم قد وضـع ميزاناً واضحـاً لتمييز الشرك عن غير الشرك، والمشرك عن غير المشرك، فقال تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذا قِيلَ لَهُمْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتارِكُوا ءَالِهَتِنَا لِشاعِرٍ مَجْنُونٍ﴾ [١].

وقال: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِيـنَ لا يُؤْمِنُونَ بالآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [٢].

وقال: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّـهُ إِذا دُعِـيَ اللهُ وَحْدهُ كَفَـرْتُمْ وَإِنْ يُشْـرَكْ بِهِ تُـؤْمِنُوا

١ـ الصافات ٣٥ـ٣٦.

٢ـ الزمر: ٤٥.

فَالْحُكْمُ للهِ الْعَلي الكبير﴾ [١].

فهل بالله يستكبر المتوسّلون بالنبيّ والأئمّة -عليهم السلام- إذا قيل لهم: «لا إله إلاّ الله» ، ويقولون: «أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» ؟!

وهل إذا ذُكِرَ الله اشمأزت قلوبهم وإذا ذكر الذين من دونه يستبشرون؟!

وهل إذا دُعي الله وحده كفروا وإن يُشرك به يؤمنون؟!

قليلاً من الورع والإنصاف أيّها الإخوة.

١ـ غافر: ١٢.

٦

الاعتبار بالنيّات والضمائر لا بالصور والظواهر

- دور القصد في تقبّل العمل.
- ما يترتب على هذا الأصل.

دور القصد في تقبّل العمل:

يتميّز الإسلام عن سائر المناهج البشرية بأنّه يُثيب على العمل النابع من النيّة الخالصة والقصد الطاهر، ولا يكتفي بحسن العمل نفسه، بل يحكم بوجوب كون العمل صادراً عن قلبٍ سليمٍ وقصدٍ طاهر ونيّةٍ خالصةٍ، وهذا بخلاف سائر المناهج البشرية، فهي تكتفي بحُسن العمل نفسه، وإن صَدَر عن نيّة مشوبة بشيء كالرياء والسمعة.

١ـ إنّ تعمير المسجد الحرام عملٌ حَسَن في حدّ نفسه سواء قام به المشرك أو المؤمن، ولكنّ الله سبحانه أسقطه عن الاعتبار، ولم يجعل له قيمة

إذا صدر عن الكافر، بخلاف ما إذا قام به المؤمن المخلص، قال سبحانه: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أنْ يَعْمُرُوا مَساجِدَ اللهِ شاهِدينَ عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ بِالكُفر أُولئِكَ حَبِطَتْ أعْمالُهُمْ وفي النّار هُمْ خالِدُون * إنَّما يَعْمُرُ مَساجدَ الله مَنْ ءَامَنَ بِاللهِ واليَومِ الآخِر وَأَقامَ الصّلاةِ وءَاتى الزّكاةَ ولم يَخشَ إلاّ اللهَ فَعَسىٰ أُولئكَ أنْ يَكُونُوا مِنَ المُهتَدِين﴾ (١).

والإمعان في الآية يكشف لنا أنّ الملاك في القضاء والحكم هو باطن العمل لا ظاهره، وإلاّ فالعمل الذي يقوم به المشرك هو نفس العمل الذي يقوم به المسلم، ولكن الذكر الحكيم سلب عن عمل المشرك حقّ التعمير، وأوكله إلى المسلم ولم يعتبر الأوّل وإنّما اعتبر الثاني وأقرّه واحترمه، وهذا يشير إلى الأصل الذي ذكرناه في عنوان البحث بأنّ الاعتبار إنّما هو بالنيّات والضمائر لا بالصور والظواهر.

٢ـ إنّ السجود من أعلى درجات الخضوع لدى عامّة الشعوب والأُمم فلو سجد إنسان عند باب الملك أو في حضرته عُدّ عمله عبادة وعُدّ من المشركين، ولكن الملائكة سَجَدوا لآدم ولم يُحسبوا من المشركين ولم يكن آدم قبلة (٢) بل كان مسجوداً له، ومع ذلك عدَّت الملائكة لأجل سجدتهم تلك عَبَدَة لله، وحُسِب إبليس العاصي من المذنبين، مع أنّ السجودين في كلا الموردين مُتّحدان صورةً وظاهراً، وشكلاً وقالباً.

١ـ التوبة: ١٧ـ١٨.

٢ـ وذلك أنّه لو كان آدم قبلة لما اعترض الشيطان على السجود له إذ لا يُشترط أن تكون القبلة أفضل من الساجد إنّما يُشترط كون المسجود له أفضل من الساجد في حين أنّ آدم لم يكن أفضل بنظر الشيطان.

٣ـ إنَّ القرآن يصرح بأنّ أبوي يوسف و إخوته سجدوا له حيث قال سبحانه: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَىٰ العَرْشِ وَخَرّوا لَهُ سُجَّداً وقَالَ يا أَبَتِ هَذا تَأويلُ رُؤيايَ مِنْ قَبْلُ قَد جَعَلَهَا رَبّي حَقّاً﴾ [١]. ولو كان مجرّد المشابهة كافياً في الحكم يلزم ـ معاذ الله ـ أن يكون سجودهم عبادة للبشر.

٤ـ إنّ الله سبحانه أمر بالخضوع أمام الوالدين وخفض الجناح لهما قال سبحانه: ﴿وَٱخْفِضْ لَهُما جَناحَ الذُّلِ مِنَ الرَّحمَةِ﴾ [٢]. ولو خفّض الإنسان جناح الذلّ لوالديه وقبّل أيديهما وأرجلهما لِما أنعمه والداهُ عليه كان مُثاباً.

ولكن لو قام بنفس العمل أمام الأصنام والأوثان عُدّ مُشركاً، مع أنّ صورة العملين واحدة ولو كان الملاك هو الظواهر لَحُكِمَ على العامِلَين بالكفر والشرك ولكن القرآن يعدّ فاعل الأوّل مؤمناً مُطيعاً والثاني عدوّاً لله ومشركاً به أعاذنا الله من الشرك.

٥ـ إنّ جميع المسلمين يطوفون في مناسك الحجّ بالبيت الذي ليس هو إلاّ حجراً وطيناً ويسعون بين الصفا والمروة وهما ليسا سوى جبلين قال سبحانه: ﴿وَلْيَطَّوفُوا بِالبَيتِ العَتِيقِ﴾ [٣]، وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الصَّفا والمَرْوَةَ مِنْ شَعائِرِ اللهِ فَمَنْ حَجّ البَيْتَ أَوْ ٱعْتَمَرَ فَلاَ جناحَ عَلَيْهِ أنْ يَطَّوفَ بِهِمَا﴾[٤].

١ـ يوسف: ١٠٠.

٢ـ الإسراء: ٢٤.

٣ـ الحجّ: ٢٥.

٤ـ البقرة: ١٥٨.

فإذا طاف المسلم حول هذا الحجر وهذا الطين كان عمله عملاً توحيديّاً، ولكن لو طافَ الكافرُ حول صنمِهِ المصنوعِ من الحجرِ والفلز عُدّ مُشركاً، ومثله السعيُ فلو سعى المسلمُ بين الجبلين لكان عمله تجسيداً للعبادةِ والتوحيدِ، ومظهراً لعمل امرأةٍ موحّدة ساعيةٍ بينَهما لِطلب الماء [1]، ولكن لو سعى المشرك بين صَنَمين أو جبلين إذا وضَعَ صَنَمَهما على الجبلين عُدّ مشركاً.

٦ــ المسلمون كلُّهم يستلمون الحجرَ الأسودَ في الحجّ، واستلامه من المستحبّات الأكيدة، وهذا العملُ من حيث الصورة لا يختلف عن عملِ المشركين تجاه أصنامهم في حين أنّ هذا العملَ يُعدّ في صورةٍ شركاً، وفي أُخرى عَمَلاً مُستحبّاً قام به سيّد الموحّدين والمؤمنين.

٧ــ إنّ تقديم الهدي وذبحَه في منى يُشبه من حيثُ الشكل عملَ المشركين حيث كانوا يذبحون القرابين في منى أمام أصنامهم وأوثانهم.

هذه الأُمور تحتّم علينا انتزاع قاعدةٍ أُصوليةٍ وهي أنَّ الملاك والاعتبار إنّما هو بالنياتِ والضمائر لا القُشور والظواهر، وإلاّ لما تجد فرقاً بين عَمَل المشرك والموحّد في هذه الصور وغيرها مما لم نذكره.

فالذي يكون حاجزاً بين العملين ومميّزاً لعَمَل المشرك عن عمل الموحّد هو نيّته وقصده وضميره، وحيث انّ النيّات والمقاصد مُختلفة يكون العمل تابعاً لها.

١ـ ونعني بها هاجر أُم إسماعيل.

ولهذا كان سجود الملائكة عملاً صحيحاً جائزاً لأنّها سجدت لآدم بما أنّه عبد من عباد الله ولكن المشرك حيث إنّه يسجد للأصنام بما أنّها آلهة صغيرة فُوِّض إليها مصير الإنسان أو تدبير الكون كلّه أو بعضه، يكون عمله شركاً ومحرّماً.

ومثله سجود يعقوب لولدِه.

وكذا خفض الولد الحنون جناحيه لوالديه فإنّ الولد حيث يقوم بهذا اتجاه والديه بما أنّهما بشران تحمّلا التعب الكثير لأجل تربيته في حين لم يكونا يملكان شيئاً من أسباب الحياة كما لا يعتقد الوالد بمثل هذا في حقّهما، كان عمله جائزاً مشروعاً، وهذا بخلاف المشرك فإنّه حيث يخفض جناحه للأصنام باعتقاد أنّها آلهة ذات قدرة ومشيئة مستقلّتين، وتعمل ما تشاء وتفعل ما تريد.

وبذلك نعرف البون الشاسع بين عمل الموحّد والمشرك.

كما أنّ هذا يدفعنا إلى استيعاب الأصل الأصيل وهو أنّ الملاك للقضاء على عمل، والمقياس للحكم بكونه توحيدياً أو لا، إنّما هو نيّة العامل وقصدُه وباعثه وحافزه.

فإذا كانت النيّة شركية كان العمل شركياً، وإذا لم تكن كذلك لم يكن العمل شركياً.

وإليك فيما يأتي ما يترتب على هذا الأصل من النتائج.

ما يترتّب على هذا الأصل:

إنّ الذي يترتّب على هذا الأصل هو أنّه ليس لنا أن نحتج بالآيات التي نزلت في حقّ المشركين، على حرمة التوسّل بالأنبياء ودعائهم والاستشفاع بهم بحجّة أنّ عمل المشرك والموحّد واحد شكلاً لما عرفت من بطلان ملاك الشكل بل الملاك في القضاء بأنّ هذا العمل توحيديٌّ أو شركيٌّ هو النيّات والضمائر التي ينبع منها العمل، وعلى هذا يسقط الاستدلال بالآيات التالية على حرمة التوسّل والاستغاثة.

١ـ ﴿وَأَنَّ المَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَداً﴾ (١).

٢ـ ﴿لَهُ دَعْوَةُ الحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ﴾ (٢).

٣ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبادٌ أَمْثالُكُمْ﴾ (٣).

٤ـ ﴿والَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمير﴾ (٤).

٥ـ ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِن دُونِهِ فَلاَ يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضّرِ عَنكُمْ وَلاَ تَحْوِيلاً﴾ (٥).

٦ـ ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبهِمُ الوَسِيلَةَ﴾ (٦).

١ـ الجن: ١٨.
٢ـ الرعد: ١٤.
٣ـ الأعراف: ١٩٤.
٤ـ فاطر: ١٣.
٥ـ الإسراء: ٥٦.
٦ـ الإسراء: ٥٧.

٧ـ ﴿وَلاَ تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ ما لاَ يَنْفَعُكَ وَلاَ يَضُـرّكَ﴾ [١].

٨ـ ﴿وَمَن أَضَلُّ مِمّنْ يَدْعُوا مِن دُونِ اللهِ مَن لاَيَسْتَجيبُ لَهُ إِلى يَوْم القِيامةِ﴾ [٢]

إذ مـن المعلـوم أنَّ إسراء الحكم في هـذه الآيـات النـاظـرة إلى أعمال المشركين تجاه أصنامهم وتعـديتها إلى المسلمين تتوقف على وحـدة الموضوع، واتّحاد الملاك ففي هذه الصورة تنطبق تلك الآيات على المسلمين أيضاً.

وأمّا إذا كان الموضـوع مُختلفاً، وكانت عقيـدة المسلمين في حقّ الأنبياء والأولياء، لا تُشبِـه عقيدة المشركين أبداً كـان الاستدلال بهذه الآيـات، أشبه بإسراء حكم من موضـوع إلى موضوع آخر لا يجمعهما جامـع قريب ولا بعيد إلاّ مجرّد المشابهة في لفظ الدعاء، والدعوة والنداء.

ولو أنّنا استعرضنا عقيدة المشركين في حقّ أوثانهم التي كانوا يتوسّلون بها، في ضوء القرآن الكريم لعرفنا أنّهم كانـوا يعتقدون بربوبية تلك الأوثان، وأنّها تملك تـدبير حيـاة البشر، أو تملـك شأنـاً من الشـؤون المرتبطـة بمصير الإنسان في الحياة الأُخـروية كالمغفرة والشفـاعة وكانوا يدعـون تلك الأوثان منطلقين من هذا الاعتقاد والتصوّر.

ولهذا اتّسمت دعوتهم بصبغة العبادة لأنّ من دعى كائناً، أو خضع له خضوعاً لسانياً أو جارحياً باعتقاد أنّـه يدبّر حياته أو يملك شأناً من شؤون مصيره كلاً أو بعضـاً، كان دعاؤه وخضوعـه هذا متّصفاً بالعبـادة وإن كان خضوعاً ضعيفاً وبسيطاً.

١ـ يونس: ١٠٦.

٢ـ الأحقاف: ٥.

وأمّا من دعى إنساناً باعتقاد أنّه عبد صالح من عباد الله، أكرمه الله سبحانه بالرسالة والنبوّة، أو بشيء من المقامات المعنوية من دون أن يعتقد بأنّه يملك المدعو شيئاً من تدبير حياة الإنسان، أو شيئاً من مصيره في الدنيا والآخرة، بل له مقامٌ رفيعٌ عند الله بحيث لو دعاه لأجابه، أو استشفع به شفّعه، لا يكون دعاؤه واستشفاعه عبادة لعدم وجود العنصر المقوّم للعبادة في هذا الدعاء والاستشفاع، بل يكون الدعاء مُردّداً بين أمرين: إمّا أن يُستجاب، أو لا يُستجاب، فأين هذا من عقيدة المشركين وتصوّرهم في حقّ معبوداتهم من الأوثان والأنجم أو من تمثّلها هذه الأوثان والأنجم.

ما يدلّ على عقيدة المشركين في معبوداتهم:

والذي يدل على عقيدة المشركين في حقّ معبوداتهم على النحو الذي أشرنا إليه وكيف أنّهم كانوا يُضفون عليها صفة الربوبية، أو يسندون إليها بعض شؤون الربّ هو ما يلي:

١ـ إبراهيم ـ عليه السلام ـ وقومه:

إنّ استعراض ما ورد في حقّ قوم إبراهيم في القرآن الكريم من الآيات التي أشارت إلى حوار الخليل ـ عليه السلام ـ مع معبوداتهم من الأجرام السماوية، يكشف القناع عن هذه الحقيقة، فإنّ هذه الآيات تكشف عن أنّ قوم إبراهيم كانوا يعتقدون بربوبية تلكم الأجرام، وليس الربّ إلاّ من يدبّر حياة المربوب تدبيراً خاصّاً، مثل ربّ الضيعة وربّ الإبل وربّ العمل، وربَّ البيت.

يقول الله تعالى: ﴿ فَلَمّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيلُ رَأىٰ كَوْكَباً قَال هذا رَبّي فَلَمّا أَفَلَ قَالَ لاَ أُحِبُّ الآفِلينَ * فَلَمّا رَأىٰ القَمَرَ بازِغاً قَالَ هذا ربّي فَلَمّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لمْ يهدِني رَبّي لأكُونَنّ مِنَ القَوْم الضالِينَ * فَلَمّا رأىٰ الشَّمْسَ بازِغَةً قَالَ هَذا رَبّي هَذا أكْبَرُ فَلَمّا أَفَلَتْ قَالَ يا قَوْم إِنّي بَرىءٌ مِمّا تُشرِكُونَ * إنّي وَجَّهْتُ وَجِهىَ للذِي فَطَرَ السّماواتِ والأرْضَ حَنيفاً وَمَا أنا مِنَ المُشْرِكينَ﴾ (١).

يُستفاد من هذه الآيات أنّهم كانوا يعتقدون بربوبية تلك الأجرام ولهذا وصفها إبراهيم بالربوبية في حواره معهم من باب المجاراة مع الخصم في النقاش والاستدلال ...

فهم بهذا الاعتقاد كانوا يتوجّهون بالطلب إلى تلك الأجرام السماوية، ويخضعون لها، ولم يكن خضوعهم خضوعاً مُطلقاً. ولهذا ساغ وصف عملهم ذاك بالعبادة ثمّ الشرك.

٢ـ عيسى ـ عليه السلام ـ وقومه:

لقد اعتقد النصارى في المسيح بالأُلوهية عندما لاحظوا طريقة ولادته العجيبة الخارقة للعادة، وشاهدوا وقوع الخوارق على يديه، ولهذا عَبَدوه، كما تُعبد الآلهة، فردّهم القرآن الكريم وصرّح بأنّ عيسى عبد من عباد الله سبحانه يعبده ويخضع له، وكيف يكون إلهاً حينئذٍ:

﴿لَنْ يَسْتَنكِفَ المَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْداً للهِ وَلاَ الملائِكَةُ المُقَرّبُونَ وَمَنْ

١ـ الأنعام: ٧٦ـ ٧٩.

يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾ [١].

٣ـ اتّخاذ الأحبار والرهبان أرباباً:

إنّ دراسة مواقف أهل الكتاب (أي اليهود والنصارى) في ضوء الكتاب العزيز يكشف عن أنّهم غالوا في إطاعة أحبارهم ورهبانهم حيث أعطوهم حقّ التحليل والتحريم وأطاعوهم في ذلك وهو من شؤونه وأفعاله سبحانه لا غير واعتقدوا بربوبيتهم ولو في هذا القسم الخاصّ، وهو الربوبيّة في التشريع.

قال سبحانه عنهم: **﴿اتّخذُواْ أحْبارَهُمْ وَرُهبانَهُمْ أَرْباباً مِنْ دُونِ الله وَالمسيحَ ابْنَ مريمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلهاً واحداً لا إِلـهَ إِلاَّ هُوَ سُبحانَهُ عَمّا يُشْرِكُونَ﴾** [٢].

روى الثعلبيُّ وهو من كبار علماء الحديث والتفسير في القرن الخامس في تفسيره بإسناده عن عديّ بن حاتم، قال: أتيتُ رسولَ الله وفي عُنُقي صليب من ذهب فقال لي: يا عُديّ إطرحْ هذا الوثن من عنقك.

قال: فطرحته ثمّ انتهيت إليه وهو يقرأ من سورة البراءة هذه الآية: **﴿اتّخذُوا أَحْبارَهُمْ وَرُهْبانَهُمْ أَرْباباً﴾** حتّى فرغ منها، فقلت له: إنّا لسنا نَعْبُدُهم.

قال: «أوَليس يُحرّمون ما أحلّ الله فتحرّمونه ويحلون ما حرّم الله

١ـ النساء: ١٧٢.

٢ـ التوبة: ٣١.

فتستحلونه»؟

قال: فقلت: بلى.

قال: «فتلك عبادتهم»[١].

وقد تضافرت عن أئمّة أهلِ البيتِ أحاديث كثيرةٌ في هذا المعنى وإليك بعض ما ورد عن طريقهم:

روى جابر بن عبد الله الأنصاري عن أبي عبد الله الصادق ـ عليه السلام ـ ، قال سألته عن قول الله: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبارَهُمْ ورُهْبانهم أَرباباً من دونِ اللهِ﴾ .

قال: «أما إنّهم لم يتّخذُوهم آلهة، إلاّ أنّهم أحلّوا حلالاً وأخذوا به، وحرّموا حراماً فأخذوا به، فكانوا أربابهم من دون الله»[٢].

وروي عن أبي جعفر الباقر ـ عليه السلام ـ في تفسير قوله: ﴿اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح ٱبن مريم﴾ أمّا المسيح فبعضٌ عظّموه في أنفسهم حتّى زعموا أنّه إله ، وأنّه ابنُ الله، وطائفةٌ منهم قالوا: ثالث ثلاثة، وطائفةٌ منهم قالوا: هو الله.

وأمّا قوله: : «أحبارهم ورهبانهم» فإنّهم أطاعوهم، وأخذوا بقولهم، واتبعوا ما أمروهم به، ودانوا بما دعوهم إليه، فاتّخذوهم أرباباً بطاعتهم لهم، وتركهم ما أمرَ الله وكتبه ورُسله، فنبذوه وراء ظهورهم، وما أمرهُمْ به الأحبار والرهبان اتّبعوه وأطاعوهم، وعَصوا اللهَ ورسوله، وإنّما ذُكِرَ هذا في كتابنا لكي

١ـ تفسير الثعلبي: مخطوط نقله عنه الطبرسي في مجمع البيان ٣: ٢٤.

٢ـ نور الثقلين ج٢: ٢٠٩ـ ٢١٠.

نتعظَ بهم، فعيّــر اللهُ تباركَ وتعــالى بني إسرائيل بما صَنعــوا، يقول الله تبـارك وتعالى: ﴿وَمَـا أُمِـرُوا إِلاّ لِيَعْبـُدُوا إِلَهاً واحِـداً لاَ إِلهَ إِلاَّ هُـوَ سُبْحـانَـهُ عَمّـا يُشرِكُونَ﴾ [١].

وروى أبو بصير قـال: سألت أبـا عبد الله ـعليه السلامـ عن قـول الله عزَّ وجلَّ: ﴿اتَّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ .

فقال: «أمـا والله ما دَعوهم إلى عبـادة أنفسهم، ولو دعـوهم إلى عبادة أنفسهم لما أجـابـوهم، ولكن أحلّـوا لهم حـرامـاً، وحرّمـوا عليهم حـلالاً، فَعَبَدُوهم من حيث لا يشعرون» [٢].

أي كانت طاعتهم لهم في ما أحلّوا ومـا حرّموا عبادة لهم، لأنّهم بذلك أعطـوا البشر شأنـاً من شـؤون الله سبحانـه الخاصّة بـه، وهـو حقّ التقنين والتشريع.

٤ـ أهل مكّة وأوّل صنم عبدوه:

جـاء في السيرة النبويـة لابن هشام أنّ «عَمـرو بن لُحيّ» كـان أوّلَ من أدخلَ الـوثنية إلى مكّـة ونواحيها، فقـد رأى في سفره إلى البلقـاء من أراضي الشام أُنـاساً يعبـدون الأوثان وعنـدما سألهم عمّــا يفعلون بقـوله: مـا هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟

قالوا: هذه أصنام نعبدها فَنَسْتَمْطِرُها فَتُمْطِرُنا ونَسْتَنْصِرُها فَتَنْصُرنا.

١ـ نور الثقلين ج٢: ٢٠٩ـ ٢١٠.

٢ـ الكافي ١:٢٧٥.

فقال لهم: أفلا تعطوني واحداً منها فأسير إلى أرض العرب فيعبدوه ؟!

ثمّ انّه استصحب معه إلى مكّة صنماً كبيراً يُدعى «هُبل» ووضعه على سطح الكعبة المشرّفة ودعا الناس إلى عبادته [١].

إنّ طلب المطر من هـذه الأوثان يكشف عن اعتقادهم بـأنّه كان لهذه الأصنام دخلٌ في تدبير شؤون الكون وحياة الإنسان.

٥ـ بقايا الاعتقاد بربوبية الأنجم:

لما أصاب المسلمين مطر في الحديبية لم يبـل أسفل نعالهم (أي ليـلاً) فأمـر رسول الله ﷺ منـاديه أن ينـادي: ألا صَلّوا في رحـالكم، وقـال ﷺ صبيحة ليلة الحديبية لمّـا صلّـى بهم: «أتـدرون ما قالَ ربُّكم» ؟ قـالوا: اللهُ ورسوله أعلم.

قال: قال الله عزّ وجلّ: «أصبَحَ من عبادي مؤمنٌ بي وكافرٌ، فأمّا مَن قال: مُطِرنـا برحمةِ اللهِ وفضلِهِ فهو مؤمـنٌ باللهِ وكافرٌ بالكـواكبِ، ومن قال: مُطِرنـا بِنَجْمِ كذا (وفي رواية بنـوء كذا وكذا) فهو مـؤمن بالكواكب وكـافر بي» [٢].

إنّ هـذا النصّ يـدلّ على أنّ العـرب الجاهليين ـ بعضهـم أو كلّهم ـ

١ـ السيرة النبوية ١: ٧٩.

٢ـ السيرة الحلبية ٣: ٢٥ ، قال النبيّ ﷺ هذا في الرد على من اعتقد بأنّ المطـر كان من جانب نجم خاص كانوا في الجاهلية يعتقدون أنّه مدبر شؤون المطر وكانت بعض رواسب هذه العقيدة باقية في عقول بعض المسلمين.

كانوا يعتقدون في الأنجم التي يتوجّهون إليها بالطلب، بالربوبية ويعتقدون بأنّها تملك شأناً من شؤون حياتهم كالأمطار.

ولهذا ندّدت الآيات القرآنية الكثيرة باعتقاد المشركين هذا، ونَفَت أن يملك أيّ واحد من هذه المعبودات المُزيّفة التي كانت رائجة في الأوساط الجاهلية شيئاً من شؤون التدبير والربوبية أو شأناً من شؤون الإنسان فيما يتعلّق بمسيره أو مصيره.

وإليك طائفة من هذه الآيات:

الآيات المندّدة باعتقاد المشركين:

قال الله تعالى في كتابه الكريم عن الأوثان والأصنام والأنجم والكواكب أو مَن تُمَثّلهم هذه الأوثان والأصنام من معبودات المشركين:

١ـ ﴿وَاتَّخَذوا مِن دُونِه ءَالهة لا يَخْلُقُون شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ وَلاَ يَمْلِكُونَ لأَنْفُسِهِمْ ضَرّاً ولاَ نَفْعاً وَلاَ يَمْلِكُونَ مَوْتاً وَلاَ حَياةً ولا نُشُوراً﴾ (١).

٢ـ ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ لاَ يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقاً﴾ (٢).

٣ـ ﴿قُل أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لاَ يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرّاً وَلاَ نَفْعاً﴾ (٣).

١ـ الفرقان: ٣.

٢ـ العنكبوت: ١٧.

٣ـ المائدة: ٧٦.

٤ـ ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ﴾[١].

٥ـ ﴿قُلْ أَوَلَوْ كَانُوا لَا يَمْلِكُونَ شَيْئاً وَلَا يَعْقِلُونَ﴾[٢].

٦ـ ﴿وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ﴾[٣].

٧ـ ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنكُمْ وَلَا تَحْوِيلاً﴾[٤].

٨ـ ﴿قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِن ظَهِيرٍ﴾[٥].

من هذه الآيات يتّضح أمران:

١ـ أنّ المشركين كانوا يعتقدون في معبوداتهم أنّها تملك شيئاً من الأُمور التالية كلّها أو بعضها: الحياة والموت والنشور والضر والنفع والرزق والشفاعة، حيث صرّحت هذه الآيات بأنّ هذه المعبودات الباطلة لا تملك شيئاً من هذه الأُمور بل لا تملك شيئاً، بل ولا ذرّة في السماء ولا في الأرض، ولا هي شريكةٌ في ذلك بل لا تملك من قطمير.

٢ـ أنَّ مقوّم العبادة هو أن يعتقد الإنسان في من يخضع له أو يطلبُ

١ـ فاطر: ١٣.

٢ـ الزمر: ٤٣.

٣ـ الزخرف: ٨٦.

٤ـ الإسراء: ٥٦.

٥ـ سبأ: ٢٢.

منه شيئاً أنّه يملك [١] شأناً من شؤون حياة الإنسان كالحياة أو الموت أو النشور أو الضرّ أو النفع أو الرزق أو يملك شأناً من شؤونه سبحانه، وإن لم تمت إلى الحياة بصلة كالمغفرة والشفاعة.

ويؤيّد هذا أنّ الله أمر نبيّه بأن يقول للمشركين بأنّه إنّما يعبد الذي يملك هذه الشؤون لا من لا يملكها، وأن ينهاهم عن عبادة من لا يخلق ولا يرزق ولا يضر ولا ينفع، ولا يملك شأناً من شؤون الربوبية، يقول سبحانه: ﴿إنْ كُنتُمْ في شَكٍّ مِن ديني فَلا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللهَ الَّذِي يَتَوفّاكُمْ﴾ [٢].

﴿وَمَالِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَني وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [٣].

﴿يَا أيهُّا النَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [٤].

﴿ذَلِكَ اللهُ رَبّكُمْ لاَ إِله إِلاَّ هُوَ خَالِقُ كُلّ شَيْء فٱعْبُدُوهُ﴾ [٥].

لقد كانت هذه العقائد الباطلة (أي الاعتقاد بمالكية الأصنام وغيرها من معبودات المشركين لشؤون التدبير في شتّى مراتبه الكاملة والمتوسطة والجزئية) متغلغلة في نفوس المشركين وأوساطهم، وكان أضعفها هو الاعتقاد بأنّ هذا الصنم أو ذاك يملك الشفاعة والمغفرة.

وممّا يؤيّد أنَّ خضوع المشركين أمام معبوداتهم كان مزيجاً باعتقاد كونهم

١ـ ومعنى يملك أنّه يستقل به ويقوم به من دون إذن من أحد.

٢ـ يونس: ١٠٤.

٣ـ يس: ٢٢.

٤ـ البقرة: ٢١.

٥ـ الأنعام: ١٠٢.

آلهةً صغاراً أو أرباباً وموجودات تملك شؤون الربّ كلّها أو بعضها، أنّهم كانوا يصفونها بأنّها أندادٌ لله سبحانه، قال: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللهِ أنْداداً يُحِبّونَهم كَحُبِّ اللهِ﴾ (١).

ولما زعموا أنّ معبوداتهم المصطنعة تضرُّهم وتنفعهم وتملك شيئاً من مصيرهم كالشفاعة والمغفرة عادوا يحبّونها كحبّ الله.

ويقول سبحانه: إنّ المشركين كانوا يُسوُّونَ آلهَتَهم برب العالمين قال: ﴿ تَاللهِ إن كُنَّا لَفِي ضَلالٍ مُبين* إذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ العالَمينَ﴾ (٢).

والمراد من التسوية هي التسوية في شؤون الربّ جلّها أو بعضها غير الخالقية، فقد اتَّفقت كلمةُ المشركين في أُم القُرى وغيرها على كونها من شؤون الواجب جلَّ ذكرهُ (٣).

وأمّا التسوية في العبادة فكان من نتائج ذلك الاعتقاد، فإنّ العبادة خضوعٌ من الانسان لمعبوده، ولا يتحقّق مثل ذلك الخضوع إلاّ أن يكون هناك إحساس من صميم ذاته بأنّ المعبود يملك شؤونه في آجله وعاجله.

وكان المشركون في ظلّ هذه العقيدة يسوُّون أصنامهم بربّ العالمين، وبالتالي يعبدونها.

وليس المراد من التسوية، التسوية في العبادة، لأنَّ المشركين المتواجدين في عصر الرسول كانوا لا يعبُدُون إلاّ الأصنام، لا أنّهم كانوا يعبدون اللهُ

١ـ البقرة: ١٦٥.

٢ـ الشعراء: ٩٧ ـ ٩٨.

٣ـ لاحظ قوله: ﴿ولئن سألتهم من خلق السماوات ... قالوا ...﴾ .

سبحانه وغيره من الأصنام.

وتؤيّده آيات سورة «الكافرون» قال سبحانه: ﴿**قُلْ يا أيّها الكافِرون**...﴾ فكان هناك عبادتان ومعبودان أحدهما يختصّ بالنبيّ، والآخر بالمشركين، لا أنّ المشركين كانوا يعبدون اللهَ والأصنام معاً، نعم كانوا يعبدُون الأصنامَ لَغرضَ التقرّب بها إلى الله.

فإذا كانت عقائد المشركين متَّسمةً بهذه السّمات، كان التنديد بها لأجل هذه الجهة، وكان دعاؤهم ونداؤهم مُتّصفاً بصفة العبادة لوجود هذا العنصر، ولاعتقاد مثل هذه الصفة في الأوثان ومن تمثّلهم.

فهل من الإنصاف أن يحكم أحدٌ على المسلمين الموحّدين المعتقدين بعبودية الأنبياء والأولياء، وعدم ملكيتهم لشيء أو شأن إلاّ باذن الله سبحانه وعدم إمكانهم على القيام بطلب الشفاعة إلاّ من بعد أن يؤذن لهم، بأنّهم مشركون؟!

حصيلة البحث:

إنّ العبرة في القضاء والحكم إنّما هو بحقائق الأعمال لا صورها، ومن أظلم حكماً ممّن حكم على أُمّة النبيّ الأكرم بالشرك في العبادة بحجّة:

أنَّ المشركين كانوا يتوسّلون بأصنامهم، وهؤلاء أيضاً يتوسّلون بنبيّهم.

وأنَّ المشركين كانوا يدعون معبوداتهم ويستغيثون بها، وهؤلاء أيضاً يدعون نبيّهم ويستغيثون به.

وأنَّ المشركين كانوا يطلبون الشفاعة من آلهتهم، وهؤلاء أيضاً يطلبونها من أوليائهم.

وأنَّ المشركين كانوا يقرّبون النذور لآلهتهم، وهؤلاء أيضاً يقدّمون النذور لهم.

وأنَّ المشركين يحلفون باللات والعزى، وهؤلاء أيضاً يحلفون بالنبيّ والقرآن والكعبة إلى غير ذلك من وجوه المشاركة والمشابهة التي ليست بمجرّدها عماداً للقضاء ولا سنداً في الحكم، وإلاّ لم يبق على أديمِ الأرضِ من يمكن إدراج نفسه في ديوان الموحدين، لمشابهة أكثر أعمال المسلمين لأعمال المشركين في الأشكال والظواهر والهيئات والصور.

٧

الأنبياء والأولياء والقدرة الغيبية المأذونة

- ❑ رجال رفعتهم العبادة الخالصة.
- ❑ صاحب موسى والأعمال الخارقة.
- ❑ أصحاب سليمان والأعمال الخارقة.
- ❑ سليمان بن داود والقدرة الغيبية.
- ❑ المسيح والسلطة الغيبية.
- ❑ ما يترتّب على هذا الأصل.

رجال رفعتهم العبادة الخالصة:

إنّ لله سبحانه رجالاً مُصطفين، يُستدرّ بهم الغمامُ، ويندر أمثالهم في الدهر، وهم مُثُل للفضيلة والإخلاص، وخزنة للعلم والأسرار، قد منحهم الله سبحانه من سابق علمه، واستأمنهم على غامض علومه، ممّا لا يقوى على احتماله غيرهم، فجمعوا العلم، سرَّه وجهره، وحازوا من الفضائل، نفسيّها وخلقيّها، وبلغوا القمّة في العبادة قوليّها وعمليّها جارحيّها وجانحيّها، وأخذوا عنه سبحانه أسرار العلم وجواهر الحكمة حتّى زكت نفوسهم،

وكادوا أن يزاحموا الملائكة المقرّبين.

وفي حقّهم يقول أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ:

«ما برح لله، عزّت آلاؤه، في البرهة بعد البرهة وفي أزمان الفترات عبادٌ ناجاهُم في فِكرهم وكلّمهم في ذات عقولهم»(١).

أجل إنّ الإيمان المحض والعبودية الخالصة، يرفعان بالإنسان إلى درجة يستطيع معها صاحبها أن يتصرّف في الكون إذا أراد بإذن الله سبحانه، ويخرق القوانين الطبيعيّة بمشيئته تعالى. ولقد بيّن الذكر الحكيم بعض أعمالهم وأفعالهم التي تُبهر العقول وتدهش العيون، وهم بين نبيّ اصطفاه الله سبحانه لهداية الناس ومدّه بالبيّنات، وزوّده بالمعجزات، ورجلٍ صالح مخلص لا يُدرَك له شأوٌ ولا يُشقُّ له غبار، وهم وإن لم يكونوا بأنبياء ولكن يغبطهم بعض الأنبياء، على منازلهم، ومقاماتهم.

وها هو علي ـ عليه السلام ـ يُعرّفهم بقوله:

«هَجَمَ بهم العلمُ على حقيقةِ البصيرة، وباشَروا روحَ اليقين، واستلانُوا ما استوعَره المترَفون، وأنِسوا بما استوحَشَ منه الجاهلُون وصَحبوا الدُنيا بأبدانٍ أرواحُها معلّقةٌ بالمحلِّ الأعلى، أُولئكَ خُلفاءُ الله في أرضه والدعاة إلى دينه»(٢).

إنّ هؤلاء الأبدال قد مُنحوا هذه المنزلة الرفيعة بفضل العبوديّة وسلوك سبيل الطاعة، فعلِمُوا بما لم يعلم به الناس، ووقفوا على علم الحوادث

١ـ نهج البلاغة، الخطبة: ٢١٧.

٢ـ المصدر نفسه: قصار الحكم: ١٤٧.

والوقـائع التي يُبتلى بها الناس، وتصرّفوا في الكون تصرّفـاً بديعاً خـارجاً عن السنن العادية إلى غير ذلك مما لهم من المثل والفضائل.

إنّ العبادة التي يتصوّر أكثر النـاس أنّ آثارها تنحصر في دفع العذاب والعقاب وجلب الثـواب، تمنح النفسَ قدرةً عظيمةً يكون بها صـاحبها مَثَلاً لله سبحانه، ولله المثلُ الأعلى، وتعالى عن الندّ والمثل.

إنّ سلوك طريق العبودية والانتهاء عن المحرّمات والالتزام بالواجبات والمستحبّات، والإخـلاص في القول والعمل ذو أثر عظيم وعميق في تـزويد النفس بقدرة خـاصّة خارقة للقـوانين والسنن الكونية لأهدافٍ عـاليةٍ، وإلى هذا يشير الحديث القدسي: «ما تَقـرّبَ إليّ عبدٌ بشيء أحبُّ إليَّ ممّا افترضتُ عليه، وأنّـه ليتقرّبُ إليّ بـالنافلـة فإذا أحببتهُ، كنتُ سمعَـه الذي يسمـعَ به، وبصرَهُ الـذي يُبصر به، ولسـانَهُ الـذي ينطِق بـه، ويدَه التـي يبطش بها، إن دعاني أجبتُه، وإن سألني أعطيتُه»[1].

فكم في المؤمنين بالله من ذوي الرُتب العلوية، رجال وأبدال شملتهم العنايـة الإلهية، فجرّدوا أنفسهم عـن أبدانهم، حينما أرادوا معاينـة الحقائق، واطّلعـوا على الأسرار، على غـرار اطّـلاع يعقـوب على مصير ابنـه، واطّـلاع يوسف على الغامض من حياة صاحبيه في السجن.

وهـا هنا نعـرّف ببعـض من وصل إلى ذلـك المقام على ضـوء القـرآن الكريم:

---

١ ـ الوسائل: ج٣، الباب ١٧ من أبواب اعداد الفرائض برقم ٦.

١ـ صاحب موسى ـ عليه السلام ـ وأعمالهُ الخارقة:

إنّ الذكر الحكيم يتعرّض لذكر عبدٍ من عباد الله أعطاهُ الله سبحانه رحمةً من عنده وعلّمهُ من لدنه علماً، وبلغ في العلم إلى درجة أنّ كليم الله ـ عليه السلام ـ طَلَبَ منه أن يتّبعه حتّى يعلّمه مما عَلِمَ ويسترشد برشده، ولكنّه رفض ذلك قائلاً: بأنّه لا يستطيع معه صبراً وكيف يصبر على ما لم يحط به خبراً. غير أنّ الكليم أصرَّ على التبعية والمصاحبة، ووعده بأن يجده صابراً ولا يعصي له حكماً. غير أنّ ذلك العبد الصالح اشترط عليه بأنّه إن رأى منه فعلاً عجيباً لا يسأله عن سببه حتّى يكون هو الذي يشرح له.

فركبا في السفينة، فخرق ذلك العبدُ الصالح السفينة من دون سبب ظاهر فاستولت الوحشة على موسى فقال له معترضاً: ﴿**أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً**﴾ ، فأجابه بأنّه قد خالف ما أخذه عليه من الشرط.

فلما نزلا من السفينة لقيا غلاماً فقتله ذلك الرجلُ من دون جُرم بيّن واستولت على موسى الدهشة ثانية، وقال: ﴿**أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُكْراً**﴾ ، فأجابه بما قاله له في المرة الأُولى.

ثمّ إنّهما أتيا قريةً واستطعما أهلها، فأبوا أن يضيّفُوهُما فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقضَّ ويتهاوى فأقامه من دون أُجرة فاعترض عليه موسى بقوله: ﴿**لَوْ شِئْتَ لاتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أجْراً**﴾ ، فقال المُصاحَبُ: ﴿**هَذا فِراقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِئُكَ بِتَأْويلِ مَا لمْ تَسْتَطِع عَلَيْهِ صَبْراً**﴾ [1].

١ـ الكهف: ٦٠ ـ ٨٢.

ثم أخذ المصاحَبُ يشرح أسرار أفعاله وقال: أمّا خرقُ السفينة فلأجل أنّها كانت لمساكين، وكان أمامَهم ملكٌ يأخذ كلَّ سفينة غصباً فأردتُ أن أعيبها حتّى لا يطمع بها.

وأمّا قتل الغلام فكان أبواه مؤمنين فعلمت أنّه إن بقي يغشى أبويه طغياناً وكفراً، ويحملهما عليهما، فأراد ربُّهما أن يهب لهما ولداً خيراً منه ديناً وطهارةً وأرحم بهما.

وأمّا إقامة الجدار فلأنّه كان لغلامين يتيمين في المدينة وكان تحته كنزٌ مذخورٌ فأراد سبحانه أن يبلغا أشدَّهما ويستخرجا كنزهما رحمةً من ربّك.

ثمّ أضاف بأنّ ما فعله لم يكن من قِبَلِ نفسه بل بأمر الله سبحانه.

هذا هو صاحب موسى فما هو اسمه ومن هو؟ انّه غير معلوم على وجه اليقين، ولكن شخصيّته القوية ومنزلته السامية لائحة من أفعاله البديعة فهي تعرب:

أوّلاً: عن أنّه كان عالماً بعلم المنايا والبلايا، وعلم الآجال والحوادث.

وكان يعلم علماً قطعيّاً بأنّ أمام السفينة ملكٌ يأخذ كل سفينة غصباً وأنّ السفينة لو أصبحت معيبةً لا يطمع بها.

كما كان يعلم بأنّ الولَدَ لو بَلغَ أشدَّه، هجر الوالدين إلى الكفر والطغيان، وأنّه لو قَتَلهُ لعوَّض عنه ولداً باراً بوالديه.

كما أنّه وقف على أنّ تحت الجدار مالاً مذخوراً وأنّه لو وقَعَ الجدارُ ظهر ذلك المال واستولى عليه الناس وانّه لو أقام الجدار يبقى مدة يبلغ فيها

الغلامان أشدهما ويستخرجان كنزهما.

وأيّ علم أعلى وأرفع من علوم هذا العبد الصالح الذي لا تحيط بها المقاييس والموازين.

فلو قال رجلٌ مسلمٌ بأنَّ بين عباد الله سبحانه رجالاً صالحين هم خزنةٌ للعلم والأسرار يرون ما وراء الحجب ويقفون على الحوادث والآجال بإذنه سبحانه وتعليمه فإنّما يريدون مثل هذا، لا غير.

وأمّا العلم بالمغيّبات من دون اكتساب ولا تحصيلٍ من مصدر أعلى فإنّما هو يختص بالله سبحانه فهو عالم الغيب والشهادة بلا تعليم وكسب، فأين المتناهي من اللامتناهي؟ وأين الممكن من الواجب؟ وأين الفقير من الغني؟ وأين المتعلّم من العالم بالذات، إذن فلا يلزم من نسبة التعرّف على الغيب في موارد خاصة، وعلى نحو الاكتساب إشراك العبد مع الربّ، والفقير مع الغنيّ تعالى: ﴿فَمَا لِهَؤُلاَءِ الْقَوْمِ لاَ يَفْقَهُونَ حَدِيثاً﴾ .

وثانياً: أنّ ما قام به صاحب موسى من الأعمال البديعة تعرب عن كونه ذا قدرة متصرّفة في عالم التكوين على وجه لا يراه من صاحبه وجاوره فها هو خرق السفينة أمام أعين صاحبها وركّابها ولم يره أحد.

فقد تصرّف في العيون والأبصار على وجه لم يقفوا معه على فِعلِه، ليحولوا بينه وبين ما يريد.

كما أنّه قَتَلَ غلاماً في الطريق وبنى الجدار ولم يعرف بفعله أحدٌ.

وما هذا إلاّ دليل بارز على قدرته على التصرّف في الأبصار والأنظار.

وثالثاً: أنّ لله سبحانه أولياء مستورين لا يعرفهم أحدٌ حتّى المقرّبين من أنبيائهم وأُولي العزم منهم، فتصل ألطافهم إلى الناس بدون أن يطّلعوا على فاعلها ومصدرها.

هذه دراسة تحليلية إجمالية للقصة وما يستفاد منها من حقائق وأسرار.

٢ـ أصحاب سليمان والأعمال الخارقة:

إنّ القرآن يثبت لحواريّ سليمان قدرةً غيبيةً مكّنته من إحضار عرش ملكة «سبأ» من اليمن إلى فلسطين قبل أن ينفضّ مجلسه قال سبحانه: **﴿قَالَ يَا أَيُّها المَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ * قَالَ عِفْريتٌ مِنَ الْجِنّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَقَامِكَ وَإِنّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ﴾**[1].

بل ومكّنت شخصاً آخر من حاشيته من أن يجلب له العرش في أقل من طرفة عين إذ قال: **﴿قالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِنَ الكِتابِ أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِراً عِندَهُ قَالَ هَذا مِن فَضْلِ رَبّى﴾**[2].

فما هذا العلم الذي يحمله قائلُ هذا القول؟ **﴿أَنَاْ ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾** .

هل المراد هو العلم بِطُرقِ الأعمال الخارقةِ للعادة أو غيره؟

وعلى كل تقدير فهذا العلم ليس من سنخ العلوم الفكرية التي يتم

١ـ النمل: ٣٨ـ ٣٩.

٢ـ النمل: ٤٠.

اكتسابها وتعلّمها بالطرق العادية المتعارفة بشهادة أنّ علمه هذا كان جزءاً من كتاب خاص معهود يختلف عن بقيّة الكتب على حدّ تعبير الآية الشريفة.

وعلى كلّ تقديرٍ فقد كان قادراً على الإتيان بهذا العمل، إمّا لامتلاكه قدرةً على الإتيان به بإذن الله سبحانه كقدرته على إتيان الأعمال الاعتيادية، أو لأنّه كان على قَدَر عظيم من الارتباط بالله سبحانه بحيث إذا سأل شيئاً لم يتخلّف عن إجابته.

٣ـ سليمان والسلطة الغيبية:

ويشير القرآن كذلك إلى وجود سلطةٍ خارقةٍ لسليمان ـ عليه السلام ـ في مواضع من سور الذكر الحكيم، فقد حكت آيات عن:

١ـ امتلاكه سلطةً نافذةً على معاشر الإنس والجنّ وأنواع الطير حتّى أنّها عُدّت من جنوده وعساكره: **﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الجِنّ والإنسِ والطَّيْرِ﴾** [1].

٢ـ إنّه بلغ في نفوذ سلطانه على كائنات عالم الحيوانات أنّه كان يحادثُهم ويتوعّدهم وينذرهم بصرامةٍ ويأمرُهم بما يشاء: **﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَالِيَ لاَ أَرَىٰ الهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الغائِبِينَ * لأعَذِّبَنَّهُ عَذاباً شَدِيداً أَوْ لأذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنّي بِسُلْطَانٍ مُبين﴾** [2].

١ـ النمل: ١٧.

٢ـ النمل: ٢٠ ـ ٢١.

٣ـ أنّـه فرض سلطتـه وسيطرته التـامّة على الجنّ فكـانوا رهنَ إشـارته وطوع أوامرِهِ يمتثلون ما يسنّـه لهم ويأمرهم به: ﴿وَمِنَ الجنّ مَن يَعْمَلُ بَيْـنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ ... يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ﴾ (١).

٤ـ أنّه فرض سلطته على الريح فكانت تتحرك في الفضاء حسب أمره ونهيه: ﴿وَلِسُلَيْمانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِ﴾ (٢).

فأيّ سلطة أعظمُ من هذه السلطة على الكون التي كانت لسليمان ـ عليه السلام ـ والجدير بـالذكـر أنّ بعضَ الآيـات صريحةٌ في أنّ الريح كـانت تجري بأمره، فسليمان النبـيّ بَلَغَ من المنزلة والمكـانةِ حدّاً، صار الكـونُ معها رهن إشارته وطوع أمره؟

٤ـ المسيح والسلطة الغيبيّة:

بَعَثَ اللهُ سبحانه المسيح عيسى بن مريم نبيّاً إلى بني إسرائيل ومنح له من القدرة ذكرتها جملة الآيات التالية:

﴿أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْـر فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْـراً بِإِذْنِ اللهِ وَأُبْرِئُ الأَكْمَهَ والأَبْرَص وَأُحْيِى المَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَـا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذٰلِكَ لآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنتُمْ مُؤمِنِينَ﴾ (٣).

والجدير بـالذكـر أنّ الله يسند هذه الأعمال إلى نفـس شخص المسيح

١ـ سبأ: ١٢ـ١٣.

٢ـ الأنبياء: ٨١.

٣ـ آل عمران: ٤٩.

ولكن مقيّدةً بإذن الله. ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الأَكْمَه والأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ المَوْتَىٰ بِإِذْنِي﴾ (١).

سبحان الله ما أكثر صراحة هذا الكلام من المسيح ـ عليه السلام ـ في إثبات السلطة الغيبية المأذونة المحدودة الفعّالة لغايات إلٰهيّة حيث قال: ﴿أخلُقُ ـ أُبرِئُ ـ أُحْيي﴾.

أفبعدَ هذه التصريحات يمكنُ أن يَشُكَ الإنسانُ في أنّ للمخلصين من عباد الله سلطة غيبيـة؟ كيف وللمحقّقين المفسّـرين في جملة تلك الآيـات بيانات شافية تؤكّد هذه الحقيقة من أراد الوقوف عليها فليرجع إلى مظانها.

ومن طـالع الذكـر الحكيم يجد أنّ هناك آيـات أُخرى تثبت لـلأنبياء والصالحين قدرة غيبيّـة بارزة، فعلى سبيل المثال اقرأ سورة يُـوسف وتدبّر في آياتها وأنّـه كيف تمكّن من التعرّف على مصير صـاحبيه في السجن وأخبرهما بأنّ أحدهما يسقي ربّه خمراً وأنّ الآخر يُصلب وتأكل الطير من رأسه؟

وكيف أنّه وقـف على مصير شعب مصر وما سيعانـونه في سنين كثيرة تمرّ عليهم، وكيف أنّه تـأتي سبعةُ أعوام خصبة ثمّ تليهـا سبعُ سنين يعمّ فيها القحط والشدّة إلى آخر ما جاء في تلك السورة.

بل أرسل قميصه إلى أبيه وقال بأنّه لو ألقاه على وجهه لأتاه بصيراً (٢).

أفهل يمكن الحصول على هذه العلوم عن طريق التعليم والتعلّم؟

١ـ المائدة: ١١٠.

٢ـ لاحظ سورة يوسف الآيات: ٣٦، ٤٧، ٩٣.

أم هل يمكن أن يقول بأنّه لم يكن لإرادة يُوسف في عودة البصر لأبيه أيّ تأثير؟

كل هذه الحقائق والوقائع تبيّن لنا منزلة الأنبياء والأولياء عند الله تبارك وتعالى، وبذلك نقف على قيمة ما كتبه الشيخ المودودي، حيث يقول: «صفوة القول أنّ التصوّر الذي لأجله يدعو الإنسان الإله ويستغيثه ويتضرّع إليه، هو لا جرم تصوّر كونه مالكاً للسلطة المهيمنة على قوانين الطبيعة وللقوى الخارجة عن دائرة نفوذ قوانين الطبيعة».

فإنّه يلاحظ عليه: أنّ الاعتقاد بالسلطة الغيبيّة الخارجة عن إطار السنن الطبيعية لا يُوجب الاعتقاد بالأُلوهيّة حتماً.

بل إنَّ السلطة حتّى على الكون بأجمعه ـ فضلاً عن بعضه ـ إذا كانت بإخطار الله تعالى وبإذن منه ـ لا تلازم الأُلوهيّة.

فكما أنّ الله أعطى لآحاد الإنسان قدرةً محدودةً في أُمورهم العاديّة وفضّلَ بعضهم على بعض في تلك القدرة، فكذلك لا مانع من أن يعطي لفرد أو أفراد من خيار عباده، قدرةً تامةً نافذةً على جميع جوانب الكون عادية أو غير عادية، وذلك بنفسه لا يستلزم الأُلوهيّة.

نعم إنّ الذي ينبغي أن يدور حوله البحث هو وجود تلك القدرة، وأنّه سبحانه هل أعطاها لأحد أو لا؟

وقد صرّح القرآن بذلك في عدّة موارد منها على ما عرفت في حقّ بعض الأنبياء والصالحين.

فـالحقّ أنّ السلطـة الغيبيّـة التي أعطـاهـا الله سبحانـه لخيـار عبـاده ليتصرّفـوا بها في الكون بإذنـه ومشيئته ويخرقـوا بها قوانين الطبيعـة في مجالات خاصّـة لا تستلزم الاعتقاد بـوجودها في أحـد، الاعتقاد بأُلوهيتـه، ولا يكون صاحب مثل هذه السلطة ندّاً وشريكاً لله سبحـانه ولا يلزم منه مساواته بالله سبحانه.

نعم، الاعتقاد بالسلطة الغيبيّة «المفـوَّضة» والتي يتصرّف بها صاحبها في الطبيعـة من دون حـاجـة إلى إذن الله سبحـانـه هـو الموجـب لـلاعتقـاد بالأُلـوهية، وقد قال سبحـانه: ﴿وَمَـا كَانَ لِـرَسُـولٍ أَن يَأْتِىَ بِـآيَـةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ﴾ [١].

كما وأنّ الذكر الحكيم يثبت للملائكة قدرةً خارقةً من قبض الأرواح، وإهـلاك الأُمم، ويثبـت للنبيّ الأعظـم ﷺ كون صـلاته موجبـة لسكون الأرواح والقلـوب، يقـول سبحـانـه: ﴿وَصَـلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَـلاتَكَ سَكَـنٌ لَهُمْ﴾ [٢].

ما يترتّب على هذا الأصل:

ويترتّب على الأصل:

١ـ إنّ الاعتقاد بأنّ الله سبحانه يـدفع عن الإنسان الضرّ أو يجلب إليه النفع في ظلّ دعـاء النبيّ، في الدنيـا والآخرة، ليس شركـاً لأنّه لـو كان ﷺ

١ـ الرعد: ٣٨.

٢ـ التوبة: ١٠٣.

مستجاب الدعوة، يكون الداعي إيّـاه الطالب منه محقّاً في طلبه، ولو لم يكن كذلك يكون الطلب لغواً لا شركاً.

وعلى كلا التقـديريـن فإنّ الداعـي أو الطالب يـرى أنّ الأمر بيـد الله سبحانـه، وأنّ دعاء النبيّ سببٌ من الأسبـاب، فكما أنّ الإنسان يلتجىء في الأُمور الدنيوية والأُخروية إلى أسبـاب نجاحه، ولا يعدّ ذلك شركاً وخروجاً عن جـادة التوحيـد، فهكذا إذا لجأ إلى دعـاء النبيّ معتقـداً بأنّه سبـب من أسباب نجاح مطلبه وحاجته.

٢ـ إنّ طلـب برء المريض من الأنبيـاء وردّ الضالة وقضـاء الحاجة لا يكون شركـاً، سواء كان في حـال حياة النبيّ أو في حال ممـاته لأنّه لا يـزيد ذلك على طلـب برء المريـض من المسيح أو طلـب إحياء الموتـى منه، وهـو حسب نفس الأمر لا يخلو من حالتين، بين قادر وعاجز.

فعلى الأوّل يحظى الطلب بالتنجيز والتحقّق إذا توفّرت الشرائط.

وعلى الثاني يكون لغواً.

وإلى ذلك يشير السيّد الأمين في قصيدة له حيث يقول:

إن كـــان ليس بقـــادرٍ في زعمِكُــمْ   فيكـون مثـلَ ســؤال مشي المقعَـدِ
أو كانَ يقـدرُ وهو أصـوبُ لم يكنْ   شِركـــاً وليس مـــريـدُه بمفنَّـــدِ [1]

إنّ عدّ طلب الأُمـور الخارقة للعادة، مـن الشرك في العبادة، مبنيٌ على

١ـ العقود الدرّية: ٢٠٣.

عدم وضع حدّ منطقي يُميَّز به فعل الله سبحانه عن فعل عباده.

فربّما يُتخيَّل أنّ الميزان هو كون الفعل الخارق للعادة، فعلهُ سبحانه، والموافق للعادة هو فعل عباده، مع أنّ هذا التعريف غير صحيح أبداً لما عرفت من أنَّ مَن طلب حاجة من حيٍّ وإن كان جارياً على وفق العادة، وتصوّر أنّه يقوم به مستقلاّ ً وبحول وقوّة ذاتيتين، فقد زعم أنّه إلٰه ويكون طلبه عبادة له، وإنّما الميزان كونُ الفاعل إنّما يفعل ما يفعل بحول وقوّة نابعة من نفسه أو بحولٍ مُكتسب وقوّةٍ مأذونة، فيكون في الأوّل ملازماً لأُلوهيته وربوبيته، وفي الثانية غير ملازم لأُلوهيته وربوبيته.

وخلاصة القول:

أنّ الميزان الصحيح في تمييز فعل الله عن فعل غير الله هو الاستقلالية والأصالة في القيام بالفعل، لا الخارقية للعادة وغير الخارقية للعادة.

فإنّ فعل الله هو ما يكون مستنداً إلى استقلال في التأثير، وأصالة في القدرة، أي أنّ الله يأتي به من دون أن يعتمد على أحد أو يستأذن أحداً فوقه.

بينما فعل غير الله هو ما يكون صادراً عن قدرة مكتسبة، وواقعة بإذن واجازة من الله سبحانه، سواء كان هذا الفعل خارقاً للعادة أو غير خارق للعادة.

فمن اعتقد بصدور فعل (عادي أو غير عادي) من أحد على الطراز الأوّل فقد اعتقد بأُلوهيته لأنّه أضفى على فعله طابع الفعل الأُلوهي وصبغهُ بصبغة الأُلوهية، فكان مشركاً.

وأمّا لو اعتقد بصدور فعل (عادي أو غير عادي) من أحد على الطراز الثاني لم يعتقد بأُلوهيته قط لأنّه لم يُضف على فعله طابع الفعل الأُلوهي، ولم يصبغه بصبغة الأُلوهية، لم يكن مشركاً.

٨

التبرّك بآثار الرسول ﷺ

- ❑ العلل الطبيعية والخارقة للعادة.
- ❑ التبرّك بالنبيّ في حياته وبآثاره بعد مماته.
- ❑ التبرّك بتحنيك الأطفال.
- ❑ التبرّك بالمسح والمسّ.
- ❑ التبرّك بفضل وضوئه.
- ❑ التبرّك بسؤر شرابه وطعامه.
- ❑ ما يترتّب على هذا الأصل.

إنّ التوحيد في «الخالقية» يقضي بأنّه لا مؤثّر في الوجود إلاّ الله سبحانه، وأنّه هو الحيّ القيُّوم، وأنّ غيره قائم به، ولكن انحصار الخالقية في الله سبحانه لا يعني أنّ الواجب جلّ اسمه هو السبب المباشر لكلّ شيء، كما أنّ التوحيد في «الربوبيّة» لا يعني أنّه المدبّر للعالم بنفسه بلا تسبيب من الأسباب وبلا تنسيق من العلل التي يؤثّر بعضها في بعضٍ، ويتأثّر بعضها من الآخر، لبطلان ذلك عقلاً وكتاباً:

أمّا عقلاً، فقد شهدت البراهين العقليّة على أنّ الـوجود متّحدٌ حقيقةً، مختلف مـرتبـةً، فإذا كـان كـذلـك فلا معنـى أن يكـون الوجـود مـؤثّـراً في مرتبـة «الواجـب» تعالى غير مـؤثّر في مـرتبة «الممكن» مـا دام الوجـود كما قلنـا متّحـدٌ حقيقـةً، وإنّما هـو مختلـفٌ في الـرتبـة. ولهذا فـإنّ مـن يدّعي تأثير الله من دون تسبّـب من الأسباب يقول ذلك بلسانـه وقلبه مؤمن بخلافه.

وأمّا كتاباً، فإنّ الـذكـر الحكيم مليءٌ بـالآيات الصريحة بتـأثير العلل والعوامل الطبيعية في آثـارها، وقد أوردنا بعض هـذه الآيات في ذيل مبحث الشرك في العبادة.

والحاصل أنّ هناك فرقاً واضحاً بين القـول بأنّ الله هو المؤثّر المباشر في كل شيء، والقـول بـأنّـه هـو المؤثّـر الأصيل عـن طـريق جعـل الأسبـاب، فمثـلاً هو سبحـانـه المخـرج للثمرات مـن الأشجار لكـن بسبب الماء [1]، فـالله سبحانـه هـو المؤثّر التـامّ والقيُّوم المطلـق، الذي يقـوم بـه كُلّ شيء، ويـؤثّـر بـه كلُّ شيء، وأمّـا غيره فـإنّ وجـوده وتأثيره وأثـره بـإرادتـه وإذنـه سبحانه، وهذا هو حقيقة التوحيد والخالقية، وقد أوضحنا مراتب التوحيد في محلّه [2].

١ـ إشارة إلى قوله سبحانه: ﴿وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَراتِ رِزْقاً لَكُمْ﴾ .

٢ـ لاحظ مفاهيم القرآن الجزء الأول، وهو من تآليف الأستاذ العلاّمة السبحاني بقلم الكاتب.

العلل الطبيعية والعلل الخارقة للعادة:

وكما جرت سنّةُ الله الحكيمة على إجراء الفيض وإيصاله إلى الناس عن طريق العلل الطبيعية غالباً، فإنّها جرت في بعض الموارد على إجرائه إلى الناس عبر علل غير مألوفة، أو خارقةٍ للعادة، كما نرى ذلك في المعاجز والكرامات.

وبما أنّ القسم الأوّل (أي اجراء الله لفيضه عن طريق العلل الطبيعية) واضحٌ نعطفُ عنان البحث إلى الثاني (أي اجراء الفيض عبر سبل خارقة للعادة والمألوف) فنقول:

قال سبحانه: ﴿وَإِذْ ٱسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا ٱضْرِب بِّعَصَاكَ الحَجَرَ فَٱنْفَجَرَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُناسٍ مَشْرَبَهُمْ﴾ [١] فقد أجرى سبحانه فيضه الحيويّ عن طريق غير عاديّ.

ومثله قوله سبحانه: ﴿كُلَّما دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيّا المِحْرابَ وَجَدَ عِنْدَها رِزْقاً قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَنْ يَشاءُ بِغَيْرِ حِسابٍ﴾ [٢].

وقوله سبحانه: ﴿وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُساقِطْ عَلَيْكِ رُطَباً جَنيّاً﴾ [٣].

١ـ البقرة: ٦٠.

٢ـ آل عمران: ٣٧.

٣ـ مريم: ٢٥.

إنّ ما ورد في هذه الآيات من ظهور فيضه سبحانه على خاصّة أوليائه، إنّما هو من باب الكرامة، لا الإعجاز فالكليم لم يكن عندما طلبوا منه الماء ولبّى طلبهم بتلك الصورة الخارقة في مقام التحدّي.

كما لم تكن مريم في ذلك المقام وإنّما هو فضل ربّنا وكرامته ولطفه الخاص الذي يقع في بعض الأزمان عندما تقتضي المصلحة ذلك.

وعلى ذلك فليس من البعيد أن تكون هناكَ عللٌ وأسبابٌ مؤثّرةٌ لم نكن نعتادها قد أثّرت في أُمور بإذن الله سبحانه.

فهذا هو يوسف قد أرسل قميصه إلى أبيه وأمر اخوته بأن يُلقوه على وجه أبيه ليرتد بصيراً، قال سبحانه حاكياً عن لسان يوسف: **﴿اذْهبُواْ بقَميصِي هَذا فَأَلْقوهُ عَلَى وَجهِ أَبي يَأْتِ بَصيراً ... فَلَمّا أَن جَاءَ البَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَد بَصِيراً... ﴾**[1].

ومن المعلوم أنّ قميص يوسف ذاك لم يكن مصنوعاً إلاّ من القطن أو ما شابهه، ولكنّ الله سبحانه جعل فيه أثراً غير عادي بحيث لما أُلقي على وجه يعقوب الذي أبيضّت عيناه من الحزن عاد بصيراً.

فليس لنا أن نقول: إنَّ القميص من القطن وأيّ رابطة علمية بين القطن وعودة البصر إلى عيّني يعقوب؟

نعم ليست هناك رابطة علميّة تكشف عنها الأجهزة المادية

١ـ يوسف: ٩٣ـ ٩٦.

المستخدمة والمعتمدة في الأوساط العلمية.

إنّ هـذه العلاقـة غير العاديـة تظهـر عند وضع القميـص على عيني يعقوب والله سبحانه واقف على العلل المؤثّرة في هذه الحوادث.

وعلى ذلك الأساس جـرى الإلهيون عند التبرّك بآثـار أوليائهم، لأنّهم يجدون فيها شفاء عليلهم، ورواءِ غليلهم بإذن الله سبحانه.

ولكنّهم ربّما يتبرّكون بالآثار من دون أن يتوقّعوا منها نتائج كتلك التي ذكرت، وإنّما ينطلقون في ذلك من مبدأين:

الأوّل: مبدأ الحبّ والود، والتعـزير والتكريم فمن عشـق شيئاً عشق لوازمه وآثـاره. فحبّ الآباء والأُمّهات يجرّنا إلى حبّ من بقـي منهم وما بقي من آثارهم، وكذلك حبّ الأنبياء والصلحـاء يجرّ كل مؤمن إلى حبّ كلّ ما تركوه من آثار حتّى أبنيتهم وألبستهم وأولادهم.

الثاني: ما وصل إلينا عن طريق الصحـابة والتابعين لهم بإحسان من أنّهم كانوا يتبرّكون بكل ما يمتّ إلى النبيّ ﷺ بصلة في المجالات المختلفة.

وقبل أن نـذكر نماذج من هـذا القبيل نذكـر ما كتبـه المحقّق العـلاّمة محمّد طـاهر بن عبد القـادر في كتابه «تبرّك الصحـابة» وهو مـن علماء مكّة المكرّمة حيث قـال: أجمعت صحابة النبيّ ﷺ على التبرّك بآثـار رسول الله والاهتمام في جمعها وهم الهداة المهديّون، والقـدوة الصالحون، فتبرّكوا بشعره، وبفضل وضـوئه، وبفرقـه، وثيابـه، وآنيته، وبمسّ جسـده الشريف، وبغير

ذلك ممّا عُرف من آثاره الشريفة التي صحّت به الأخبار عن الأخيار.

فصار التبرّك بها سنَّة الصحابة (رض) واقتدى آثارهم من نهج نهجهم من التابعين والصالحين.

وقد وقع التبرّك ببعض آثاره في عهده وأقرَّهُ ولم ينكر عليه، فدلّ ذلك دلالةً قاطعةً على مشروعيته ولو لم يكن مشروعاً لنهى عنه وحذّر منه.

وكما تدلّ الأخبار الصحيحة و إجماع الصحابة على مشروعيته، تدل على قوّة إيمان الصحابة وشدة محبّتهم وموالاتهم ومتابعتهم للرسول الأعظم ﷺ على حدّ قول الشاعر:

أمرّ على الديار ديار ليلى   أُقَبِّلُ ذا الجدارِ وذا الجدارا
وما حبّ الديار شغفنَ قلبي   ولكنْ حبّ من سكن الديارا [1]

بل إنّ المسلمين لشدة علاقتهم بنبيّهم سجّلوا كثيراً من خصوصيات أخلاق النبيّ والأشياء التي تمتّ إليه بصلة، فذكروا صفة قراءته في صلاته، وحسن صوته، ووصفه في إيراد الخطب، وحسن خلقه وعشرته، وكيفيّة مشيه، ومأكله، وما كان يعجبه من الطعام، وما كان يعاف من الطعام والشراب، حتّى ذكروا شعره وشيبه وخضابه وما أطلى به من النورة، وحجامته، وما أخذ من شاربه، ولون لباسه، وأصنافه، وطولَه وعرضَه وقناعَته في الثوب، وما كان يقولُه إذا لَبِسَه، حتّى ذكروا الخُمرة التي يُصلّي

١ـ تبرّك الصحابة: ٥.

عليها، وخاتَمه من الفضة، ونقشَ خاتمه، ونعلَـه، وخُفّه، وسِواكه، ومُشطه، ومُكحلته، ومِرآته، وقَدحه، وسيوفه، ودرعه، وترسّموا رماحَه، وخيله، ودوابّه، وإبله، ولِقاحـه، وخَدمه ومواليه وبيـوتَه، وحُجَرَ أزواجه، وصَدقـاته، والبآر التي شرب منها[١].

قـال ابن هشـام في الفصل الذي عقـده لصلح الحديبيـة : إنّ قـريش بعثت عُـروة بن مسعود الثقفـي إلى رسول الله ﷺ فجلس بين يديـه وبعدما وقف على نيّـة الرسول مـن خروجه إلى مكّـة رجع إلى قومـه وأخبرهم بما دار بينهم وبين الرسول ﷺ ثمّ قال: إنّ محمّداً لا يتوضّأ إلاّ وابتدر أصحابُه بماءِ وضوئه، ولا يسقط من شعره شيء إلاّ وأخذوه، ثمّ قال: يا معشر قريش لقد رأيتُ كسرى في ملكه، وقيصر في ملكـه، والنجاشي في ملكه، وإنّي والله ما رأيت ملكاً في قومه قطّ مثل محمّد في أصحابه، ولقد رأيت قوماً لا يُسلمونَه بشيءٍ أبداً فَرَوا رأيَكم ...

التبرّك بآثار النبيّ في حياته وبعد مماته:

وها هنـا نذكـر نماذج من تبرّك الصحابـة والتابعين بـآثار الـرسول في حياته وبعـد مماته، ولكن لا نستقصي فإنّه يدفعنـا إلى تأليف كتاب في ذلك المجال[٢].

١ـ لاحظ الطبقات الكبرى لابن سعد ١: ٣٧٥ـ٥٣٠.

٢ـ وكفانا في ذلك مـا كتبه الشيخ طاهر المكي، وما دبجته يـراعة الأُستاذ الشيخ علي الأحمدي حيث قـام بتتبع واسع في ذلـك المجـال وأفرد الموضـوع بـالتأليـف فأسماه (التبرّك) وقـد طبع في بيروت وطهران.

١ـ التبرّك بتحنيك الأطفال:

كانت الصحابة تتبرّك بالنبيّ في تحنيك أطفالهم.

قال ابن حجر: كل مولود وُلِدَ في حياته، رآه وذلك لتوفّر إحضار الأنصار أولادهم إلى النبيّ للتحنيك والتبرّك، ونقل ذلك جمٌّ غفير من أعلام السنّة والحديث والتاريخ، بل إنّه لما أُفتتحت مكّة، جَعَلَ أهلُ مكّة يأتون إليه بصبيانهم يمسحُ على رؤوسهم ويدعو لهم بالبركة.

عن عائشة: إنّ النبيّ كان يؤتى بالصبيان فيبرّك عليهم.

وعن عبد الرحمان بن عوف: ما كان يُولَد لأحدٍ مولودٌ إلاّ أُتي به النبيّ فدعا له [١].

وقد جاء العلاّمة الأحمدي بأسماء ٢٤ شخصاً تبرّكوا بتحنيك النبيّ منهم: إبراهيم بن أبي موسى الأشعري لمّا أتى به أبوه إلى رسول الله ﷺ فسمّاه «إبراهيم» وحنّكه بتمرة وكان أكبر ولده [٢].

ومنهم عبد الله بن عبّاس بن عبد المطلب ولد والنبيُّ وأهل بيته بالشعب من مكّة فأتي به إلى النبيّ ﷺ فحنّكه بريقه وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين [٣].

١ـ الإصابة ١: ٥، والاستيعاب على هامش الإصابة ٣: ٦٣١.

٢ـ صحيح البخاري ٨: ٥٤، وصحيح مسلم ٣: ١٦٩٠، والإصابة ١: ٩٦.

٣ـ أُسد الغابة ٣: ١٩٣، وذخائر العقبى: ٢٢٧.

٢ـ التبرّك بالمسح والمسّ:

نجد في حياة الصحابة لفيفاً منهم مَسَحَ رسول الله رؤوسهم، وقد نقلوه في حياتهم على سبيل المباهاة والافتخار والاعتزاز.

منهم:زياد بن عبد الله: وَفَدَ على النبيّ ﷺ فَدَخَلَ على ميمونة زوج النبيّ، فَدَخَلَ رسول الله فقالت: يا رسول الله هذا ابن أُختي ثمّ خرج حتّى أتى المسجد وبعده زياد فصلّى الظهر، ثمّ أدنى زياداً فدعا له، ووضع يده على رأسه، ثمّ حدّرها على طرف أنفه، فكانت بنو هلال تقول ما زلنا نتعرّف البركة في وجه زياد ، وقال الشاعر لعلي بن زياد:

يا ابنَ الذي مَسَحَ النبيُّ برأسِهِ ودعا له بالخير عندَ المسْجِدِ [١]

ومنهم: خزيمة بن سواد فقد مسح رسول الله وجه خزيمة بن سواد فضاءت غرة بيضاء [٢].

ومنهم: السائب بن يزيد: ذهبت خالتهُ إلى النبيّ، فقالت: يا رسول الله، إنّ ابن أُختي وجع، فَمَسَحَ رأسَه ودعا له بالبركة، وتوضّأ فشرب من وضوئهِ [٣].

فأيّ تبرّك أوضح من ذلك وأيّ توسّل واستشفاء أجلى منه، وقد جاء العلاّمة الأحمدي بأسماء من تبرّكوا بمسح النبيّ ومسّه أو استشفوا به.

١ـ الطبقات ١: ٥١، والإصابة ١: ٥٥٨.

٢ـ الطبقات ١:٤٣.

٣ـ أُسد الغابة ٢: ٢٥٦.

٣ـ التبرّك بفضل وضوئه وغسله:

كان الصحابة يتبرّكون بفضل ماء وضوئه وكانوا يمسحون به، بل كادوا يقتتلون عليه ويتنافسون فيه، وقد عرفت أنّ عروة بن مسعود الثقفيّ قال لقريش بعدما رجع من عسكر رسول الله ﷺ: «لا يتوضّأ إلاّ ابتدروا وضوءه» (أي كادوا يقتتلون عليه).

وفي فتح مكّة انتزع العبّاس دلواً من ماء زمزم فَشَرِبَ منه رسولُ الله وتوضّأ فابتدرَ المسلمون يصبُّون على وجوههم منه ولا تسقط قطرة إلاّ بيدِ إنسان إن قَدِرَ على ما يشرب يشربها، وإلاّ مسح بها جلده.

حتّى أنّ جابر بن عبد الله الأنصاريّ ـ بعد ما توضّأ النبيّ في طست ـ أخذ ماء وضوئه فصبّه في بئره [1].

٤ـ التبرّك بسؤر شرابه وطعامه:

كان الصحابة يتبرّكون بسؤر طعامه وشرابه وربّما يقدّمون التبرّك بفضل شرابه على الصيام المستحب.

عن حنش بن عقيل وكان من أصحاب النبيّ ﷺ قال: سقاني رسول الله ﷺ شربةَ سويقٍ شَرِبَ أوّلها وشربتُ آخرَها قال: ما برحتُ أجدُ شَبَعها إذا جُعتُ، ورَيَّها إذا عَطشتُ [1].

١ـ كنز العمال ١٦: ٢٤٩.

٢ـ سيرة دحلان ٢: ٢٤٦.

وقال أبـو موسـى: كنت عند النبـيّ وهو نـازلٌ بالجعـرانة ــ بين مكّة والمدينة ــ ومعه بلال، فأتى النبيّ أعـرابيٌّ، فقال: ألا تنجز لي مـا وعدتني؟ فقال له: أبشِـر . فقال: قد أكثرت عليّ من أبشر. فأقبل ﷺ على أبي موسى وبلال كهيئة الغضبان فقال: إنّ هـذا قد ردّ البشرى، فأقبلا أنتما قالا: قَبِلنا، ثمّ دعا بِقَـدَحٍ فيه ماءٌ فَغَسَـلَ يديه ووجهه ومـجَّ فيه، ثمّ قال: «إشربـا منه وأفرغا على وجوهكما ونحورِكما وأبشرا».

فأخذا القدحَ فَفَعلا، فنـادت أُم سلمة أن أفضِلا لأُمّكما، فأفضَـلا لها منه طائفة [١].

ثمّ إنّ تبرّك الصحابة لم يقتصر على ذلك، بل كانوا يتبرّكون بماءٍ أدخل فيـه يـده المبـاركـة، وبماءٍ من الآبـار التـي شرب منهـا، وبشعـره، وعـرقـه، وظفـره، والقـدح الـذي شرب منـه، وموضـع فمـه، ومنبره، والـدنـانير التي أعطاها ، وقبره، وجرت عادتهم على الاستشفاء به، ووضع الخدّ عليه والبكاء عنده.

بل كان الصحابـة والتابعون يتبرّكون بعصاه وملابسـه وخاتمه ولباسه، والأماكن التي صلّـى بها، أو مشى عليها، وآثار مشي أقـدامه إلى غير ذلك ممّـا هــو مبثـوث في ثنـايـا كتـب السيرة والتـاريـخ، وقـد جمع نصـوصهـا ومصادرهـا العلاّمـة الأحمدي في كتاب «التبرّك» فمـن أراد الوقـوف عليها فليرجع إليه.

١ـ صحيح مسلم ج٤، باب فضائل أبي موسى: ١٩٤٣، وفتح الباري ١: ٢٥٦.

ما يترتّب على هذا الأصل:

إنّ ما يترتّب على ذلك الأصل ليس أمراً معيناً بل إنّ كلّ ما صدق عليه عنوان التبرّك بـآثار الرسول والصـالحين من أولياء الله يكون أمـراً جائزاً، ولا يمكن لأحـد المنع منـه بحجّة أنّـه شركٌ أو أنّـه أمر محرّم، وإلاّ يجب إنكـار مئات الأحاديث والروايات التي وردت حول التبرّك ولكنّنا نركّز على أمرين:

١ـ بناء المساجد عند القبور أو عليها.

٢ـ الصلاة في المشاهد المشرّفة.

إنّ هذين الأمرين ممّا شاع وذاع بين المسلمين بعد رحلة رسول الله ﷺ إلى يومنا هذا، ولم يخطر ببالِ أحدٍ أنّه حرام أو أنّه شركٌ.

ولما ظهر ابن تيميّة أفتى بحرمة الأمرين، وقال: «ولا يشرع اتّخاذها ـ أيّ القبور ـ مساجد» وقال أيضاً: «ولا يجوز بناء المسجد على القبور».

ونحن نعرض كلتـا المسألتين على الكتاب أوّلاً، وسيرة المسلمين ثـانياً، ثمّ نأتي بما استدلّ به الوهابيون على التحريم.

عرض المسألتين على الكتاب:

إنّ الكتاب أوثقُ مصدر بين المسلمين في استنباط الأحكام الشرعية فلا يعادلـه شيء ولو جـاء حديث يخالـف النصّ الموجود في القـرآن فيؤوّل وإلاّ فيطرح.

والكتاب الحكيم يشرح لنا كيفية عُثور الناس على قبور أصحاب الكهف، وأنّهم اختلفوا في تكريمهم وإحياء ذكراهم، أو التبرّك بهم على قولين.

يقول سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓاْ أَنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَازَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ فَقَالُواْ ٱبْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَاناً رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِداً﴾[1].

والمفسّرون ذهبوا إلى أنّ القول الأوّل كان لغير المسلمين، ويؤيده قولهم في حقّهم: ﴿ربُّهم أَعْلَمُ بِهِمْ﴾ وهو ينمّ عن عدم اهتمامٍ بالغٍ بحالهم ومكانتهم فحوّل أمرهم إلى الله سبحانه.

وأمّا القول الثاني فنفس المضمون يحكي عن أنّه كان قول المؤمنين، حيث اقترحوا أن يتّخذوا على أصحاب الكهف مسجداً، ليتبرّكوا بالصلاة فيه.

فنفس الاقتراح يحكي عن أنّ المقترحين كانوا على علاقةٍ بالمسجدِ والصلاة فيه، وإلاّ لاقترحوا بأن يتّخذوه منتزهاً أو غير ذلك.

وقد قلنا عند البحث عن البناء على القبور أنّ القرآن أُسوة وقدوة، فإذا نقل شيئاً عن قوم ولم يعقّب عليه بنقد أو ردّ، ولم يكن مخالفاً للأُصول المسلّمة

---

١ ـ الكهف: ٢١.

يكون ذلك آية على كونه مقبولاً عند منزل الوحي.

هذا ما ذكرناه سابقاً، والآن نحتج بالآية بوجه آخر وهو «حجّية شرع من قبلنا».

فقد احتجّ بها الفقهاء في كثير من الأحكام إلاّ إذا ثبتَ نسخه، ويؤيّد ذلك أنّ الرسول الأكرم ﷺ جاء مصدّقاً للتوراة والإنجيل، قال تعالى:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الكِتَابَ بِالحَقِّ مُصدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللهُ﴾ [1].

والمراد من الكتاب هو الأعم من التوراة والإنجيل وصريح الآية حجّية ما في التوراة والإنجيل من الأحكام، إلاّ ما دلّ الدليل على نسخه، وإليه يشير بقوله: ﴿وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ﴾ .

وعلى هذا، فقد روى المفسّرون أنّ القول بالبناء على أصحاب الكهف كان قول المشركين، والقول باتّخاذ المسجد كان قول المسلمين، قال سبحانه: ﴿وَقَالَ الذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَسْجِداً﴾.

وهذا هو الظاهر ممّا رواه ابن جرير الطبريّ، فإنّ أصحاب الكهف إنّما بُعثوا بعد سحقِ الوثنية، واستعادة المؤمنين المسيحيّين سلطتهم وكيانهم.

١ـ المائدة: ٤٨.

وعلى ذلك فيكونُ المرادُ من قوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ غَلَبُواْ عَلَىٰ أَمْرِهِمْ﴾ هم المؤمنون بالمسيح الذين غَلَبوا على الوثنية، فكانت الغَلبة دينية معنوية لا غلبة الكلمة والنفوذ.

قال الطبري في تفسير قولـه تعالى: ﴿فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هِذهِ إِلى المدينةِ﴾.

إنّ المبعوث دخل المدينة فجعل يمشي بين ظهري سوقها فيسمع أُناساً كثيرين يحلفون باسم عيسى بن مريم فزاد فرقاً ورأى أنّه حيران، فقام مسنداً ظهره إلى جدار من جُدُر المدينة ويقـول في نفسه: أمّا عشية أمس فليس على الأرض إنسانٌ يـذكر عيسى بـن مريم إلاّ قُتِـل، أمّا الغداة فـأسمعهم وكلُّ إنسان يذكر أمرَ عيسى لا يخاف، ثمّ قـال في نفسه: لعلّ هذه ليست بالمدينة التي أعرف[1].

وبذلك تقـف على قيمة ما ذكره محمّـد ناصر الديـن الألباني حيث ردّ دلالة الآية على جـواز اتّخاذ القبور مسجداً بقولـه: والظاهر أنّ الذيـن قالوا ذلك هـم أصحـاب الكلمة والنفـوذ ولكـن هل هم محمـودون أم لا ، ففيـه نظر[2].

فإنّ كلام الطبري هذا يفيد أنّ أتباع الـدين المسيحي هم الذين غلبوا، بعد أن كانوا مغلوبين.

١ـ تفسير الطبري ١٥ : ٢١٩، طبعة مصطفى الحلبي ـ مصر.

٢ـ تحذير الساجد من اتّخاذ القبور مساجد: ٧٢.

سيرة المسلمين في بناء المساجد على القبور:

إنّ الرسول الأكرم ﷺ دُفن في بيته، إمّا لأجل الرواية التي نُسبت إلى أبي بكر عن النبيّ ﷺ «لم يُقْبـرَ نَبيٌّ إلاّ حيث يموت»[١].

وإمّا لأجل تصويب من أهل بيته ووصيّه عليّ وابنته فاطمة، وموافقة بل اقتراح من جانبهم.

وكان بيت النبيّ الذي دفن فيه بجوار المسجد النبوي، بحيث كان النبيّ يدخلُ المسجد من باب ذلك البيت، وكان المسجد واقعاً في الجانب الغربيّ من القبر، ولمّا كثر المسلمون وازداد عددهم، وضاق المسجدُ بهم أدخلوا الجانب الشرقي الذي كان فيه بيوت أزواج النبيّ، والبيت الذي دفن فيه ﷺ بحيث وقعت البيوت في أواسط المسجد النبوي، بحيث يقف المصلّون أطراف القبر من الجوانب الأربعة ويحيطون به.

يقول الطبري في حوادث سنة ٨٨ أنّه في شهر ربيع الأوّل من هذه السنة قَدِمَ كتابُ الوليد على عمر بن عبد العزيز يأمره بهدم المسجد النبوي

---

١ ـ في النفس من صحّة هذا الحديث شيء لأنّه لو كان دفن النبيّ حيث يموت حكماً إلهيّاً لوجب على النبيّ الأكرم ﷺ إعلام وصيه وأهل بيته بذلك قبل أن يُعلم الآخرين به، وكيف يمكن أن يكتم النبي هذا الأمر عن أهل بيته ولهذا لا تسكن النفس إلى هذا الخبر.

وهذا يشبه ما نَسَب إليه بعض الصحابة من أنّه قال رسول الله ﷺ : «نحن معاشر الأنبياء لا نورّث» إذ لو كان هذا حكماً إلٰهياً لوجب على النبيّ ﷺ إعلام ورثته به ، فكيف يمكن أن يموت النبيّ وابنته إلى جنبه ولا ينبس لها بهذا الحديث ببنت شفة، ثم يترك أهل بيته في حيرة وضلال حيث لم يعلمهم بواجبهم !!

وإضافة حجر رسول الله ﷺ وأن يوسّعه من قبلته وسائر نواحيه، باشتراء الأملاك المحيطة به فأخبر عمر الفقهاء العشرة وأهل المدينة بذلك، فحبّذوا بقاء تلك الحجر على حالها ليعتبر بها المسلمون، ويكون أدعى لهم إلى الزهد اقتداءً بنبيّهم فكاتب ابن عبد العزيز الوليد في ذلك فأرسل إليه يأمره بالخراب، وتنفيذ ما ذكره في كتابه الأوّل، فضجّ بنو هاشم وتباكوا ولكنّ عمر نفّذ ما أمره به الوليد، فأدخل الحجرة النبويّة (حجرة عائشة) في المسجد فدخل القبر في المسجد وسائر حجرات أُمهات المؤمنين، وقد بُني عليه سقفٌ مرتفع كما أمر الوليد (١).

نحن لا نحتجّ بأمر «الوليد» ولا بعمل «عمر بن عبد العزيز» وإن كان القوم يحتجُّون به لأنّه أحد العدول عندهم، بل نحتجّ بتقرير التابعين لأصل العمل ولم ينقل عن أحد منهم الإنكار.

نعم نُقِلَ عن سعيد بن المسيب أنّه أنكر هذا العمل ولكن نقله مرسلٌ لا مسندٌ ولم يعلم أنّ إنكاره كان لأجل إدخال القبر ضمن المسجد، بل من المحتمل لأجل أنّ التخريب كان بعنف، ومن دون رضا أصحاب البيوت من بني هاشم الذي ضجّوا لهذا الأمر كما صرّح به ابن كثير. وإليك نصّ السمهوديّ: ... ما رأيت يوماً أكثر باكياً من ذلك اليوم، قال عطاء: فسمعت سعيد بن المسيب يقول: والله لوددت أنّهم تركوها على حالها (٢).

١ـ راجع تاريخ الطبري ٥: ٢٢٢، والبداية والنهاية ٨: ٦٥.

٢ـ السمهودي: وفاء الوفا ٢: ٥١٧ والضمير في قوله «على حالها» يرجع إلى حجرات أزواج النبيّ عامّة لا خصوص الحجرة التي دفن النبيّ فيها.

ومن خالف مـن المسلمين إنّما خالف لأجل أمر آخر حيـث قالوا: إنّ هذه حجرٌ قصيرة السقوف وسقوفها جريدة النخل وحياطها من اللبن، وعلى أبوابها المسـوح وتركها على حالها أولى لينظـر الحجاج والزوار والمسـافرون إلى بيوت النبيّ فينتفعون بذلك ويعتبرون به ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا، فـلا يعمّرون إلاّ بقدر الحاجة وهو ما يستر ويكنُّ ويعـرفون أنّ البنيان العـالي إنّما هو من أفعـال الفراعنـة والأكاسرة وكـلِّ طويل الأمـل راغبٍ في الدنيا، وفي الخلود فيها (١).

فإذا كان هذا العمل بمرأى ومنظر من فقهاء المدينة العشرة، والمسلمين عامـة وفي مقدم التابعين منهم الإمـام «علي بن الحسين» المعروف بـالسجاد وابنـه الإمام محمّـد بن علي البـاقر اللـذين لم يشك أحـدٌ في زهدهما وعلمهما وعرفانهما بـالكتاب والسنّة، أفلا يكـون ذلك دليلاً على جواز إقـامة المسجد على القبور والصلاة فيـه إلى جنبها من دون أن يخطر ببـال أحد أنّ النبيّ نهى عنه، أو يخطر ببال أحد أنّ هذا من خصائص النبيّ ﷺ.

نعم إنّ هذا دليل قاطع على جـواز هذا العمل ولهذا لمّا واجه ابن تيميّة هذا الموقف الواضح من المسلمين في هذا المجال حاول إسقاطه عن الحجيّة والاعتبار بقوله: إنّ ذلك كان بعد موت عامّة الصحابة ـ رضي الله عنهم ـ ولم يكن بقي في المدينة منهم أحد (٢).

وكرّر هذا الكلام كلّ من جاء بعده من كتّاب الوهابية وأعادوه من غير

١ـ البداية والنهاية ٨: ٦٥.

٢ـ الجواب الباهر :٧١.

تفكير ومنهم الشيخ محمّد ناصر الدين الألباني في كتابه حيث قال: إنّما أُدخلت الحجرة في المسجد في خلافة الوليد بن عبد الملك بعد موت عامّة الصحابة الذين كانوا في المدينة إلى آخره [1].

إنّ (ابن تيمية) ومن حذى حذوه حيث إنّهم قد اتّخذوا رأياً مسبقاً في الموضوع لهذا تمسّكوا لتأييد رأيهم بكل رطب ويابس، وإن كان ذلك على حساب التابعين ومنجرّاً إلى إهمالهم وإهانتهم.

فكأنَّ الصحابة قد بلغت بهم القداسة بحيث لو رأى واحدٌ منهم ذلك العمل وسكت عليه كان دليلاً على مشروعيته، ولكن التابعين وفيهم الفقهاء العشرة والأئمّة من أهل البيت لم يكن لتقريرهم وسكوتهم أيّة قيمة، كيف وقد جاء بعدهم إمام المدينة مالك وسائر أئمّة المذاهب الأربعة، والكلّ أقرّوه ولم يعترضوا عليه بشيء.

سيرة المسلمين في غير قبر النبيّ ، مسجداً وصلاة:

ولقد جرت سيرة المسلمين تبعاً لسنّة رسول الله على اقامة المسجد إلى جانب القبر أو عليه والصلاة عنده وإليك نماذج من ذلك:

١ـ يقول السمهودي في حقّ السيدة فاطمة بنت أسد، أُمّ الإمام أمير المؤمنين عليّ ـعليه السلامـ : فلمّا تُوفيت خرج رسول الله، فأمر بقبرها فحفر في موضع المسجد الذي يقال له اليوم قبر فاطمة.

١ـ تحذير الساجد : ٨٥.

٢ـ يضيف السمهودي أيضاً: إنّ موضع قبر فاطمة بنت أسد تحوّل بعد ذلك إلى مسجد، ويقول: إنّ مصعب بن عمير وعبد الله بن جحش دُفنا تحت المسجد الذي بُني على قبر حمزة [١].

وقد كان هذا المسجد موجوداً إلى زمان احتلال الوهابيين لهذه البقاع المقدّسة فدمّروه بمعاول الظلم والضغينة.

هذا كلّه حول بناء المسجد، و أمّا إقامة الصلاة لدى القبور: فكفى في ذلك:

٣ـ انّ عائشة قضت حياتها في بيتها وصلَّت فيه تمام عمرها ولم يكن بينها وبين القبر أيّ جدار إلى أن دفن عمر، فبُني جدار حال بينها وبين القبور الثلاثة [٢].

٤ـ روي أنّ فاطمة بنت النبيّ ﷺ كانت تذهب إلى زيارة قبر عمّها حمزة فتبكي وتصلّي عنده [٣].

٥ـ روى السيوطي في أحاديث المعراج أنّ النبيّ نزل في المدينة وطور سيناء وبيت لحم وصلّى فيها، وقال جبرئيل: صلّيت في طيبة وإليها مهاجرتك، وصلّيت في طور سيناء حيث كلَّم الله موسى، وصلّيت في بيت لحم حيث ولد المسيح [٤].

١ـ وفاء الوفا ٣: ٨٩٧ و ٩٢٢.

٢ـ المصدر نفسه ٢: ٥٤٤.

٣ـ السنن للبيهقيّ ٤: ٧٨، ومستدرك الصحيحين للحاكم ١: ٣٧٧.

٤ـ الخصائص الكبرى ١: ١٥٤.

وهل هناك فرق بين المولد والمدفن؟

كل ذلك محكمات لا محيص لمسلم من الأخـذ بها وعدم العدول عنها، فلو وردت هناك روايات تخالف ذلك فنحن على مفترق طريقين:

١ـ الإمعان في دلالتها ومورد ورودها، حتّى يتبيّـن لنا عدم مخالفتها لما دلّ عليه الكتاب، وجرت عليه سيرة المسلمين عامّة.

٢ـ طـرحها وضربها عـرض الجدار بحكم مخالفتهـا للكتـاب والسيرة القطعية، وانّها كلَّما كثرت أسانيدها وتوفر نقلَتُها ازدادت ضعفاً لأنّ الناقلين وهم التابعـون لم يعملوا بها أبداً، بل ضربوهـا عرض الجدار أو فسّـروها على النحـو الـذي نفسّـرها، وإليك سرد تلـك الأحـاديث وتفسيرهـا بـالمعيـار العلمي.

النهي عن اتّخاذ قبور الأنبياء مساجد:

قد عرفت أنّ السيدة عائشة قد اتّخذت قبر النبيّ الأكرم ﷺ مسجداً صلّت فيه أكثر من عشر سنوات، كما أنّ التـابعين اتّخذوا قبر النبيّ الأكـرم مسجداً لأنفسهم وللأجيـال التالية، ولم يظهر من أحد الـردّ والنقاش في هذا الأمر.

وقد عـرفت أنّ سعيد بن المسيـب إنّما كره ما أمـر به الوليـد لأجل أنّ تخريب بيوت أزواج النبيّ وأولاده أثار ضجة وبكـاءً بين النساء والرجال، ولم يكن استنكاره على اتّخاذ قبر النبيّ مسجداً.

كما عرفت أنّ أئمّة أهل البيت والفقهاء العشرة وافقوا على ذلك الأمر ولم يبدوا نكيراً ولكننا نرى من جانب آخر انّه روي عن رسول الله ﷺ أنه قال:

١ـ «قاتل الله اليهود اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

٢ـ «لعن الله اليهود والنصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

٣ـ «ألا وانّ من كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتّخذوا القبور مساجد، إنّي أنهاكم عن ذلك».

٤ـ «أخرجوا أهل الحجاز وأهل نجران من جزيرة العرب، واعلموا أنّ شرار الناس الذين اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

٥ـ «لعنَ اللهُ اليهود اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد» (١).

إذا قلنا بصحّة هذه الأحاديث سنداً فكيف يمكن الجمع بينها وبين عمل التابعين والمسلمين في الأجيال المتلاحقة وعمل السيدة عائشة وبنت النبيّ الأكرم فاطمة ـ عليها السلام ـ ؟؟

ولقد استغل الوهابيون هذه الأحاديث وخرجوا بهذه النتيجة وهي: أنّ مفاد هذه الروايات هو:

١ـ راجع للوقوف على مصادر هذه الأحاديث صحيح البخاري كتاب الجنائز ٢: ١١١، سنن النسائي ج٢، كتاب الجنائز: ٨٧١، صحيح مسلم ٢: ٥٦٨، كتاب المساجد وغيرها وقد جمع مصادر الحديث وصوره المختلفة محمّد ناصر الدين الألباني في كتابه تحذير الساجد: ١١ـ٢٨، فذكر للحديث ١٤ صورة، كما جمعها أبو عبد الرحمن مقبل بن هادي الوادعي في كتاب رياض الجنّة: ٢٧٨ـ٢٨١.

أ ـ حرمة بناء المساجد على القبور.

ب ـ وحرمة قصد الصلاة فيها.

حتى قال ابن تيميّة: إنّ المسجد والقبر لا يجتمعان [١].

وهذا هو الكلام الذي يكرّره كل من جاء بعده ونظر إلى هذه الروايات بعقيدة مسبقة، تاركاً جانباً إجماع الأُمّة ودلالة الكتاب على الجواز كما بيّناه.

دراسة الأحاديث الناهية:

إنّ دراسة هذه الأحاديث تجعلنا أمام احتمالات أربعة تقول: إنّ النهي إنّما هو عن:

الصلاة على القبور بالسجود عليها تعظيماً.

أو الصلاة باتجاه القبور واتّخاذها قبلة.

أو بناء المساجد على القبور وقصد الصلاة فيها تبرّكاً بالمقبور.

أو إقامة الصلاة عند مراقد الأنبياء ومقابرهم.

فهل لهذه الأحاديث إطلاق يعمّ كل هذه الصور والمحتملات كما ادّعاه الألباني تبعاً لشيخه ابن تيمية، وزعم أنّ هذه الأحاديث من جوامع كلمه ﷺ؟

أو أنّ الأحاديث تنصرف بشهادة القرائن المتصلة والمنفصلة إلى بعض

---

١ ـ مجموعة الرسائل والمسائل ١: ٥٩ ـ ٦٠، وزاد المعاد تأليف ابن القيم: ٦٦١.

الصور وهي الصور التي تلازم كون العمل شركاً، والمصلّي مشركاً، وخارجاً عن الحدود التي حدّدها الكتاب والسنّة؟ و إليك البيان:

١ـ إنّ الحديث يركّز على عمل اليهود والنصارى وأنّهم اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد، وينهى المسلمين عن متابعتهم في ذلك.

وبما أنّ أهل الكتاب معروفون بالشرك وعبادة غير الله طيلة القرون والعصور، فالمسيحية تعبد المسيح وأُمّه كما أنّ كثيراً منهم اتّخذوا الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله، يحرّمون ما أحلَّ الله، ويحلّلون ما حرَّم الله.

واليهود هم الذين طلبوا من نبيّهم أن يجعل لهم إلهاً كما أنّ لغيرهم آلهة، وهم الذين عبدوا العجل بل عبدوا بعد رحلة الكليم أرباباً وآلهة، فهم كأنّهم مفطورون على الوثنية وعبادة البشر.

فعند ذلك ينصرف الحديث إلى عمل يكون على نمط عمل اليهود والنصارى شكلاً وجوهراً. ولا يمكن أن يدّعى أنّ الحديث يعمّ ما إذا كان عمل اتّخاذ القبور مساجد مجرّداً عن أيّ شرك أو إقامة الصلاة عند قبورهم من باب التبرّك بهم.

٢ـ إنّ رسول الله ﷺ يصف متخذي القبور مساجد في بعض هذه الأحاديث بكونهم شرار الناس. فقد روى مسلم في كتاب المساجد أنّ أُم حبيبة وأُم سلمة ذكرتا كنيسة رأتاها في الحبشة فيها تصاوير لرسول الله، فقال رسول الله ﷺ : «إنّ أُولئك إذا كان فيهم الرجل الصالح فمات، بُني على قبره مسجداً وصوّر فيه تلك الصور، أُولئك شرار الخلق عند الله»[1].

١ـ صحيح مسلم ٢: كتاب المساجد: ٦٦٦.

إنّ توصيفهم بأنّهم شرار الخلق عند الله، يميط الستر عن حقيقة عملهم إذ لا يوصف الإنسان بالشر المطلق إلاّ إذا كان مشركاً، قال سبحانه: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِندَ اللهِ الصُّمُّ البُكْمُ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ﴾ (١)، وقال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوابِّ عِندَ اللهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (٢).

كل ذلك يكشف عن مرمى هذا الحديث، وإنّ عملهم لم يكن عملاً مجرّداً مثل صرف بناء المسجد على القبر، أو الصلاة فيه أو إقامة الصلاة عند القبور، بل كان عملاً مقترناً بالشرك بألوانه المختلفة كاتّخاذ القبر أو صاحبه المدفون فيه إلهاً ومعبوداً، أو قبلة عند الصلاة أو السجدة عليها بمعنى اتّخاذها مسجوداً.

٣ـ إنّ الروايات الناهية الواردة في المقام على قسمين:

قسم يشتمل على اللعن، وهذا مختص باتّخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، وقد مرّ بعضها.

وقسم آخر مُشتمل على مجرّد النهي، من دون اقتران باللعن، وقد ورد ذلك في مُطلق القبور:

أ ـ عن أبي مرصد الغنويّ قال: قال رسول الله : «لا تجلسوا على القبور، ولا تُصلّوا إليها» (٣).

١ـ الأنفال: ٢٢.

٢ـ الأنفال: ٥٥.

٣ـ صحيح مسلم ٧: ٣٨.

ب ـ عن أبي سعيد الخدري، قـال، قال رسول الله ﷺ : «الأرض كلّها مسجدٌ إلاّ المقبرة والحمّـام»[١] وغير ذلك.

ج ـ عن عبد الله بن عمر: نهى عن الصلاة في المقبرة[٢].

فعنـدئذ يجب التأمّـل في هذا التفـريـق فلماذا اقترن القسم الأوّل (أي الروايات اللاعنة من اتّخاذ قبور الأنبياء مساجـد) باللعن دون الآخر، الذي ورد فيـه مُجرد النهي، المحمـول على الكراهـة مُطلقـاً، أو في ما إذا كـان القبر بحيال المصلّـي، أو كانت الصلاة بين القبرين.

إنّ هـذا الفـرق ليس إلاّ لأنّ القسـم الأوّل نـاظـر إلى عمـل اليهـود والنصارى مع قبور أنبيائهم.

فبما أنّ عملهم مـع تلك القبـور كان مُقترنـاً بـالشرك، بالسجـود لها، تعظيماً لهم أو باتخاذها قبلة استحقوا اللعن، وعرِّفوا بأنّهم شرار الناس ونهي المسلمون عن اتّباعهم.

وأمّا القسـم الآخر فحيث لم يكن مُقترنـاً بذلك أبـداً، لذلك جـاء فيه النهي المجرَّد عن اللعن.

وبهذا لا يمكن القـول بـإطـلاق هـذه الأحـاديث وعمـوميتهـا لكـل الأحوال.

❁ ❁ ❁

١ـ سنن أبي داود ١: ١٨٤.

٢ـ موارد الظمآن: ١٠ كما في رياض الجنّة.

٤ـ إنّ السيدة عائشة، قالت: قال رسول الله: «لَعَنَ اللهُ اليهود والنصارى اتَّخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

قالت: فلولا ذاك لأُبرِزَ قبرُه، غير أنّه خُشِيَ أن يُتَّخذَ مسجداً[١].

ومن المعلوم أنَّ المسلمين بعدما دفنوا النبيّ في بيته سوّروه بحائط مستدير لا مُربع، لئلاّ يُشابه الكعبة.

ومن المعلوم أيضاً أنّ التسوير بالجدران وعدم إبراز قبره إنّما يمنع عن اتّخاذه مسجوداً، أو قبلة، وأمّا الصلاة في جنبه فلم يكن الجدار مانعاً عنها.

ومُراد السيدة عائشة هو: أنّ عدم إبراز القبر وستره بالحيطان منع المسلمين عن أن يرتكبوا ما كان اليهود والنصارى يرتكبونه.

ومن المعلوم أنّ الجدران منعت عن الصور الشركيّة كصورة اتّخاذه مسجوداً، أو قبلة، لا عن إقامة الصلاة المجرّدة من هذه الضمائم إلى جانبه.

وهذا دليلٌ واضحٌ على أنّ الحديث كان بصدد نهي المسلمين عن اتّخاذ القبر مسجوداً وقبلة.

والعجب من الشيخ الألبانيّ حيث إنّه أراد استغلال الحديث لتأييد مذهبه، وموقفه، فسَّر قولها: «فلولا ذاك لأُبرِزَ قَبرُه» بأنّ المقصود هو الدفنُ خارج بيته[٢]، مع أنّ العبارة لا تتحمَّل هذا، لأنّها تركز على القبر الموجود فيكون المقصود: ولولا ذاك لكشف قبره ولم يتخذ عليه حائطٌ.

١ـ البخاري ٣: ١٥٩ ومسلم ٢: ٧٦.

٢ـ أي لولا لعن رسول الله ﷺ لدفنوه خارج بيته.

٥ـ قال أبو هريرة: قال رسول الله ﷺ : «اللّهمّ لا تجعل قبري وثناً، لَعَنَ الله قوماً اتّخذوا قُبورَ أنبيائهم مساجد»[١].

إنّ العلاقة بين الجملتين تكشف عن أنّ المقصود بالاستنكار والرفض هو: اتّخاذ قبور الأنبياء مساجد على نحوٍ **يعود القبر معه وثناً يُعبد**، أو يُصلّى إليه.

وأمّا الصلاة لله تبارك وتعالى، وإلى الكعبة إلى جانب القبر تبرّكاً به فلا تجعل القبر وثناً يُعبد، وهذا هو قول الله تعالى وهو يأمر الحجيج باتّخاذ مقام إبراهيم مصلّى، ويقول: ﴿**وَٱتَّخِذُواْ مِنْ مَقامِ إبراهيمَ مُصَلّى**﴾[٢].

وليست الصلاة عند القبر إلاّ كمثل الصلاة عند مقام إبراهيم، من دون فرق ...

غير أنّ جسد النبي إبراهيم قد لامس هذا المكان مرّة أو مرّات معدودة، ولكن مقابر الأنبياء احتضنت أجسادهم التي لا تبلى دائماً[٣].

علماء الحديث وأحاديث النهي:

إنَّ علماء الحديث وجهابذته فهموا من هذه الأحاديث نفس ما قلناه، وفسّروها على نحو ما فسّرناه، وإن لم يذكر الألباني وغيره شيئاً من هذه التفاسير والكلمات.

١ـ مسند أحمد بن حنبل ج٢: ٢٤٦.

٢ـ البقرة: ١٢٥.

٣ـ سنن أبي داود كتاب الصلاة ـ فضل الجمعة.

وها نحن نذكر نماذج من تلك الكلمات ليتضح الحال:

أ ــ يقول العسقلاني: إنّما صوّر أوائلهم الصور ليستأنسوا بها، ويتذكَّروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم وثمَّ خلفهم قومٌ جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أنَّ أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظّمونها فحذَّر النبيُّ عن مثل ذلك سدّاً للذريعة المؤدّية إلى ذلك.

إلى أن يقول: قال البيضاوي لمّا كانت اليهود والنصارى يسجدون لقبور الأنبياء تعظيماً لشأنهم، ويجعلونها قبلةً يتوجّهون في الصلاة نحوها، واتخذوها أوثاناً، لعنهم [١]، ومنع المسلمين عن مثل ذلك.

فأمّا من اتّخذ مسجداً في جوار صالح وقصد التبرّك بالقرب منه لا للتعظيم ولا للتوجّه نحوه، فلا يدخل في الوعيد المذكور [٢].

ب ــ ويقول النووي في شرح صحيح مُسلم: قال العلماء: إنَّما نهى النبيّ عن اتّخاذ قبره وقبر غيره مسجداً خوفاً من المبالغة في تعظيمه والافتنان به، فربّما أدّى ذلك إلى الكفر كما جرى لكثير من الأُمم الخالية. ولما احتاجت الصحابة والتابعون إلى زيادة في مسجد رسول الله ﷺ حين كثُر المسلمون، وامتدت الزيادة إلى أن دخلت بيوتُ أُمّهات المؤمنين فيه، ومنها حجرة عائشة مدفن رسول الله ﷺ وصاحبيه بنوا على القبر حيطاناً مُرتفعة مُستديرة حوله لئلا يظهر في المسجد فيصلّي إليه العوام ويعود المحذور.

١ـ أي لعنهم رسولُ الله ﷺ.

٢ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري ١: ٥٢٥ ط دار المعرفة، وقريب منه ما في إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري ٢: ٤٣٧ باب بناء المساجد على القبور.

ولهذا قالت عائشة في الحديث: ولولا ذلك لأُبرِزَ قبرُه، غير أنّه خشى أن يُتّخذ مسجداً[١].

ج ـ وقال السنديّ: شارح السُّنن للنسائي: اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد أي قبلة للصلاة ويصلّون إليها أو بَنَوا مساجد يُصلّون فيها، ولعلّ وجه الكراهة أنّه قد يفضي إلى عبادة نفس القبر.

إلى أن يقول: يُحذّر النبيُّ أُمّته أن يصنعوا بقبره ما صنع اليهود والنصارى بقبور أنبيائهم من اتّخاذ تلك القبور مساجد، إمّا بالسجود إليها تعظيماً لها، أو بجعلها قبلةً يتوجّهون في الصلاة إليها[٢].

د ـ وقال شارح آخر: إنّ حديث عائشة يرتبط با لمسجد النبويّ قبل الزيادة فيه ... أمّا بعد الزيادة وإدخال حجرتها فيه فقد بنوا الحجرة بشكل مُثلّث كي لا يتمكّن أحد من الصلاة على القبر، إنّ اليهود والنصارى كانوا يعبدون أنبياءهم بجوار قُبورهم أو يجعلونهم شركاء في العبادة[٣].

هـ ـ قال الشيخ علي القاري: سبب لعنهم إمّا لأنّهم كانوا يسجدون لقبور أنبيائهم تعظيماً لهم، وذلك هو الشرك الجليّ، وإمّا لأنّهم كانوا يتّخذون الصلاة لله تعالى في مدافن الأنبياء والسجود على مقابرهم، والتوجّه إلى قبورهم حال الصلاة، نظراً منهم بذلك إلى عبادة الله والمبالغة في تعظيم الأنبياء، وذلك هو الشرك الخفيّ، فنهى النبيّ أُمّته عن ذلك إمّا لمشابهة ذلك

١ـ صحيح مسلم بشرح النووي ٥: ١٣ ـ ١٤.

٢ـ السنن للنسائي ٢: ٤١، مطبعة الأزهر.

٣ـ صحيح مسلم ٢: ٦٦.

الفعل سُنَّة اليهود أو لتضمّنه الشرك الخفيّ، كذا قاله بعض الشُّرّاح من أئمّتنا ويؤيّده ما جاء في رواية: يحذر مثل الذي صنعوا [١].

أهل البيت وأحاديث النهي:

إنّ المروي عن أئمّة أهل البيت هو ما فهمه أُولئك الشرّاح، من هذه الأحاديث، وإليك نماذج من رواياتهم الشريفة:

١ـ روى الصدوق مُرسلاً قال: وقال النبيّ لا تتَّخذوا قبري قبلة ولا مسجداً فإنّ الله لعن اليهود حيث اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد [٢] والمراد من قوله «مسجداً» بقرينة قوله «قبلةً» هو السجود عليه تعظيماً.

٢ـ روى الشيخ الطوسي بإسناده عن معمّر بن خلّاد عن الرضا ـعليه السلامـ قال: لا بأس بالصلاة بين المقابر ما لم يتَّخذ القبر قبلة [٣].

٣ـ روى الصدوق في علل الشرائع بإسناده إلى زرارة عن أبي جعفر (الباقر) ـعليه السلامـ قال: قُلت: الصلاة بين القبور، قال: بين خُللها ولا تتّخذ شيئاً منها قبلةً، فإنّ رسول الله نهى عن ذلك وقال: لا تتَّخذوا قبري قبلةً ولا مسجداً، فإنّ الله عزّ وجلّ لعنَ الذين اتّخذوا قُبور أنبيائهم مساجد [٤].

ولو كان المراد هو اتّخاذ القبر قبلةً حقيقة، بأن يُصلّى عليه من كلّ جانب كالكعبة يكون حراماً وبدعة حتماً.

١ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ١: ٤٥٦.

٢ـ الوسائل: ج٢، الباب ٦٥، من أبواب الدفن، الحديث٢.

٣ و ٤ـ المصدر نفسه: ج٣، الباب ٢٥، أبواب مكان المصلّي، الحديث ٣، والباب ٢٦، الحديث ٥.

ولو كـان المراد كون القبر أمـامه وحيـال وجهه، فيحمل على الكـراهة لجريان سيرة المسلمين على الصلاة في الصفَّـة في مسجد النبيّ والقبر بحيال المصلّـــي، وفي مقابله.

ثمّ روى المفسّـرون في تفسير قوله سبحانه: ﴿وَقَالُوا لا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلاَ تَذَرُنَّ وُدّاً وَلا سُواعاً ولا يَغُوثَ ويَعُوقَ وَنَسْـراً﴾ [١]. عن ابن عباس أنّه قال: هؤلاء كانوا قوماً صالحين في قـومهم فلما ماتوا عكفوا على قبورهم ثم صوّروا تماثيلهم فلما طال عليهم الأمد عبدوهم.

قال القرطبي: روى الأئمّة عن أبي مرصد الغنوي قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لا تصلّـوا إلى القبور ولا تجلسوا عليها» (لفـظ مسلم) أيّ لا تتَّخذوها قبلةً، فتصلّوا عليها أو إليها كما فعلَ اليهود والنصارى [٢].

ويؤيّد ذلك مـا مرّ من رواية مُسلم في صحيحه عـن النبيّ الأكرم أنّه قال حينما قـالت أُمّ حبيبة وأُمّ سلمـة بأنّهما رأتا تصـاوير في إحـدى كنائس الحبشة: أنَّ أُولئك إذا كان فيهم الرجـل الصالح فمات بنوا على قبره مسجداً وصوّروا فيه تلك الصور أُولئك شِـرار الخلق عند الله يوم القيامة [٣].

إنّ الهدف من وضـع صور الصـالحين بجوار قبـورهم كان إمّـا لغايـة اتّخاذها قُبلـةً ، أو عبادة أصحـابها، كالصنـم المنصوب، ومعـه لا يمكن أن يستدل بـه وبأمثاله من الأحـاديث على تحريم مُطلق اتّخاذ القبور مسـاجد،

١ـ نوح: ٢٣.

٢ـ تفسير القرطبي ١٠: ٣٨٠.

٣ـ صحيح مسلم ٢: ٦٦ كتاب المساجد.

بمعنى بناء المسجد عليها، أو إلى جوارها، والصلاة في تلك المساجد و إلى جانب تلك القبور والمراقد تبرّكاً بما تضمّنت من أجساد طاهرة لشخصيات مقرّبة عند الله تعالى.

نعم إنّ أقصى ما يدلّ عليه الحديث لو قلنا بإطلاقه هو أن يُتّخذ مدفن الأنبياء مساجد، وأمّا بناء مسجد إلى جنب مدافنهم بحيث يكون المسجد وراء المدفن كما هو الحال في المشاهد المشرّفة لأئمّة الشيعة فلا يعمّه النهي أبداً.

وعلى فرض وجود الإطلاق فإذا دار الأمر بين الأخذ بالكتاب والسنّة الرائجة بين المسلمين من عهد التابعين إلى يومنا هذا وبين إطلاق هذه الرواية، كان الأوّل هو المتعيَّن.

والعجب من الشيخ الألبانيّ حيث يعتقد بإطلاق الحديث، ثمّ يردّ به دلالة الكتاب قائلاً بأنّ «شرع من قبلنا» حجّةٌ إذا لم يرد في خلافه شيءٌ[١].

وقد عرفت عدم الإطلاق لاحتفاف الحديث بقرائن صارفة.

والخلاصة:

١ـ إنّ آثار النبيّ ﷺ هو أحد الأسباب التي لها مسبّبات في عالم الطبيعة، ويجوز التبرّك بها إمّا توصّلاً إلى مسبّبات ونتائج، وإمّا تكريماً أو حبّاً لصاحبها.

١ـ راجع كتابه المذكور سابقاً.

٢ـ إنّ سيرة المسلمين جرت على التبرّك بالنبيّ ﷺ في حياته، وبآثاره بعد مماته بلا نكير من صحابي أو تابعي يذكر.

٣ـ إنّه يترتّب على هذا الأصل جواز بناء المساجد على قبور ومدافن الأنبياء أو إلى جانبها والصلاة لله تعالى في تلك المساجد وعند تلك القبور، باتّجاه القبلة، تبرّكاً بأصحابها المقدسين المقرّبين عند الله.

٤ـ وإنّ الروايات المانعة من ذلك أمّا المتضمّنة للّعن فتقصد ما إذا كان على غرار ما يفعل اليهود والنصارى، من اتّخاذ القبر قبلة أو معبوداً، أو عبادة أصحابها.

وأمّا المتضمّنة لمجرّد النهي فهل تدلّ على الكراهة المدفوعة بمصلحة أعلى، هذا مضافاً إلى مخالفة هذه الروايات لتصريح الكتاب العزيز بالجواز، ولسيرة المسلمين وكلها تهم.

٩

التوسّل بالأسباب والوسائل

- ❑ الأسباب الطبيعية في نظرتين.
- ❑ التوسّل بالأسباب غير الطبيعية.
- ❑ التوسّل بذوات الأنبياء والصالحين.
- ❑ التوسّل بحقّ الأنبياء والصالحين.
- ❑ التوسّل بمقام النبيّ.

الأسباب الطبيعية في نظرتين:

تشهد النظرة العلمية، والفلسفية، بقيام النظام الكوني على أساس سلسلة الأسباب والمسبّبات، وارتباط كل ظاهرة من الظواهر الطبيعية، بعلّة وسبب ماديّ، وهذا النظام ـ بمجموعه ـ نظام ممكن، محتاج في ذاته وفعله، إلى واجبٍ غني بالذات، وحيثُ انّ الإمكان والافتقار لازم وجود الممكن، فالنظام الذي يتألّف من سلسلة العلل والمعلولات، يكون في وجوده وبقائه، وتأثيره وفعله، قائماً بالله تبارك وتعالى، دون أن يتمتع باستقلال ذاتي واستغناء عنه، حدوثاً وبقاءً، ذاتاً وفعلاً.

هذه هـي نظريـة الموحّد، وأمّـا المادّيّ فيعتقد بأصـالة العلـل الماديّة، واستقلالها في التأثير، من غير أن يسندها إلى واجب غني بالذات.

إنَّ الاعتقـاد بأنّ النظـام القائم مبني على العلـل والأسباب الطبيعيـة، مشتركٌ بين الإلٰهيّ والماديّ، وإنّما يفترقان في القـول بالتبعيّـة والأصالـة، فمن جَعَل وجودهما وتـأثيرهما تبعاً لوجود الله سبحـانه وإرادته فهو إلٰهيّ مـوحّدٌ، ومن أضفى عليها طابع الأصالـة وصفة الاستقلال، فهو ماديٌّ منكرٌ لما وراء الطبيعة.

إنَّ قضية عدم استقلال العلل الطبيعيـة أو استقلالها هو الحدّ الفاصل بين التوحيد والشرك، وبه يتميّـز الموحّد عن المشرك.

فـالله سبحـانــه يصف قـومــاً بـالشرك لأنّهم إذا واجهـوا المشـاكـل المستعصية، توجّهـوا إلى الله وإذا نجحوا عادوا إلى نسيانه، ويقـول سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسّ النَّاسَ ضُـــرٌّ دَعَوا رَبَّـهُمْ مُنيبينَ إِلَيْهِ ثُمَّ إِذا أَذاقَهُـمْ مِنْهُ رَحْـمَةً إِذَا فَريقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْـرِكُونَ﴾ (١).

والمراد من الشرك في الآيـة ليـس العـودة إلى عبـادة الأوثـان، بل المراد أوسع من ذلك، فإنّ الكثيرين وإن كانوا موحّدين عادوا بعد انكشاف الضرّ عنهم إلى حالتهم الأُولى فنسوا الله سبحانـه واعتمدوا على الأسباب الطبيعيّة مُضفين عليهـا طـابع الأصـالـة وصفـة الاستقـلال، ولا شكّ أنّ النظـر إلى الأسباب العاديّة من هذه النافذة، هو شرك.

١ ـ الروم: ٣٣.

فالمدرسة الإلهيّـة والمدرسة المادية، تشتركان في الاعتقاد بقـانون العلّية والمعلولية، وتفترقان في التبعيّة والأصالة.

ولا أرى أنّ أحداً يصف التوسّل بالأسباب (بما أنّها قائمةٌ بالله سبحانه ومـؤثّرة بإذنـه ومشيئته) بـالشرك، كيف وهـذا هو أسـاس الحياة، وطبيعتهـا ونظامها.

إنَّ القـرآن الكريـم يصف ذا القـرنين بقولـه: ﴿حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دُونِهِما قوماً لاَ يَكادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً * قَالُواْ يَا ذَا الْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلَىٰ أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً * قَالَ مَا مَكَّنّي فِيهِ رَبّي خَيْرٌ فَأَعينُوني بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً * ءَاتُوني زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُواْ حَتَّىٰ إِذا جَعَلَهُ ناراً قَالَ ءَاتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً * فَمَا اسْطاعُواْ أَنْ يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطاعُوا لَهُ نَقْباً * قَالَ هَذا رَحْمَةٌ من رَبّي فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبّي جَعَلَهُ دَكّاءَ وَكانَ وَعْدُ رَبّي حَقّاً﴾ [١].

إنَّ الإمعان في هذه الآيـات يقودنا إلى دروس عديـدة في التوحيد نُشير إلى بعضها:

١ـ إنّ طلـب العون من البشر لا يُنـافي التوحيد، ولا يـوجب الشرك، حتّى ولو فُسّـرَ الشرك بـأنّه عبارة عن التعلّق بغير الله سبحانـه. فهذا هو ذو القرنين الـذي يصف الله سبحانـه مقامه ومنـزلته بقـوله: ﴿إِنّا مَكَّنّا لَهُ فِي

١ـ الكهف: ٩٣ ـ ٩٨.

الأرْضِ وآتَيْناهُ مِنْ كُلّ شَـيْء سَبَباً﴾ [١] قد استعان بالناس لبناء السدّ ولم يرَ القرآن ذلك مُنافياً للتوحيد ومُستلزماً للشرك فقال: ﴿أَعينوني بِقُوّةٍ﴾ .

٢ــ إنّه تـوسّل في الأُمور الطبيعيـة بأسبـابها وعلم أنّ سُنّته الحكيمـة جرت على إيجاد المُسبّب بأسبابه فقال: ﴿ ءَاتُوني زُبَرَ الحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا ساوىٰ بَيْـنَ الصَّدَفَيْـنِ قَـالَ اْنفُخُواْ حَتَّـىٰ إِذا جَعَلَهُ نـاراً قَالَ ءَاتـوني أُفْرِغْ عَلَيْـهِ قِطْراً﴾ [٢].

٣ـ صرّح بأنّ لتأثير هذه الأسباب أمداً خاصّاً ينتهي بانتهاء قوتها، وما هذا إلاّ لأنّ السبب موجودٌ ممكنٌ قائم بالله سبحانه نافذ بتسبيبه وقد تعلّقت سُنته بفناء الأشيـاء وانتهاء أمدها، وإليه أشـار بقوله: ﴿ قَالَ هـذا رَحْمَةٌ من رَبيّ فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبيّ جَعَلَهُ دَكّاء﴾ [٣].

إنّ الاستغاثة بـالأحياء والاستعانة بهم أمرٌ جرت عليـه سُنَّة العقلاء في جميع العصور والأجيال، فهـذا موسى الكليم ـعليه وعلى نبيّنا السلامـ استغاثه بعض شيعته فأجابه بدون أن يخطر بباله أنَّ الاستغاثة لا تجوز إلاّ بالله سبحانه، قال عزَّ وجلَّ حاكيـاً تلك الواقعة: ﴿وَدَخَلَ المَدينَةَ عَلَـى حيِن غَفْلَـةٍ مِنْ أهْلِها فَوَجَدَ فيها رَجلَيْنِ يَقْتَتِلان هَذَا مِن شِيعَتِهِ وَهَـذا مِن عَدُوّهِ فَاْسْتَغاثَهُ الَّذي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَـىٰ الَّذي مِنْ عَدُوّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَىٰ فَقَضى عَلَيْهِ﴾ [٤].

١ـ الكهف: ٨٤.

٢ـ الكهف: ٩٦.

٣ـ الكهف: ٩٨.

٤ـ القصص: ١٥.

وما هذا إلاّ لأنّ الذي من شيعته كان يعتقد بأنّ موسى لو أغاثه فإنّما يغيثه بقوّة وبإذن من الله سبحانه، ويدلّ عليه عدم ردع موسى له.

ثمّ إنّ هذا هو الذكر الحكيم ـ مع أنّه يحصر النصر بالله بقوله: ﴿وَمَا النَّصْرُ إلاَّ مِنْ عِنْدِ اللهِ العَزِيزِ الحَكِيمِ﴾ [١]، يطلب النصر من المؤمنين ويقول عزّ وجلّ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ﴾ [٢].

كما ويمدح الأنصار الذين آووا النبيّ ونصروه ويقول سبحانه: ﴿الَّذِينَ ءَاوَوْا وَنَصرُواْ أُولئِكَ بَعْضهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ﴾ [٣].

هذه الآيات وأمثالها تكشف عن أصل رصين تدور عليه رحى الحياة، وهو مشروعية التمسّك بالأسباب الطبيعية وطلب النصر من الناس، والاستغاثة بهم بشرط أن يعتقد الطالب والمُستغيث أنّها أسبابٌ ووسائل غير أصيلة، قائمة بالله سبحانه، نافذة بإذنه ومشيئته، وانّ ذلك بالتالي ليس بشرك.

إنّ الاستعانة بالناس والاستغاثة بهم لا يتنافى مع حصر الاستعانة بالله في قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ لأنّ الاستعانة بهم (باعتقاد أنّه سبحانه هو الذي أمدَّهم بالقوّة فلو قاموا بعمل فإنّما يقومون به بحوله وقوّته سبحانه) يؤكّد حصر الاستعانة فيه عزّ وجلّ.

١ـ آل عمران: ١٢٦.

٢ـ محمّد: ٧.

٣ـ الأنفال: ٧٢.

وإنّما يُنافي الحصر لو اعتقدنا بأنّ للأسباب والوسائط أصالةً واستقلالاً في العمل والتصرّف، وهذا ممّا لا يليق أن يُنسب إلى موحّد أبداً.

إنّ القرآن حافلٌ بحصر أفعال بالله سبحانه، فهو ينسبها إليه في صورة الحصر، ولكنّه يعود فينسبها في نفس الوقت إلى غيره وليس هناك تهافت وتضاد بين الإسنادين والنسبتين لأنّ المحصور بالله سبحانه غير المنسوب إلى غيره.

يقول سبحانه: ﴿إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وفي الوقت نفسه يقول عزّ وجلّ ﴿ٱسْتَعِينواْ بِالصَّبْرِ والصَّلاةِ وَإِنّها لَكَبيرةٌ إِلاَّ عَلَىٰ ٱلخاشِعينَ﴾ [١].

يقول سبحانه: ﴿إِذَا مَرِضْتُ فَهُو يَشْفِينِ﴾ [٢]. وفي الوقت نفسه يقول تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِن بُطُونِها شَرابٌ مُختَلِفٌ أَلْوانُهُ فِيهِ شِفاءٌ لِلنَّاسِ﴾ [٣].

يقول سبحانه: ﴿قُلْ للهِ الشَّفاعَةُ جميعاً﴾ [٤]. وفي الوقت نفسه يثبت الشفاعة للملك يقول: ﴿كَمْ مِن مَلَكٍ في السّماواتِ لا تُغْنِى شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضىٰ﴾ [٥].

إلى غير ذلك من الآيات الورادة في وفاة النفوس وكتابة الأعمال ممّا أُسند فعله إلى الله بصورة الحصر وإلى غيره أيضاً، من غير تضاد أو تناقض لأنّ الفعل المحصور بالله هو غير المنسوب إلى غيره، فالصادر من الله يكون

١ـ البقرة: ٤٥.

٢ـ الشعراء: ٨٠.

٣ـ النحل: ٦٩.

٤ـ الزمر: ٤٤.

٥ـ النجم: ٢٦.

على سبيل الأصالة (أي بقدرة ذاتية) والاستقلال (أي بإرادة ذاتية) والصادر عن غير الله يكون بقدرة غير أصيلة وإرادة غير مستقلة ولهذا لا يكون هناك تعارض أو تناقض.

وهذا هو حقّ التوحيد الذي أرشدنا إليه البرهانُ العقليّ والتدبّرُ في الذكر الحكيم.

هذا كلّه راجع إلى التوسّل بالأسباب الطبيعية وقد عرفت أنّ التوسّل بها على وجهٍ لا يضرُّ بالتوحيد بل يؤيده ويؤكّده.

التوسّل بالأسباب غير الطبيعية:

إنّ عالم الكون عالمٌ فسيحٌ لا يحيط الإنسان بأسرارِه ودقائقِه، وإنّ ما اكتشفه الإنسانُ من ذلك ليس سوى قدر ضئيل بالنسبة إلى ما خفي عليه، كيف وما أُوتي الانسان من العلم إلاّ قليلاً [١].

فهذا هو العالم الفيزيائي الذائع الصيت «اينشتاين» وقف عند درج صغير في أسفل مكتبته وقال: إنَّ نسبة ما أعلم إلى مالا أعلم كنسبة هذا الدرج إلى مكتبتي [٢].

وعلى ضوء ذلك فللّه سبحانه في هذا العالم أسباب وعلل أُخرى لم يصل إليها البشر، اللّهمّ إلاّ الأمثل فالأمثل من الأنبياء والأولياء ممّن عرفوا

١ـ اقتباس من قوله سبحانه: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرّوحِ قُلِ الرّوحِ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ الإسراء: ٨٥.

٢ـ مجلة رسالة الإسلام العدد الأول: السنة الرابعة وكان عليه أن يقول: إنّه أقل حتّى من هذه النسبة.

الكتاب أو أُوتوا علماً منه (١).

إنَّ القرآن الكريم يصفُ عِجل السامريّ بقوله: ﴿فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلاً جَسَداً لَهُ خُوارٌ فَقالُوا هَذا إِلٰهُكُمْ وَإِلٰهُ مُوسىٰ فَنَسِيَ﴾ (٢).

وبعد ما رجع موسى من الميقات ورأى الحال فسأل السامري عن كيفية عمله وأنّه كيف قدر على ما صنع فأجابه بقوله: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصرُواْ بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِن أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوّلَتْ لِي نَفْسي﴾ (٣).

ففسَّر عمله بأنّه أخذ قبضةً من أثر الرسول فعالج بها مطلوبهم، فأصبحَ العجلُ ذا خوار، وهذا ينتج أنّه توسّل بسبب غير مألوف ولا معلوم.

ومن ـ يا تُرى ـ هذا الرسول الذي أشار إليه، وما أثره، فهو بعد غير معلوم.

إنّ هذا البحث لم يكن مقصوداً بالذات، إنّما المقصود بالذات، هو الإشارة إلى أنّ المسبّبات المعنوية، كتحصيل رضاء الله سبحانه والتقرّب منه لا يحصل أيضاً إلاّ بأسباب، فكما أنّ التعلّق بالأسباب المادية لأجل تحصيل مُسبَّباتها لا يُنافي أصل التوحيد، فهكذا الحال في الأُمور المعنوية فهي لا تحصل إلاّ بالتمسّك بأسبابها.

١ـ إشارة إلى قوله عزَّ وجلّ: ﴿وَقالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْم مِنَ الكِتابِ أنا ءاتيك بِهِ قَبْلَ أن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ النمل: ٤٠.

٢ـ طه: ٨٨.

٣ـ طه: ٩٦.

وإلى هذه الحقيقة يُشير قوله سبحانه حيث يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجاهِدُوا في سَبيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [١].

فالله سبحانه حثّنا للتقرّب إليه على التمسّك بالوسائل وابتغائها، والآية دعوة عامّة لا تختص بسببٍ دون سببٍ، بل تأمر بالتمسُّك بكلّ وسيلة توجب التقرّب إليه سبحانه. وعندئذ يجب علينا التتبع في الكتاب والسنّة، حتّى نقف على الوسائل المقرّبة إليه سبحانه، وهذا ممّا لا يعلم إلاّ من جانب الوحي، والتنصيص عليه في الشريعة، ولولا ورود النصّ لكان تسمية شيء بأنّه سببٌ للتقرّب، بدعةً في الدين، لأنّه من قبيل إدخال ما ليس من الدين في الدين.

ونحن إذا رجعنا إلى الشريعة نقف على نوعين من الأسباب المقرّبة إلى الله سبحانه:

(النوع الأوّل): الفرائض والنوافل التي ندب إليها الكتاب والسنّة، ومنها التقوى، والجهاد الواردين في الآية، وإليه يُشير عليّ أمير المؤمنين ـ عليه السلام ـ ويقول: «إنّ أفضل ما توسّل به المتوسّلون إلى الله سبحانه وتعالى، الإيمان به، وبرسوله، والجهاد في سبيله، فإنّه ذروة الإسلام، وكلمة الإخلاص فإنّها الفطرة، وإقامة الصلاة فإنّها الملّة، وإيتاء الزكاة فإنّها فريضة واجبة، وصوم شهر رمضان فإنّه جُنّة من العقاب، وحجّ البيت واعتماره فإنّهما ينفيان الفقر، ويرحضان الذنب، وصلة الرحم فإنّها مثراة في المال، ومنسأة من الأجل، وصدقة السرّ فإنّها تكفّر الخطيئة، وصدقة العلانية فإنّها تدفع ميتة

---

١ ـ المائدة: ٣٥.

السوء، وصنائع المعروف فإنّها تقي مصارع الهوان»[١].

غير أنّ مصاديق هذا النمط من الوسيلة لا تنحصر في ما جاء في الآية أو في تلك الخطبة بل هي من أبرزها.

(النوع الثاني): وسائل ورد ذكرها في السنّة الكريمة، وحثّ عليها الرسول وتوسّل بها الصحابة والتابعون، وكلّها توجب التقرّب إلى الله سبحانه، وهذا هو الذي نتطلّبه في هذا الأصل حتّى يُعلم أنّ الوسيلة لا تنحصر في الفرائض والمندوبات الرائجة بل هناك وسائل للتقرّب دلّت عليها السنّة وهو التوسّل بالنبيّ الأكرم على أشكاله المختلفة التي سنذكرها، فهذا علي -عليه السلام- يقول في وصفه: «اللّهمّ اعل على بناء البانين بناءه، وأكرم لديك نُزُلَه، وشرّف عندك منزله وآته الوسيلة وأعطه السناء والفضيلة واحشرنا في زمرته»[٢].

فإذا وقفنا على أنّ النبيّ هو الوسيلة المقرّبة إلى الله، فيجب علينا مراجعة السنّة لنطَّلع على كيفية التوسّل به فهي تبيّن لنا تلك الكيفية.

وإذا بلغ الكلام إلى هنا، فلا مناص من أن نبسط الكلام في بيان أقسام التوسّل، فإنّ للتوسّل أقساماً متنوّعة هي:

١ـ توسّل المؤمن إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته، وقد ورد هذا النوع من التوسل في كثير من الأدعية والروايات ولا حاجة للبيان، والتمثيل.

١ـ نهج البلاغة، الخطبة: ١١٠.

٢ـ المصدر نفسه: ١٠٦.

٢ـ توسّل المؤمن إلى الله تعالى بأعماله الصالحة وقد ورد هذا النوع من التوسّل في الروايات، فقد روى البخاري ومسلم والنسائي عن أبي عمران: أنَّ رسول الله ﷺ قال: بينما ثلاثة نفر ممن كان قبلكم، يمشون إذ أصابهم مطر فآووا إلى غار فانطبق عليهم فقال بعضهم لبعض : إنّه والله يا هؤلاء لا ينجيكم إلاّ الصدق، فليدع كلّ رجل منكم بما يعلم أنّه قد صدق فيه ... فذكر كلّ واحد عملاً صالحاً أتى به لله سبحانه، وكلّما ذكر واحد عمله، انساخت الصخرة قليلاً، حتّى إذا تمّ كلامهم فرّج الله عنهم فخرجوا [1].

فقد توسّل كل واحد من الأشخاص المذكورين بعمله الصالح، واستجيبت دعوته ، ونجى من الهلكة.

٣ـ التوسّل بدعاء المؤمن ومن أبرز مصاديقه التوسّل بدعاء النبيّ الأكرم وهذا ما حثّ عليه الذكر الحكيم ولم يختلف في جوازه اثنان، قال سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنهُمْ إِذْ ظَلَمُواْ أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَٱسْتَغْفَروا اللهَ وَٱسْتَغفَرَ لَهُمْ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَّحيماً﴾ [2].

وقال سبحانه حاكياً عن ولد يعقوب: ﴿يا أَبانا ٱسْتَغفِرْ لَنا ذُنُوبَنا إِنّا كُنّا خاطِئِينَ * قالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبّي إِنَّهُ هُو الغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [3].

وقال سبحانه منددّاً بتولّي المنافقين عن النبيّ والتوسّل بدعائه: ﴿وَإِذا قيلَ لَهُمْ تَعالَواْ يَسْتَغفِرْ لَكُمْ رَسُولُ اللهِ لَوّواْ رُؤوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ

١ـ الدرّ المنثور ٤: ٢١٣ تفسير سورة الكهف.

٢ـ النساء: ٦٤.

٣ـ يوسف ٩٧ـ ٩٨.

يَصُدّونَ وَهُمْ مُسْتَكْبِرونَ﴾ [١].

ولأجل ذلـك كان الصحـابـة والتـابعون يتـوسّلـون بـالنبيّ في تفـريج الكُربات وتيسير العسير و إنزال الغيث إلى غير ذلك من المصاعب والمحن.

هذا كلّه ممّـا لا يُناقش فيه أحد حتّى الوهابيون عامّة تبعاً لابن تيمية [٢]. لقيام الأدلّة الصريحة عليها، ووقوعها أكثر من مرّة بلا نكير ولا اشكال.

إنّما الكلام في التوسّل بـدعاء النبي بعد وفاته، وهذا هـو الذي حرَّمته الوهابيـة وربَّما وصفوه بالشركية، ولكن أين هـو من الشرك؟ إذ كيف يمكن أن يكون طلب الـدعاء من النبيّ في حال حيـاته عين التوحيد ويكـون بعد وفاته عين الشرك، مع وحدة العملين من حيث الماهيّة والحقيقة؟!!

نعم لو كان هناك كلام واشكال في هذا المورد فليكن في كون هذا النوع من التـوسّـل مُفيداً أم لا، لا كـونـه مُنـافياً للتـوحيـد ومُتـلائماً مع الشرك، وتـوضيح ذلك أنّ الطلـب من غير الله إن كـان شركـاً فلا فـرق أن يكـون في حياته أو بعد مماته. نعم يمكن أن يدّعي أحد أنّه مفيد ومجدٍ في حال الحياة وغير مفيد ولا مجدٍ بعد الوفاة لكون المدعوّ ميّتاً، وهذا أمر آخر غير التوحيد والشرك.

وستعرف عند البحث عن حياة الأنبياء و إمكان الإتصال بهم، أنّه من التوسّلات المفيدة، إذ المفروض أنّهم أحيـاء، والمفروض أنّهم يسمعون كلامنا حسب ما يأتي من الـروايات، وعلى ضوء ما ذُكر فلا مانـع من هذا النوع من

---

١ ـ المنافقون: ٥.

٢ ـ مجموعة الرسائل والمسائل ١: ١٤.

التوسّل، وأمّا إجابتهم فهو موقـوف على توفّر شروط الإجابة كما هو الحال في طلب الدعاء في حال حياتهم، ويدل لفيف من الروايات على وقوع هذا النوع من الدعاء والطلب من النبيّ الأكرم ﷺ بعد وفاته، ونحن نكتفي بروايتين:

١ـ ما رواه ابن عساكر في تاريخه وابن الجوزيّ في «مُثير الغرام الساكن» وغيرهما بأسانيدهم إلى محمّد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة فأتيت قبر النبيّ ﷺ فزرته وجلست بحـذائه وجاء اعرابيٌ فزاره ثمّ قـال: يا خيرَ الرسل إنَّ الله أنزل عليـك كتاباً صـادقاً قـال فيه: ﴿وَلَـوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُـوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ واسْتَغْفَرَ لَـهُمْ الرَسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوّاباً رَحِيماً﴾ وإنّي جئتك مُستغفراً ربَّك من ذنوبي مُتشفّعاً بِكَ (وفي رواية: وقد جئتك مُستغفراً من ذنبي مُستشفعاً بك) إلى ربّي، ثمّ بكى وأنشأ يقول:

يا خير من دُفنت بالقاع أعظُمهُ   فطابَ من طِيبهـنَّ القاعُ والأكمُ
نفسي الفـداءُ لِقبرٍ أنت سـاكنُـه   فيـه العفافُ وفيـهِ الجودُ والكَـرَمُ

ثمّ استغفر وانصرف(١).

وقد رواه غير محمّد بن حرب.

٢ـ ما رواه البيهقيّ عن مالك قـال: أصاب الناس قحط في زمان عمر ابن الخطاب، فجـاء رجلٌ إلى قبر النبيّ ﷺ فقال: يـا رسول الله، استسق اللهَ لأُمّتك فإنّهم قـد هَلَكوا، فأتاه رسـول الله في المنام، وقال: إئت عمـر فأقرئه

١ـ وفاء الوفا ٤: ١٣٦١.

السلام وأخبره أنّهم مُسقون [١].

فالحديث يكشف عن أنَّ التوسّل بدعاء النبيّ بعد رحلته كان رائجاً، ولو كان عملاً مُحرَّماً أو بدعة فلماذا توسّل هذا الرجل بدعائه، ولماذا بكى الخليفة بعد سماع كلامه كما ورد في ذيل الحديث؟

وقد روي في هذا النوع من التوسّل طائفة من الروايات مبثوثة في الكتب، وهي بين صحيحة السند وضعيفة السند لكنّها تشترك في اثبات شيوع هذا النوع من التوسّل بعد رحلة النبيّ الأكرم ﷺ.

هذا مضافاً إلى أنّ هذه الروايات أصحَّت أسانيدها أم لا تكشف عن امرين:

١ـ أنّ طلب الدعاء من النبيّ بعد رحلته لا يُنافي التوحيد وإلاّ لما فعله المسلمون الأوائل.

٢ـ أنّ طلب الدعاء منه في هذه الحالة ليس أمراً محرَّماً.

وذلك أنّه لو كان التوسّل بدعاء النبيّ ﷺ بعد رحلته شركاً، يوجب الخروج عن الدين أو أمراً محرّماً، يجب أن يتوب عنه المسلم، فلماذا قام كثير من المحدّثين بعد رحلته ﷺ بنقلها والاحتجاج بها؟!

أوَليس عاراً على محدّثٍ إسلامي أن ينقل في جامعه حديثاً عن النبيّ ﷺ يشتمل على الشرك والأمر المحرّم الواضح ولا يعلّق عليه بشيء.

ولنفترض أنّ بعض رواة هذه الأحاديث قد وضع هذه الروايات لغاية

١ـ دلائل النبوّة ج٧، باب ما جاء في رؤية النبيّ في المنام: ٤٧.

دنيوية، ولكن الواضع إنّما يضع الحديث لأجل إلفات الناس إليه، ولو كان ذلك الأمر موجباً للشرك أو الحرمة فالدواعي عن وضعها كانت مصروفة.

اذن فكثرة هذه الروايات ونقلها على مدى العصور تعرب عن أنّ نفس العمل (طلب الدعاء من النبيّ) كان أمراً توحيدياً مباحاً، وجاء الراوي ينقل المطلب على عفو الخاطر، فالروايات على كل تقدير حجّة في المقصود.

التوسّل بالأنبياء والصالحين أنفسهم:

هذا قسم آخر من التوسّل يتضمّن التوسّل إلى الله تبارك وتعالى بأنبيائه وخاصّة أوليائه، والسؤال منه بحقّهم وهو يتضمّن إحلافه سبحانه بحقّ أوليائه، وإن كان الإحلاف غير مصرَّح به وقد مضت روايات هذا القسم عند البحث عن ملاك التوحيد والشرك غير أنّنا نوردها في المقام بملاك آخر وهو صحّة التوسّل وهذا القسم ممّا ينكره الوهابيون مع أنّه ورد في هذا المجال الأحاديث الصحيحة وإليك البيان:

أ ـ توسّل الضرير بالنبيّ الأكرم:

عن عثمان بن حنيف أنّه قال: إنّ رجلاً ضريراً أتى النبيّ ﷺ فقال: أُدع الله أن يُعافيني؟

فقال ﷺ: إن شئت دعوت وإن شئت صبرت وهو خير؟

قال: فادعه، فأمره ﷺ أن يتوضأ فيُحسن وضوءه ويصلّي ركعتين

ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهمّ إنّـي أسألُكَ وأتوجّهُ إليك بنبيّك محمّـد نبيّ الرحمة، يامحمّد إنّـي أتوجَّه بكَ إلى ربّـي في حاجتي لتُقضى، اللّهمّ شَفّعهُ فيّ».

قال ابن حنيف: «فـوالله ما تفرّقنا وطالَ بنـا الحديث حتّى دخل علينا كأن لم يكن به ضرٌّ» (١).

إنَّ الاستـدلال بـالـروايـة مبنـيٌّ على صحَّتهـا سنـداً وتمامية دلالتهـا مضموناً.

أمّا الأوّل: فلم ينـاقش في صحّتها إلاّ الجاهل بعلم الـرجال، حتّى أنّ ابن تيمية قال: قـد روى الترمذي حديثاً صحيحاً عن النبـيّ أنّه علَّم رجلاً أن يدعو فيقـول: اللّهمّ إنّـي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك. وروى النسائي نحو هذا الدعاء (٢).

وقال الترمذي: هذا حديثٌ حقٌّ حسن صحيح.

وقال ابن ماجة: هذا حديثٌ صَحيحٌ.

وقال الرفاعيّ: لا شكَّ أنّ هذا الحديث صحيحٌ ومشهور (٣).

وبعد ذلك فلم يبق لأحد التشكيك في صحّة سند الحديث إنّما الكلام في دلالته و إليك البيان:

١ـ مجموعة الرسائل والمسائل ١: ١٣.

٢ـ التوصّل إلى حقيقة التوسّل: ١٥٨.

٣ـ صحيح الترمذي ٥، كتـاب الدعوات الباب ١١٩، برقم ٣٥٧٨ وسنن ابن مـاجة ١: ٤٤١ برقم ١٣٨٥، مسند أحمد ٤: ١٣٨ إلى غير ذلك.

إنّ الحديث يدلُّ بوضوح على أنّ الأعمى توسّل بذات النبيّ بتعليم منه ﷺ وذلك الأعمى وإن طلب الدعاء من النبيّ الأكرمْ في بدء الأمر ولكن النبيّ علَّمه دعاء تضمَّن التوسّل بذات النبيّ، وهذا هو المهمّ في تبيين معنى الحديث.

وبعبارة ثانية؛ إنّ الذي لا ينكر عند الإمعان في الحديث أمران:

الأوّل: أنّ الراوي طلب من النبيّ ﷺ الدعاء ولم يظهر منه توسّلٌ بذات النبيّ.

الثاني: أنّ الدعاء الذي علّمه النبيّ، تضمَّن التوسّل بذات النبيّ بالصراحة التامّة، فيكون ذلك دليلاً على جواز التوسّل بالذات.

وإليك الجمل والعبارات التي هي صريحة في المقصود.

١ـ اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّك:

إنّ كلمة «بنبيّك» مُتعلّق بفعلين هما «أسألك» و «أتوجّه إليك» والمراد من النبيّ ﷺ نفسه القدسية وشخصيته الكريمة لا دعاءه.

وتقدير كلمة «دعاء» قبل لفظ «بنبيّك» حتى يكون المراد هو «أسألك بدعاء نبيّك أو أتوجّه إليك بدعاء نبيّك» تحكّم وتقدير بلا دليل. وتأويل دون مبرر ولو أنّ مُحدّثاً ارتكب مثله في غير هذا الحديث لرموه بالجهميّة والقدريّة.

٢ـ محمّد نبي الرحمة:

لكـي يتّضح أنّ المقصـود هـو السـؤال من الله بـواسطـة النبـيّ ﷺ وشخصيته فقـد جاءت بعـد كلمة «بنبيّك» جملـة «محمّد نبيّ الـرحمة» لكي يتّضح نوع التوسّل والمتوسَّل به بأكثر ما يمكن.

٣ـ يا محمّد إنّـي أتوجّه بك إلى ربّـي:

إنّ جملـة «يا محمّـد إنّـي أتـوجّـه بك إلى ربّـي» تـدلّ على أنّ الـرجل الضرير ـ حسب تعليم الرسول ـ إتّخذ النبـيّ نفسه، وسيلةً في دعائه أي أنّه توسّل بذات النبيّ لا بدعائه ﷺ.

٤ـ وشفّعه فيّ:

إنّ قـولـه «وشفّعـه فيّ» معنـاه يـا ربّ إجعـل النبـيّ شفيعـي وتقبّل شفـاعته في حقّي، وليـس معناه تقبّل دعـاءه في حقّي، فإنّـه لم يرد في الحديث أنَّ النبيّ دعا بنفسه حتّى يكـون معنى هذه الجملة: استجب دعاءه في حقّي.

ولو كان هنـاك دعاءٌ من النبيّ، لذكره الـرواي إذ ليس دعاؤه ﷺ من الأُمور غير المهمة حتّى يتسامح الراوي في حقّه.

وحتى لـو فـرضنـا أنّ معناه «تقبّـل دعاءه في حقّـي» فـلا يضرُّ ذلك بالمقصود أيضـاً، إذ يكون على هذا الفرض هناك دعاءان: دعـاء الرسول ولم ينقل لفظه، والـدعاء الذي علّمه الـرسول للضرير، وقد جـاء فيه التصريح بالتوسّل بذات النبيّ وشخصه وصفـاته، وليس لنا التصرّف في الدعاء الذي علّمه الرسول للضرير، بحجّة أنّه كان هناك للرسول دعاءٌ.

إجابة عن سؤال:

إنّ ابن تيمية احتمـل أن يكون هذا الحديث مـن قبيل التوسّل بـدعاء النبيّ الأكرم، ولكنّه خلط بين الأمرين أو الحالتين:

الأُولى: المحـاورة الابتـدائية التـي وقعت بين النبي والضريـر، فكـان الموضوع في هـذه المحاورة هـو: دعاء الرسـول بلا شك، أي طلـب الضرير الدعاء من النبيّ.

الثانيـة: الدعـاء الذي علّمه الـرسول للضريـر، فإنّه تضمّن التـوسّل بذاتِ النبيّ.

والتصرّف في هـذا النصّ بحجّـة أنّ الموضـوع في المحاورة الأُولى هـو الدعاء، تصرّف عجيب، فإنّ الأعمى لم يدر في خلده في البداية سوى دعاء الرسول المُستجاب، ولكن الرسول علّمه دعاءً جاء فيه التوسّل بذات النبيّ، وقد عرفت تفصيله وتحليله.

ب ـ التوسّل بالنبيّ بتعليم من الصحابيّ الجليل:

روى الطبرانيّ عن أبي أُمامة بن سهل بن حنيف عن عمّه عثمان بن حنيف، أنَّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان بن عفان (رض) في حاجةٍ له، فكان عثمان لا يلتفت إليه ولا ينظر في حاجته، فلقي ابن حنيف فشكى ذلك إليه فقال له عثمان بن حنيف: إئت الميضأة فتوضأ ثمّ إئت المسجد فصلّ فيه ركعتين ثمّ قل: «اللّهمّ إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّنا محمّد ﷺ نبيّ الرحمة يا محمّد إنّي أتوجّه بك إلى ربّي فتقضي لي حاجتي» فتذكر حاجتك ورُحْ حتّى أروحَ معك.

فانطلق الرجل فصنع ما قال له، ثمّ أتى باب عثمان بن عفان (رض) فجاء البوّاب حتّى أخذ بيده فأدخله على عثمان بن عفان (رض) فأجلسه معه على الطنفسة فقال: حاجتك؟ فذكر حاجته وقضاها له ثمّ قال له: ما ذكرت حاجتك حتّى كان الساعة. وقال: ما كانت لك من حاجة فاذكرها.

ثمّ إنّ الرجل خرج من عنده فلقي عثمان بن حنيف فقال له: جزاك الله خيراً ما كان ينظر في حاجتي ولا يلتفت إليّ حتّى كلّمتَه فيّ، فقال عثمان بن حنيف: والله ما كلّمته، ولكنّي شهدتُ رسول الله ﷺ وأتاه ضريرٌ فشكى إليه ذهاب بصره فقال له النبيّ ﷺ : فتصبر؟ فقال: يا رسول الله ليس لي قائدٌ فقد شقّ عليّ.

فقال النبيّ ﷺ : أئت الميضأة فتوضأ ثمّ صلِّ ركعتين، ثمّ ادع بهذه الدعوات.

قال ابن حنيـف: فوالله ما تفرّقنـا وطال بنا الحديث حتّى دخل علينا الرجل كأنّه لم يكن به ضرّ قط [١].

ج ـ توسّل الخليفة بعمّ النبيّ ﷺ:

إنّ سيرة المسلمين في حيـاة النبيّ ﷺ وبعدها، تعـرب عن أنّهم كانوا يتوسّلون بـأولياء الله والصالحين من عباده، دون أن يدور في خلـد أحدٍ منهم بأنّه أمـرٌ حرام أو شرك أو بدعـة، بل كانوا يـرون التوسّل بدعـاء الصالحين طـريقاً إلى التـوسّل بمنـزلتهم، وشخصيتهـم، فإنّه لـو كـان لدعـاء الـرجل الصالـح أثر فإنّما هـو لأجل قداسـة نفسه وطهارتها، ولـولاهما لما استجيبت دعوته، فما معنى الفـرق بين التوسّل بدعاء الصالـح وبين التوسّل بشخصه وذاته، حتّى يكون الأوّل نفس التوحيد والآخر عين الشرك أو ذريعةً إليه.

إنّ التوسّل بـالصالحين والطيبين والمعصومين مـن الذنب والمخلصين من عبـاد الله لم يكن قط أمـراً جديـداً بين الصحابـة بل كان ذلـك امتداداً للسيرة الموجودة قبـل الإسلام، فقد تضـافرت الـروايات التأريخيـة على ذلك وإليك البيان:

د ـ استسقاء عبد المطّلب بالنبيّ وهو رضيع:

لقد استسقى عبـد المطلب بالنبيّ الأكرم وهـو طفل صغير، حتّى قال

١ـ المعجم الكبير للحافظ سليمان بن أحمد بن أيـوب اللخمي الطبراني (٣٦٠) ٩: ١٦ـ١٧، باب ما أُسند إلى عثمان بن حنيف برقم ٨٣١٠ والمعجم الصغير له أيضاً ١: ١٨٣ ـ ١٨٤.

ابن حَجَر: إنَّ أبا طالب يشير بقوله:

وأبيضُ يُستسقَى الغمامُ بِوجهِهِ ثمالُ اليَتامىٰ عصمة للأرامِلِ

إلى ما وقَعَ في زمن عبد المطلب حيث استسقى لقريش والنبيّ معه غلام [1].

هـ ـ استسقاء أبي طالب بالنبيّ وهو غلام:

اخرج ابن عساكر عن أبي عرفة، قال: قدمتُ مكّة وهم في قحط فقالت قريش: يا أبا طالب أقحَطَ الوادي وأجدب العيالُ، فهلمّ فاستسقِ، فخرج أبو طالب ومعه غلام ـ يعني: النبيّ ﷺ ـ كأنّه شمسُ دُجىً تجلّتْ عن سحابةٍ قَتماء، وحوله اغيلِمة فأخذه أبو طالب فألصقَ ظهره بالكعبة، ولاذ إلى الغلام وما في السماء قذعة، فأقبل السحابُ من هاهنا وهاهنا واغدقَ واغدودقَ وانفجرَ له الوادي وأخصبَ النادي والبادي وفي ذلك يقول أبو طالب:

وأبيضُ يستسقى الغمامُ بوجهه ثُمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل [2]

وقد كان استسقاء أبي طالب بالنبي وهو غلام، بل استسقاء عبد المطلب به وهو صبي أمراً معروفاً بين العرب، وكان شعر أبي طالب في هذه الواقعة ممّا يحفظه أكثر الناس.

١ـ فتح الباري ٢: ٣٩٨ ودلائل النبوّة ٢: ١٢٦.
٢ـ فتح الباري ٢: ٤٩٤ والسيرة الحلبيّة ١: ١١٦.

ويظهر من الـروايات أنّ استسقاء أبي طالـب بالنبيّ ﷺ كان موضع رضا مـن رسول الله ﷺ فإنّه بعـد ما بُعث للرسالة استسقـى للناس، فجاء المطرُ وأخصب الوادي فقال النبيّ: «لو كان أبو طالب حيّاً لقرّت عيناه، مَن يُنشدنا قولَه» ؟

فقام عليّ ـ عليه السلام ـ وقال: يا رسول الله ﷺ كأنّك أردتَ قوله:

وأبيضُ يستسقى الغمامُ بوجهه ثُمالُ اليتامى عصمةٌ للأرامل (١)

إنّ التـوسّل بـالأطفـال الأبريـاء في الاستسقـاء أمـرٌ ندب إليـه الشرع الشريف، فهذا هو الإمام الشـافعي يقول في آداب صلاة الاستسقاء: وأُحبُّ أن يخرج الصبيانُ، ويتنظّفوا للاستسقاء وكبـار النساء ومن لا هيئة له منهنّ، ولا أُحبُّ خروج ذوات الهيئة ولا آمر بإخراج البهائـم (٢).

ومـا الهدف من إخـراج الصبيـان والنسـاء الطـاعنـات في السـن، إلاّ استنزال الرحمة بهم وبقداستهم وطهـارتهم، وكلُ ذلك يعرب عن أنَّ التوسّل بالأبريـاء والصلحاء والمعصومين مفتاح استنزال الـرحمة، وكأنّ المتوسّل بهم يقول: ربّي وسيدي إنّ الصغير معصومٌ من الذنب، والكبير الطاعن في السن أسيرُك في أرضك، وكلتـا الطـائفتين أحقّ بـالرحمة والمرحمة، فـلأجلهم أنـزل رحمتك إلينا، حتّى تعمّنا في ظلّهم.

فإنّ السـاقي ربّما يسقي مساحـة كبيرة لأجل شجرة واحـدة وفي ظلّها

١ـ إرشاد الساري ٢: ٣٣٨.
٢ـ الأم ١: ٢٣٠.

تسقى الأعشاب وسائر الخضروات غير المفيدة.

وفي ضـوء التحليل تقـدر على تفسير تـوسّـل الخليفـة بعمّ الـرسـول: «العباس بـن عبد المطلب» الـذي سيمر عليك، وأنّه كـان توسّـلاً بشخصه وقداسته وصلتـه بالرسول وتعـرف بالتالي انّ هذا العمـل كان إمتداداً للسيرة المستمرة قبل هذا، وانّ هذا لا يمتُّ إلى التـوسّل بدعاء العباس بصلة، وإنّما هو شيء اخترعه الوهابيون للحفاظ على موقفهم المسبق في هذه المسائل.

و ـ التوسّل بعمّ النبيّ ﷺ :

ما تعرّفت عليه سابقاً كانت مقـدمة لدراسة هذا الحديث الذي يرويه البخاري في صحيحـه ويقول: «كان عمـر بن الخطاب إذا قحطـوا استسقى بالعبّـاس بن عبد المطلـب (رض) وقال: اللّهمّ إنّا كنّـا نتوسّل إليـك بنبيّنا فتسقينا، وإنَّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنا فاسقنا. قال : فيسقون»[١].

هـذا نصّ البخاري وهـو يدلّ على أنَّ عمـر بن الخطـاب عند دعـائه واستسقائه توسّل بعمّ النبيّ وشخصه وشخصيتـه وقداسته وقرابته من النبيّ، لا بدعائه ويدلّ على ذلك أُمور:

١ ــ قول الخليفـة عند الـدعاء. قـال: «اللّهمّ كنَّا نتـوسّل إليك بنبيّنـا فتسقينا وإنَّـا نتوسّل إليك بعمّ نبيّنـا فاسقنا» وهـذا ظاهر في أنّ الخليفـة قام بنفسه بالدعاء عند الاستسقاء، وتوسّل بعمّ الرسول في دعائه.

١ـ صحيح البخاري، باب صلاة الاستسقاء ٢: ٣٢.

ولو كـان المقصود هـو التوسّـل بدعـاء العباس لكـان على الخليفة أن يقول: يـا عمّ رسـول الله كنّا نطلب الـدعاء مـن الرسـول فيسقينا الله والآن نطلب منك الدعاءَ فادعُ لنا.

٢ـ روى ابن الأثير كيفية الاستسقاء فقال: استسقى عمر بن الخطاب بالعبّاس عـام الرمادة لمّا اشتـدّ القتل فسقـاهـم اللهُ تعـالى بـه، وأخصبت الأرض، فقال عمر: هذا والله الوسيلة إلى الله والمكان منه، وقال حسان:

سـأل الإمـامُ وقـد تتـابـع جَـدبُنـا فسقـى الغمام بغُـرّةِ العبّـاسِ
عـمّ النبيّ وصنـوِ والـدِهِ الـذي وَرِثَ النبـيَّ بـذاكَ دون النـاسِ
أحيى الإلـهُ بـه البـلادَ فـأصبحتْ مُخضرَّة الأجنـاب بعـدَ اليـأس

ولمّا سقى النـاس طفقوا يتمسَّحـون بالعبّـاس ويقـولون: هنيئـاً لك ساقيَ الحرمين (١).

أمعنِ النظر في قول الخليفة: هذا والله الوسيلة.

٣ـ ويظهر مـن شعر حسان أنّ المُستسقي كان هو نفـس الخليفة وهو الـداعي حيث قـال: «سألَ الإمـامُ ...» وكان العبّـاسُ وسيلتـه لاستجابـة الدعاء.

وأظنّ أنّ هذه الروايات الصحيحة لا تُبقي شكاً ولا ريباً في نفس أحد

١ـ الجزري: أُسد الغابة ٣: ١١١، طبعة مصر.

في جواز التوسّل بأشخاص الصالحين وذواتهم فضلاً عن دعائهم، وإليك البحث في الأقسام الأُخر للتوسّل.

التوسّل بحقّ الأنبياء والصالحين:

إنّ من أقسام التوسّل، التوسّل بحقّ الأنبياء الذي تفضل به سبحانه عليهم، فجعلهم أصحاب الحقوق، وأوجب على نفسه أداءها.

وليس معنى ذلك أنّ للعباد، أو لبعضهم على الله حقّاً ذاتياً يلزم عليه تعالى الخروج والتحلّل منه، بل الحقّ كلّه لله. وإنّما المراد هو المقام والمنزلة التي يمنحها سبحانه تكريماً لهم، وليس لأحدٍ على الله حقٌّ إلاّ ما جعله الله عزّ وجلّ حقّاً على نفسه تفضلاً وتكريماً، قال سبحانه: ﴿**وَكَانَ حَقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ**﴾ [١].

ويدل على ذلك من الروايات ما رواه أبو سعيد الخدري: قال رسول الله ﷺ: «ما خَرجَ رجل من بيته إلى الصلاة وقال: اللّهمّ أسألك بحقِّ السائلين عليك وبحقّ ممشاي هذا، فإنّي لم أخرج أشراً ولا بطراً ولا رياءً ولا سُمعةً وخرجت اتّقاء سَخَطِك وابتغاءَ مَرضاتِك، فأسألك أن تُعيذني من النار وأن تغفرَ لي ذنوبي إنّه لا يغفر الذنوب إلاّ أنت، إلاّ أقبل الله عليه بوجهه، واستغفر له سبعون ألف ملك» [٢].

وما رواه عمر بن الخطاب، قال: قال رسول الله ﷺ: «لمّا اقترف آدم

١ـ الروم: ٤٧.

٢ـ ابن ماجة ج١ باب المساجد: ٢٦١، ومسند أحمد ٣: ٢١.

الخطيئة قال: ربّـــي أسألك بحقّ محمّد لما غفرت لي، فقـال الله عزَّ وجلّ : يا آدم كيف عرفت محمّداً ولم أخلقه؟ قال: لأنّكَ لما خلقتني بيدكَ ونفختَ فيّ من روحك، رفعتُ رأسي فرأيت على قوائم العـرشِ مكتوباً: لا إلٰه إلاّ الله محمّدٌ رسـول الله ، فعلمت أنّك لم تضف إلى اسمك إلاّ أحـبَّ الخلق إليك، فقالَ الله عزَّ وجلّ: صدقت يا آدم إنّه لأحبُّ الخلقِ إليّ وإذا سألتني بحقّه فقد غفرتُ لك ولولا محمّدٌ ما خلقتك»[1].

وقد عرفت في الفصل المعقود لبيان ملاك التوحيد والشرك عند البحث عن احلافه سبحانه بحقّ أنبيـائه حديث أنس بن مالك على وجه التفصيل وأنّه ﷺ قال عند دفن فاطمة بنت أسد: «الله الذي يُحيي ويميت وهو حيّ لا يموت إغفر لأُمّي فاطمة بنت أسـد ولقّنها حُجّتها ووسّع عَليها مدخلها بحقِّ نبيّك والأنبياء الذين من قبلي فإنّك أرحم الراحمين».

والروايـات الواردة في هذا المجال كما يمكن الاستـدلال بها على جواز الإحلاف يمكن أيضاً الاستدلال بها على جـواز التوسّل بهم غير أنّ التوسّل مدلولٌ مطابقي والحلف مدلولٌ التزامي.

التوسّل بمقام النبيّ ﷺ ومنزلته وجاهه:

إنّ هذا النوع من التوسّل ليس قسماً آخربل يرجع إلى التوسّل بحقّهم، بل التحقيق هـو: أنَّ التوسّـل ليس له إلاّ قسم واحـد وهو تـوسيط قـداسة

١ـ دلائل النبـوّة ومعرفـة أحوال صـاحب الشريعـة لأبي بكر أحمد بن الحسين البيهقـيّ (ت ٣٨٤ـ م ٢٥٨) طبع دار الكتب العلمية ٥: ٤٨٩.

النبيّ وشخصيته وحرمته عند الله تبارك وتعالى، حتّى يستجيب دعاء الإنسان لأجلها ولو كان لدعاء النبيّ أثر هو الاجابة فإنّما هو في ظل قداسته وشخصيته. وهناك كلمة قيّمة للشيخ محمّد الفقي في هذا الصعيد نأتي بنصّها:

يمتاز الأنبياء والرُسل عن سواهم بمميزات لها خطورتها وعظم شأنها، ويتمتعون بخصوصيات تجلُّ عن التقدير والتعبير، فهم يتفاوتون عن الخلائق بشتى الخوارق، ويختصون بأنواع رائعة من المعجزات وأسمى المقامات: ﴿ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤتِيهِ مَن يَشاء واللهُ ذُو الفَضْلِ العَظِيمِ﴾ [1].

والذي وهبهم هذه العطايا وأنعم عليهم بهذه الامتيازات، كتب لهم في سجلّ الحوائج قضاء ما يطلبون، وما يرجون لأنّهم رُسله إلى خلقه يُلجأ إليهم عند الشدائد، ويُستغاثُ بهم في الملمّات في الحياة، إجماعاً بين المسلمين حتّى الوهابية ومن بعدها حسب ما دلّت عليه الأحاديث واستفاضت الأخبار.

كيف يشك إنسان في جواز التوسّل بهم والاستغاثة عند المُلمّات مع أنّ الأنبياء يستغيثون بالنبيّ الأكرم يوم تذهلُ كل مُرضعة عمّا أرضعت، وتضعُ كلّ ذات حمل حملها، وترى الناسَ سُكارى وما هم بسكارى. فتطلب الخلائق في هذا الموقف من الأنبياء إغاثتهم، والاستشفاع بهم، فيحيلونهم كلٌ بدوره إلى خير شفيعٍ، وأعظم مُغيث فيقصدون كعبة الشفاعة وقبلة الإغاثة، فيستجيب لرغباتهم ويسارع لإغاثتهم وإنقاذهم ويهمّ

١ـ الحديد: ٢١.

لمرضاتهم بما عُهد فيه من فضل وما عُرف عنه من كرم.

روى البخاري ومسلم عن أبي هـريرة قال: قال رسـول الله: «أنا سيدُ الناس يـوم القيامـة. هل تـدرون مِمَّ ذلك؟ يجمع الله الأوّلين والآخـرين في صعيدٍ واحدٍ فيبصرهم الناظرُ ويسمعهم الداعي وتدنو الشمسُ من جماجم النـاسِ فيبلغُ النـاسَ من الغم والكـرب مـا لا يطيقـون ولا يحتملون فيقـول الناسُ: ألا ترون إلى مـا أنتم فيه؟ ألا ترون إلى مـا بلغكم؟ ألا تنظرون إلى من يشفع لكـم إلى ربّكم؟ فيقول بعـضُ الناس لبعـض: أبوكـم آدم، فيأتونـه فيقولون: يـا آدم أنت أبو البشر خلقك اللهُ بيدِه ونفخ فيك مـن روحِهِ وأمر الملائكة فسجـدوا لك وأسكنك الجنّـة ألا تشفع لنـا إلى ربّك؟ ألا ترى مـا نحنُ فيه ما بلغنا؟ فيقول: إنّ ربّـي غضب اليوم غضباً لم يغضب قبلَه مثله ولا يغضب بعـده مثله، وإنّـه نهاني عن الشجرة فعصيتـهُ. نفسِـي نفسِـي نفسِـي. اذهبوا إلى غيري اذهبـوا إلى نـوح، فيأتـون نوحـاً ــ عليه الصـلاة والسلام ــ فيقولـون: يا نـوحُ أنتَ أوّل الـرسل بُعثتَ إلى أهل الأرض وقـد سمّـاك الله عَبداً شكـوراً ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ ألا تـرى إلى ما بَلَغنا؟ ألا تشفع لنا إلى ربّك (الحديث).

وفيه أنّهم ـ صلوات الله عليهم أجمعين ـ يحيلون الناس إلى سيّد الرُسل والخلق، فيأتونه ﷺ فيقولون: يامَن أنتَ رسـولُ الله وخاتم الأنبياء وقد غَفَرَ الله لك ما تقدَّم مـن ذنبك وما تأخّر، ألا ترى إلى ما نحـن فيه؟ إشفع لنا إلى ربّك. قال: فانطلـقُ فآتي تحت العرش فأقعُ ساجـداً إلى ربّـي، ثمّ يفتحُ الله عليّ من محامدِهِ وحُسن الثنـاء عليه شيئاً لم يفتح على أحدٍ قبلي. ثـمّ يُقال: يا

محمّد إرفـع رأسك واشفَع تُشَفَّعْ، فـأرفعُ رأسي فأقـولُ: ياربِّ أُمّتي يـا ربّ أُمّتي، يا ربّ أُمّتي ...»[١].

إنّ التوسّل بالأنبياءِ والأولياءِ ليس بملاك جسمانيّتهم فإنّهم وغيرهم في ذلك المجال سواسيـة، وإنّما يُتوسّل بهم بروحانيتهم العاليـة وهي محفوظةٌ في حال الحياة وبعد الارتحال إلى البرزخ وإلى الآخرة.

فالتفـريق في التوسّـل بين الحياة والممات تنشأ مـن نظرة ماديـة تعطي الأصالة للجسم والمادة ولا تُقيم للمعنى والروحانية وزناً ولا قيمة.

فالنبيّ الأكرم مدار الفضائل والكمالات وهو يتمتع بأروع الكرامات وكلّها ترجع إلى روحانيته ومعنويته القائمة المحفوظة في جميع الحالات.

فما هذا التفريق بين الحياة المادية والبرزخية والأُخروية؟

فمن اتّخذ الأنبياء والأولياء وغيرهم ممن باتوا لربّهم سجداً وقياماً أسباباً حال حياتهم أو بعـد مماتهم، وسائل لقضاء حـوائجهم ووسائط لجلب الخير ودفع الشر، لم يحيدوا عمّـا تهدف إليه الشريعة ولم يتجاوزوا الخطَّ المشروع ولم يتعدّوا مقصود الرسالة النبويّة وغاياتها.

فالأسباب لا يمكـن إنكارها، ولا يُعقل تجاهلُها، ولا يتأتّـى جحودها لأنّه تعالى هو الذي خَلَقَ الأسباب والمسبّبات ورتَّب النتائج على المقدَّمات، فمن تمسّك بالأسباب فقد تمسَّك بها أمر الله سبحانه[٢].

إلى هنا تمّ بيان أقسام التوسّل ودلائل جواز الجميع.

١ـ صحيح البخاري ٦: ١٠٦، صحيح مسلم ١: ١٣٠، مسند أحمد ٢: ٤١٢.

٢ـ التوسّل والزيارة للشيخ محمّد الفقي المصري: ١٦١.

١٠

١ـ حياة الأنبياء والأولياء بعد الرحيل
٢ـ إمكان الاتّصال بهم و إسماعهم

- ❑ حياة الأنبياء والأولياء.
- ❑ الأحاديث الدالة على حياة الأنبياء.
- ❑ امكان الارتباط بالأرواح المقدسة.
- ❑ النبي صالح يخاطب قومه الهالكين.
- ❑ مخاطبة النبي شعيب قومه الهالكين.
- ❑ أمر النبي بمكالمة الأنبياء.
- ❑ الأحاديث وامكان الارتباط بالأرواح.
- ❑ شبهات ثلاث وأجوبتها.
- ❑ توسّل السلف دليل على امكان الارتباط.

أ ـ حياة الأنبياء والأولياء:

إنَّ الموت ومفارقة الروح للبدن من سنن الله الحكيمة التي كتبها على كلّ إنسان، فلا محيص من الموت ولا مفرَّ منه.

قال سبحانه: ﴿كُلّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الموت﴾ [١].

وقال سبحانه: ﴿إنَّكَ مَيّتٌ وإنَّهُمْ مَيّتُون﴾ [٢].

وهذا الأمر من القضايا الواضحة التي لا يشك فيها أحد، ولا يحتاج إلى برهنة.

إنّما الكلام هو في حقيقة الموت، فهل الموت انعدام وفناء مطلق، وصيرورة الشيء كأن لم يكن شيئاً مذكوراً أو أنّه انتقال من دار إلى دار أُخرى، ومن عالم إلى عالم آخرٍ؟

وبعبارة أُخرى، هل الموت هو فناءٌ أو هو خروج الروح من البدن المادي العنصري، وتعلّقه ببدن آخر يناسبه، ويلائمه؟

الماديّون المنكرون لعالم الأرواح، والنافون لما وراء الطبيعة على الأوّل، فهم يعتقدون أنّ في الموت فناء الإنسان وضلاله في الأرض بحيث لا يبقى شيء من بعد ذلك، إلاّ الذرات الماديّة المبعثرة في الطبيعة، ولهذا لا يُمكن إعادة الشخصية البشرية، إذ ليس هناك شيء متوسّط بين المبتدأ والمعاد.

والإلهيون على الثاني، وأنّ الموت خروج الروح من البدن العنصري وتعلّقه ببدن آخر يناسبه، وهو أمر يدعمه كتاب الله الأكبر، ويدلّ عليه بأوضح دلالة، ويفنّد دليل المشركين القائلين: ﴿ أإذا ضَلَلْنَا في الأرضِ أَإنّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بقوله: ﴿قُل يَتَوفّاكُمْ مَلَكُ الموتِ الذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمّ إلى

١ـ آل عمران: ١٨٥.

٢ـ الزمر: ٣٠.

رَبِّكُمْ تُرْجعُون﴾ [١].

ومعنى الآية هو أنّ الموت ليس ضلالاً في الأرض وأنَّ الشخصية الإنسانية ليست هي الضالة الضائعة في ثنايا التراب، إنّما الضال في الأرض هو أجزاء البدن العنصري المادي، فهذه الأجزاء هي التي تتبعثر في الأجواء والأراضي، ولا يشكّل البدن حقيقة الشخصية الإنسانية، ولا مقوّماً لها، وإنّما واقعيتها هي نفس الإنسان، وروحه، وهي لا ينتابها ضلالٌ، ولا يطرأ عليها تبعثر، بل يأخذها **﴿يَتَوفّاكُم مَلَكُ الموت الذي وُكّلَ بِكُمْ ثّمَ إلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُون﴾**.

ويتجلّى معنى الآية بوضوح إذا عرفنا أنَّ التوفّي في الآية يعني الأخذ في مثل قوله سبحانه: **﴿اللهُ يتوفّى الأنْفُسَ حِينَ مَوْتِها والَّتي لَمْ تَمُتْ في مَنامِها فَيُمْسِكُ الَّتي قَضى عَلَيْها المَوتَ ويُرْسِلُ الأُخْرَى إلى أَجَلٍ مُسَمًّى إنَّ في ذَلِكَ لآياتٍ لِقَومٍ يَتَفَكّرُونَ﴾** [٢].

والمعنى: هو أنّ الله يقبض الأنفس ويأخذها في مرحلتين: حين الموت، وحين النوم، فما قضى عليها بالموت أمسكها ولم يردها إلى الجسد، وما لم يقض عليها بالموت أرسلها إلى أجل مسمّى.

كل ذلك يكشف عن أنّ الموت ليس علامة الفناء وآية العدم بل هناك انخلاع عن الجسد، وارتحال إلى عالم آخر، ولولا ذلك لما كانت الآية جواباً على اعتراض المشركين، ورداً على زعمهم.

١ـ السجدة: ١٠ـ١١.

٢ـ الزمر: ٤٢.

وليست هـذه الآية نسيجـة وحدهـا في هذا المجـال، بل هناك آيـاتٌ أُخرى تصرّح بحياة لفيفٍ من المؤمنين والكافرين، ولا ينكر دلالة القرآن على هذه الحقيقة إلاّ من اتّخذ موقفاً مسبقاً في المقام.

قال سبحانه: ﴿ولا تَحْسَبَنَّ الَّذيـنَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أَمْواتـاً بَلْ أَحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُـرْزَقُون * فَرِحينَ بِما ءَاتـاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِـالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ ألاّ خَوفٌ عَلَيْهِمْ ولا هُمْ يَحْزَنُون * يَسْتَبْشِـرُونَ بِنِعْمَةٍ مِنَ اللهِ وَفَضْلٍ وأَنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجرَ المؤْمِنين﴾ [١].

ودلالة الآية واضحة لا تحتاج إلى مزيد بيان.

هذا حبيـب النجّار قد صـدق المرسلين، ولقي من قـومه أذى شـديداً حتى قضى نحبه عندما ارتحل إلى العالم الأُخروي فلما ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ الجَنَّةِ قالَ يا لَيْتَ قَومِي يَعْلَمُونَ * بِما غَفَرَ لي رَبّـي وَجَعَلَني مِنَ المُكْرَمين﴾ [٢].

إنَّـه يتمنَّى في ذلك الحال لـو أنَّ قومَـه الموجودين في الـدُنيا علمـوا بما أعطاه تعـالى من المغفـرة، وجزيل الثـواب ليرغبوا في مثلـه وليؤمنـوا، لينالـوا ذلك [٣].

ومن المعلوم أنّ دخول الجنَّة والتمنّي هذا كان قبل قيام الساعة، ويدلّ على ذلك قوله تعالى في الآية اللاحقة: ﴿وَمَا أَنْزَلْنا عَلَـى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنْ السَّماءِ﴾ الصريح في أنَّهم قُتلوا بعده بالصيحـة. وبالتالي فإنّ المراد

١ـ آل عمران: ١٦٩ـ ١٧١.

٢ـ يس: ٢٦ـ٢٧.

٣ـ مجمع البيان ٨: ٤٢١.

بالجنَّة هو جنَّة البرزخ دون جنَّة الآخرة [١].

وإذا كان الشهداء والصالحون أمثال حبيب النجار المصدّق للرسل أحياءٌ يرزقون، فكيف ظنّك بالأنبياء والصدّيقين المتقدمين على الشهداء برتبتين، قال سبحانه:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللهَ والرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبيّينَ والصدّيقِينَ والشّهَداءِ والصّالِحينَ وحَسُنَ أُولئِكَ رَفِيقا﴾ [٢].

فلو كان الشهيد حيّاً يرزق، فالرسولُ الأكرم الذي ربّى الشهداء، واستوجب لهم تلك المنزلة العليا، أولى بالحياة بعد الوفاة، وبعده الصدّيقون.

على أنَّ الحياة بعد الموت ليست مختصةً بالأنبياء، والصدّيقين والشهداء، بل يصرّح الذكر الكريم أنّ رؤوس الكفر والنفاق هم أيضاً أحياءٌ بعد مفارقة أرواحهم لأبدانهم ولكن معذّبين بعد الموت، قال الله سبحانه:

﴿وحَاقَ بآلِ فِرعَوْنَ سُوءُ العَذابِ * النّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيها غُدُوّاً وَعَشِيّا وَيَومَ تَقُومُ السّاعَةُ أَدْخِلُواْ آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ العَذاب﴾ [٣].

ترى أنّ الذكر الحكيم يصوّر حالهم قبل قيام الساعة، وبعده فهم يُعرضون على النار قبل القيامة، بينما يُطرحون فيها بعد قيامها.

١ـ تفسير الميزان ١٤: ٣٣٥.

٢ـ النساء: ٦٩.

٣ـ غافر: ٤٥ـ٤٦.

إنّ الله سبحانه يذكر أنَّ قوم نوح الـذين تخلّفوا عن سفينته ولم يركبوها، غرقوا وأُدخلوا ناراً:

﴿مِمّـا خَطيئـاتِهِمْ أُغْـرِقُـوا فَأُدْخِلُـوا نـاراً فَلَـم يَجِدُوا لَهُمْ مِنْ دُونِ اللهِ أَنْصاراً﴾ (١).

فالنـار التي دخلوها، ليست النـار الأُخروية لأنّهم إنّما يدخلـونها بعد قيام القيامة.

هذه الآيات ونظائرها تـوقف من يُمعن النظر فيها على أنّ الموت ليس بمعنى الفناء والانعـدام، بل هو انتقـالٌ من عالمٍ إلى عالمٍ آخـر، ومن دار إلى أُخرى.

وهناك كلمة للإمام الحسين ـ عليه السلام ـ تكشف فيها عن هذه الحقيقة إذ يقول:

«صبراً يـا بني الكـرام فما الموت إلاّ قِنطَـرَة تعبرُ بكـم عن البـؤس والضراء إلى الجنـان الـواسعة والنعـمِ الـدائمـةِ، فأيّكم يكـرهُ أن ينتقـل من سجنٍ إلى قصرٍ، ومـا هـو لأعـدائكـم إلاّ كمن ينتقـل من قصرٍ إلى سجـن وعذابٍ إنَّ أبي حـدثني عن رسول الله أنّ الدنيـا سجن المؤمن وجنّة الكـافر، والموتُ جسر هـؤلاء إلى جنـانهم، وجسر هـؤلاء إلى جحيمهم، مـا كَـذبـتُ ولا كُذبتُ» (٢).

١ـ نوح: ٢٥.

٢ـ كامل الزيارات: ٣٧.

وعلى هذه العقيدة علماء الإسلام أجمعون، فهذا الإمام الأشعري شيخُ الأشاعرة ومؤسّس مذهبهم يقول: ومن عقائدنا أنّ الأنبياء ـ عليهم السلام ـ أحياء في قبورهم. وقد ألّف كتاباً أسماه «حياة الأنبياء» (١).

وقد نصّ بذلك أبو القاسم القشيري في كتابه «شكاية أهل السنّة» الذي جاء به تاج الدين عبد الوهاب السبكي في طبقات الشافعية وقال:

فأمّا ما حُكي عنه وعن أصحابه أنهّم يقولون أنَّ محمداً ﷺ ليس بنبيّ في قبره ولا رسول بعد موته، فبهتانٌ عظيمٌ وكذبٌ محضٌ لم ينطِق منهم أحدٌ، ولا سُمِعَ في مجلس مُناظرة ذلك عنهم، ولا وُجِدَ ذلك في كتابٍ لهم، وكيف يصح ذلك وعندهم محمّد ﷺ حيٌّ في قبره، قال الله تعالى:

﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا في سَبيلِ اللهِ أَمْواتاً بَلْ أحْياءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (٢).

فأخبر سبحانه بأنَّ الشهداء أحياءٌ عند ربّهم، والأنبياء أولى بذلك لتقاصرُ رتبةِ الشهيد عن درجة النبوّة قال الله تعالى:

﴿فَأُولئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِم مِنَ النَّبِينَ والصِدّيقِينَ والشُهَداءِ والصّالِحِينَ﴾ (٣). فرتبة الشهداء ثالث درجة النبوة، ولقد وردت الأخبار الصحيحة والآثار المروية بها تدلّ الشهادة على هذه الجملة.

١ـ طبقات الشافعية ٣: ٤٠٦ والتعبير بـ: في قبره تعبير مجازي كما لا يخفى.

٢ـ آل عمران: ١٦٩.

٣ـ النساء: ٦٩.

الأحاديث الدالّة على حياة النبيّ ﷺ :

قال رسول الله ﷺ :

١ـ «إنَّ لله تعالى ملائكـةً سياحينَ في الأرض تبلّغني عن أُمّتي السلام» ومن المعلوم أنّه لا يُبلَّغ السلام إلاّ إذا كان حيّاً.

٢ـ «مـا من نبيٍّ يموتُ فيقيمُ في قبره إلاّ أربعين صبـاحاً حتّى تُـردّ إليه روحُه».

٣ـ «مـا من أحـدٍ يسلّم علي إلاّ ردّ اللهُ عزَّ وجـلّ عليَّ روحي حتى أردَّ عليه السلام».

٤ـ «مَن صَلّـى عليَّ عند قَبري سمعتهُ ومن صلّـي عليّ نائياً ابلغته».

٥ـ «أتيتُ على موسـى ليلةَ أُسري بي عنـد الكثيب الأحمر وهو قـائمٌ يصلّـي في قبره».

٦ـ «الأنبياء أحياءٌ في قبورهم يُصلّون».

٧ـ «صلّوا عليّ فإنَّ صلاتكم تبلغني حيث كُنتم».

٨ ـ «مـن زارني بعد وفـاتي وسلَّم عليّ رددتُ عليه السـلام عشراً وزارَهُ عشرةٌ من الملائكـة كلُهـم يسلّمون عليـه ومـن سلّم عليّ في بيتـه ردّ الله عليَّ روحي حتى أُسلّم عليه» [١].

إلى غير ذلك من الأحاديث والروايات المصرّحة بأنّ النبيّ ﷺ حيٌّ بعد وفاته يسمعُ سلام المسلّمين عليه ويرد عليهم.

١ـ راجع سنن أبي داود ٢: ٢١٨ وكنز العمال ١٠: ٣٨١ وطبقات الشافعية ٣: ٤٠٦ـ٤٠٨.

ب ـ إمكان الاتّصال بالأرواح المقدسة:

إنّ إثبات حياة الإنبياء إحدى المقدمات التـي يتوقف عليها ما نتوخّاه من هذا الأصل كما سيـوافيك بيانه بل الاستنتاج يتوقف على مُقـدمة أُخرى، وهي إمكان اتّصال الإنسان العائش في الدنيا بالأرواح المقدسة المتواجدة في عالم البرزخ، وهذا و إن أثبتته العلوم النفسية بعد تجارب كثيرة، لكنّنا نستدلّ عليه من طريقي الكتاب والسنّة، ونعتبر التجربة عامل دعم لهذه النظرية.

إنَّ نصـوص الكتاب والسنّـة تضافـرت على إمكـان اتصال الإنسـان العائش في الدنيا بالإنسان العائش في عالم البرزخ يمكن استظهار ذلك من بعض الآيات:

١ ـ النبيّ صالح يخاطب قومه الهالكين:

أخبر الله تعالى في القـرآن الكريم عن النبي صـالح ـعليه السلامـ أنّه دعا قومه إلى عبادة الله، وتـرك معجزته (الناقة) وعدم مسّهـا بسوء ولكنّهم عقروا الناقة وعتوا عن أمر ربّهم:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِـم جاثِمِينَ * فَتَوَلّـى عَنْهُمْ وَقالَ يـا قَـوْمِ لَقَـدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسـالَـةَ رَبّـي وَنَصَحْـتُ لَكُـمْ وَلَكِنْ لا تُحِبّـونَ النّاصِحِينَ﴾[1].

ترى أنَّ الله يخبرُ على وجه القطع والبت بأنَّ الرجفة أهلكت أُمّة صالح

١ـ الأعراف: ٧٨ ـ ٧٩.

ـعليه السلامـ فأصبحوا في دارهم جاثمين وبعد ذلك يُخبر أنَّ النبيّ صالحَ تولّى عنهم ثُمّ خاطبهم قائلاً: ﴿لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالَةَ رَبّي وَنَصَحْتُ لَكُمْ وَلَكِنْ لا تُحِبّونَ النّاصِحِين﴾ .

والخطاب صَدَرَ من صالح لقومه بعد هلاكهم، وموتهم بشهادة جملة «فتولّى» المصدَّرة بالفاء المُشْعِرة بصدور الخطاب عقيب هلاك القوم.

ثمّ إنّ ظاهر قوله: ﴿وَلَكِنْ لا تُحِبّونَ النّاصِحِين﴾ يُفيد أنَّهم بلغت بهم العُنجهية أن كانوا لا يحبُّون الناصحين حتى بعد هلاكهم.

٢ـ مخاطبة النبيّ شعيب قومه الهالكين:

لم تكن قصةُ النبي صالح هي القصة الوحيدة من نوعها في القرآن الكريم، فقد تبعه في ذلك «شعيب» إذ خاطب قومه بعد أن عمَّهم الهلاك قال سبحانه:

﴿فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا في دارِهِمْ جاثِمِينَ * الَّذينَ كَذَّبُوا شُعيباً كأنَّ لَمْ يَغْنَوْا فِيها الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْباً كانُوا هُمُ الخاسِرِنَ * فَتَوَلّى عَنْهُمْ وَقالَ يا قَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسالاتِ رَبّي ونَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسى عَلى قَوْمٍ كافِرِين﴾ [1].

وهكذا يخاطب شُعيب قومه بعد هلاكهم ويكون صدور هذا الخطاب بعد هلاكهم بالرجفة. فلو كان الاتصال غير ممكنٍ، وغير حاصلٍ، ولم يكن

١ـ الأعراف: ٩١ـ ٩٣.

الهالكين بسبب الرجفـة سامعين لخطاب صالح وشعيـب فما معنى خطابهما لهم؟

أيصح أن يُفسّـر ذلك الخطاب بأنَّه خطاب تحسُّـرٍ وإظهار تأسّفٍ؟

كلا ، إنّ هذا النوع من التفسير على خلاف الظاهر، وهو غير صحيح حسب الأُصول التفسيريـة وإلاّ لتلاعب الظالمون بظواهـر الآيات وأصبح القرآن الكريم لعبةً بيد المغرضين، يفسّـرونه حسب أهوائهم وأمزجتهم.

على أنّ مخاطبة الأرواح المقدّسة ليست أمراً ممتنعاً في العقل حتّى تكون قرينةً عليه.

٣ـ أمر النبي بالتكلّم مع الأنبياء:

جاء في الذكر الحكيم قوله تعالى لنبيه:

﴿وَاسْأَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنـا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمٰنِ ءَالهة يُعْبَدونَ﴾ (١).

ترى أنّ الله سبحانه يأمر النبي الأكرم بسؤال الأنبياء الذين بعثوا قبله، ومن التأويـل الباطل إرجـاعها إلى سـؤال علماء أهل الكتاب استظهـاراً من قوله سبحانه: **﴿فَإِنْ كُنْتَ في شَـكٍّ مِمّا أَنْـزَلْنا إِلَيْكَ فَـاسْأَلِ الَّذيـنَ يَقرَءُونَ الكتابَ مِنْ قَبْلِكَ لَقَدْ جاءَكَ الحَقُّ مِنْ رَبّكَ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَـرِينَ * وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بآياتِ اللهِ فَتَكُونَ مِنَ الخَاسِرِينَ﴾** (٢).

١ـ الزخرف: ٤٥.

٢ـ يونس: ٩٤ـ ٩٥.

وقوله سبحانه: ﴿**فَاسأَلْ بَني إِسْرائِيلَ إِذْ جاءَهُمْ فَقالَ لَهُ فِرعَونَ إنّي لأظُنُّكَ يا مُوسى مَسْحُوراً**﴾ (١).

وَوجهُ البُطلان هو: أنَّ الخطاب في الآية الأُولى وإن كان مُتوجهاً إلى النبي لكنَ المقصود هو الأُمّة بقرينة قوله: ﴿**ولا تَكُونَنَّ مِنَ المُمْتَرِينَ**﴾ و ﴿**وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا**﴾.

ومثلها الآية الثانية فالخطاب وإن كان للنبي وأمره سبحانه بأن يسأل بني إسرائيل عن الآيات النازلة إلى موسى، ولكنّه من قبيل «إياك أعني واسمعي يا جارة» والنبيّ أجلّ وأعظم من أن يشكل عليه شيء، ويسأله من علماء بني إسرائيل.

هاتان الآيتان راجعتان إلى سؤال الأُمّة من علماء بني إسرائيل وقرّاء كتبهم، وهذا بخلاف قوله: ﴿**اسْأَل مَنْ أرْسَلْنا مِنْ قَبلَكَ مِنْ رُسُلِنا**﴾ فإنّه خطاب للنبي حقيقةً.

وأمّا ما هو الوجه في سؤال الأنبياء في مجال التوحيد ﴿**أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحمنِ ءَالِهَةَ يُعبَدُونَ**﴾ فلا نعرفه، وقد تضافرت الروايات على أنّه ﷺ تكلّم مع الأنبياء السالفين ليلة المعراج.

هذا هو ما يرشدنا إليه الوحي في مجال امكان ارتباط الأحياء بالأرواح.

وأمّا السنَّة الدالّة على إمكان اتّصال الأحياء بالأرواح المقدسة فأحاديثها أكثر من أن تحصى.

١ـ الإسراء: ١٠١.

الأحاديث و إمكان الارتباط بالأرواح:

١ـ روي عن النبيّ ﷺ أنَّه وقف على قليب «بـدر» وخاطب المشركين الذي قُتلوا وأُلقيت جثثهم في القليب:

«لقد كُنتم جيران سوء لرسول الله، أخـرجتموه من منزلِهِ وطردتموه، ثمّ اجتمعتُم عليه فحاربتموه فقد وجدتُ ما وعدني ربّي حقاً» .

فقال له رجلٌ: يا رسول الله ما خطابُك لهامٍ قد صديت؟ فقال ﷺ :

«والله مـا أنتَ بأسمـع منهم، ومـا بينهم وبين أن تأخـذهم الملائكـة بمقامع من حديد إلاّ أن أعرض بوجهي ـ هكذا ـ عنهم» [١].

٢ــ روي أنَّ الإمـام عليـاً بعد أن وضعـت الحرب في معـركـة الجمل أوزارها مرَّ على كعب بن سور وكان قاضي البصرة فقال لمن حوله:

«أجلسوا كعـبَ بن سور» فـأجلسوه بين شخصين يُمسكـانه ــ وهو صريعٌ ـ فقال ـعليه السلامـ:

«يـا كعب بن سـور قد وجـدت ما وَعَـدَني ربّي حقّـاً فهل وجدتَ مـا وَعَدكَ ربّك حقّاً» ؟ ثمّ قال:

«أضجعوه» ثمّ سار قليلاً حتّى مرَّ بطلحة بن عبيد الله صريعاً فقال:

١ـ صحيح البخاري ٥: باب قتل أبي جهل : ٧٦ وسيرة ابن هشام ٢: ٢٩٢.

«أجلِسوا طلحة» فأجلسوه، فقال ـ عليه السلام ـ:

«يا طلحة قد وجدتُ ما وعَدَني ربّي حقّاً فهل وجدت ما وعَدَكَ ربّك حقّاً» ثم قال:

«أضجعوا طلحة» فقال له رجل:

«يا أمير المؤمنين ما كلامك لقتيلين لا يسمعان منك»؟ فقال ـ عليه السلام ـ:

«يا رجل والله لقد سمعا كلامي، كما سَمِعَ أهلُ القَلِيبِ كلامَ رسول الله» (١).

ثمّ إنَّ المسلمين ـ على اختلاف مذاهبهم ـ يسلّمون على رسول الله ﷺ في الصلاة عند ختامها فيقولون:

«السلامُ عليكَ أيُّها النبي ورحمةُ الله وبركاته».

وينطلقون في ذلك من تعليم النبي ذلك للمسلمين، وأنّه سنّة النبيّ ثابتةٌ له في حياته وبعد وفاته (٢).

فإذا كانت صلاتنا وعلاقتنا بالنبيّ ﷺ قد انقطعت بوفاته فما معنى مخاطبته والسلام عليه يومياً؟

إنّ هذا السلام يدلّ على إمكان الارتباط بروحه المقدّسة بل وقوعه.

١ـ حق اليقين للسيد عبد الله شبر ٢: ٧٣.

٢ـ كتاب الخلاف ١: ٤٧ وقد اتفقت كلمة إئمة المذاهب الأربعة على وجود هذا السلام في التشهد.

فلو كانت الصلة منقطعة فما معنى قول الرسول فيما تواتر عنه في زيارته لأهل البقيع لعائشة:

«أمرني ربّي أن آتي البقيع فأستغفرَ لهم». قلتُ: كيف أقول يا رسول الله؟ قال:

«قولي السلام على أهل الديار من المؤمنين والمسلمين، يرحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين».

وفي رواية:

«السلام عليكم دار قوم مؤمنين، وأنا وإياكم متواعدون غداً، أو مواكلون، وانّا إن شاء الله بكم لاحقون. اللّهم اغفر لأهل بقيع الغرقد».

إلى غير ذلك من الصور المختلفة لزيارة النبيّ لبقيع الغرقد، والاختلاف في الصور إنّما هو لأجل تكرار العمل منه ﷺ فلاحظ المصادر [1].

كلّ ذلك يكشف عن حياة المؤمنين أو قسم منهم، وأنّ الصلة بعد وفاتهم موجودة.

ثمّ إنّ للوهابيين شُبهات في حياة الأنبياء أو إمكان الاتصال بهم نذكرها مع التحليل:

١ـ صحيح مسلم ٢: باب ما يقال عند دخول القبر: ٦٣، سنن النسائي ٣: ٧٦ وسنن أبي داود ٢: ٩٦.

الشبهة الأُولى: البرزخ مانعٌ من الاتصال:

انّ الشيخ السلفي «الرفاعي» الذي نهج منهج الوهابيين في التمسّك بالشبهات في مقابل الواضحات لمّا رأى الآيات والروايات صريحة في حياة الأنبياء والأولياء بعد الوفاة، ورأى إمكان الاتصال بها ثانياً، أثار الشبهة التالية بقوله: إنّ الحياة البرزخيّة حياة لا يعلمها إلاّ الله فهي حياةٌ مستقلّةٌ نؤمن بها، ولا نعلم ماهيَّتها و إنَّ بين الأحياء والأموات حاجزاً يمنع الاتصال فيما بينهم قطعياً، وعلى هذا يستحيل الاتصال لا ذاتاً ولا صفاتاً، وأنّه سبحانه يقول: ﴿وَمِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوْمِ يُبْعَثُون﴾ [١].

يُلاحظ عليه: أنّ الحياة بمعناها الحقيقي مجهولة الكُنه سواء أكانت حياة دنيوية أم برزخية ولا يعلم حقيقتها بل حقيقة الأشياء إلاّ خالقها، غير أنّ ذلك لا يمنع من أن نتعرف عليها بآثارها كما هو المتعارف في المعرفة فإنّنا نعرف الأشياء بآثارها وخصوصيّاتها، ومن خصوصيات الحياة في الكائن الإنساني الدركُ والشعور قال سبحانه: ﴿واللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمْهاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ والأبْصارَ والأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُون﴾ [٢].

وعلى ذلك فلو كانت هناك حياةٌ فلا تنفك عن لوازمها وخصوصياتها.

١ـ التوصّل إلى حقيقة التوسّل: ٢٦٧.

٢ـ النحل: ٧٨.

وأمّا معنى قوله: ﴿مِنْ وَرائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَـوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [١]. فالمراد من «ورائهم» كونه أمامهم، ومحيطـاً بهم، وسمّي وراءَهم بعناية أنّه يطلبهم، كما أنَّ مستقبل الـزمان أمـام الإنسان، وفي نفـس الوقت يقـال: وراءَك يوم كـذا بعنـاية أنّ الـزمـان يطلب الإنسـان ليمرّ عليـه، وبـذلك يُعلم معنـى قولـه سبحانه: ﴿وَكانَ وَراءَهُمْ مَلِـكٌ يَأخُذُ كُل سَفِينَـةٍ غصباً﴾ [٢] فكأنّ الملك وجنـوده محيطون بـالبحـر أو بمعـابره ومضـائقـه فهم يتعقّبـون كل سفينـة ليأخذوها.

وأمّـا البرزخ فهـو الحاجـز بين الشيئين قـال سبحـانـه: ﴿بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيان﴾ [٣]. وكونه حـاجزاً لا يعني انقطاع الصلة بين أهل الـدنيا وأهل البرزخ، بل يكون مانعاً من رجوع الناس إلى حياة الدنيا.

وممّا يـؤيد ذلك هو أنَّ الآيـة وردت في رد طلب الكافرين الـرجوع إلى الدنيا، كما يحكيه عنهم قـوله سبحانه: ﴿حَتّى إذا جاءَ أَحَـدَهُمُ المَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ لَعَلّـي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ كَلاّ إِنَّها كَلِمَةٌ هُو قائِلُها﴾.

فعند ذلك يـؤكّد النفي المستفاد من قـوله: ﴿كلاّ﴾ الصريح في عدم إمكان الرجوع، فيقول: ﴿وَمِنْ ورائِهِمْ بَرْزَخٌ إلى يَوم يُبْعَثُون﴾ أي ثمت مانع من الرجوع إلى يوم البعث.

وبعبارة أُخـرى: انّ المراد من الحاجز ليـس هو وجود جـدار رفيعٍ بين

١ـ المؤمنون: ١٠٠.

٢ـ الكهف: ٧٩.

٣ـ الرحمن: ٢٠.

الحياة الـدنيوية، والحيـاة البرزخية أو ستـار حديدي يمنع اللقـاء بين من في العـالَمين، بل المراد هو أنَّ الحيـاتين قـد قُدّرتـا على شكلٍ خـاصٍّ لا يختلط أحـدهما بالآخـر، فإنّ الحيـاة الماديّة القـائمة على الكَـون والفَسـاد، والفعل والانفعال تختلف عن الحياة البرزخيـة المبرأة عن هذه الآثار كما هو الحال في الآية المباركة: ﴿وَبَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيان﴾ [1].

وحصيلـة الكـلام هي: أنّ القـول بـوجـود الحاجـز لا يـلازم انقطـاع الصلة، بل الحاجـز يمنع عن اختلاط الحيـاتين إحداهما بالأُخـرى، لا أنّه يمنع عن وجود الصلة والاتّصال بينهما، فشتّان الفرق بين الأمرين.

واستنتـاج الثاني (المنـع من الاتصال) مـن الأوّل (المنع من اختـلاط الحيـاتين) أشبه بـالتفسير بالـرأي، ولـو صحّ ما ذُكـر فما معنى تكلّـم النبيّ صالح وشعيب مع قومهما وما معنى تكلّم رسول الإسلام ﷺ مع الأنبياء في المعراج؟

بل أيّ معنى لتمنّي حبيب النجار بعَـد مصرعه وقوله: ﴿يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ ؟

والآية بصدد بيان أنّ بين الموت والبعث عالماً آخر يبقى الإنسان فيه إلى أن يُبعث، وأمّا انقطاع الصلـة فهو من باب التفسير بالـرأي، ولا تفيده الآية قط.

١ـ بل من المحتمل أن يكون البرزخُ بمعنى عالم المثال والحياة المخصوصة ولكنه يحتاج إلى ثبوت ذلك الاصطلاح في الذكر الحكيم.

الشبهة الثانية: امتناع إسماع الموتى:

قال سبحانه: ﴿فإِنَّكَ لا تُسْمِعُ المَوْتى...﴾ [١].

وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ في القُبُور﴾ [٢].

فالآيتان صريحتان في امتناع إسماع الموتى.

والجواب على هذا واضح: فإنّ هاتين الآيتين ناظرتان إلى الأجساد الموجودة في القبور، فإنّها هي التي لا تسمع، ولا تعي، والاتصال لا يكون بيننا وبين هذه الأجساد بل يتحقّق بيننا وبين الأرواح الطاهرة والنفوس الزكية الباقية الخالدة، وإن تَبَعثرَ الجسدُ وتناثرت أجزاؤه فالأرواح هي التي يُسلَّم ويُصلَّى عليها وهي التي تسمعُ وترد.

وأمّا الحضور عند المراقد التي تضم الأجساد والأبدان فلأجل أنّه يبعث على التوجّه إلى صاحب تلك الأجساد ويكون أدعى إلى تذّكر خصاله، وصفاته، وإلاّ فإنّ الارتباط بهم، والسلام عليهم يمكن حتى ولو من مكان ناءٍ وبلدٍ بعيد، كما تصرّح بعضُ أحاديث الصلاة على رسول الله ﷺ.

١ـ الروم: ٥٢.

٢ـ فاطر: ٢٢.

الشبهة الثالثة: انقطاع عمل الإنسان:

إنّ الكاتب السلفي «الرفاعي» استدلَّ على انقطاع الصلة بالحديث المتواتر عن رسول الله ﷺ: «إذا ماتَ المرءُ انقطع عمله إلاّ عن ثلاثٍ: صدقة جارية، وعلم يُنتفع به، وولد صالح يدعو له» وهذه الرواية تشمل النبيّ ﷺ أيضاً.

والعجب من هذا الكاتب، فهو يخلط بين موضوعين هما:

الأوّل: هل الميّت ينتفع بعمل الغير أو لا؟

الثاني: هل الميّت له فعلٌ من الأفعال في عالم البرزخ أو لا؟

ولو صحّ الاستدلال بالحديث فإنّما يصحّ في الموضع الأوّل.

وأمّا الموضع الثاني وهو هل للميت فعلٌ في البرزخ أو لا؟ وأنّه هل هو مبدأ لفعل أو لا؟ فلا صلة للحديث به، وكيف يمكن القول بأنّه لا فعل لهم هناك، وهذا هو القرآن الكريم يتحدَّث عن الشهداء بأنّهم يستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم، وهذا هو حبيب النجار يحكي القرآن ما يتمنّاه لقومه بقوله: ﴿يا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ .

وهكذا تزول الشبهات ويبقى الأصل سليماً وهو أنّ الأنبياء أحياء بعد مفارقة الأرواح لأجسادهم الطاهرة، وانّه يمكن اتصال الأحياء بأرواحهم وهو ما دلّ عليه الكتاب والسنّة في أكثر من آية وأكثر من حديث اعتقده المسلمون على مر العصور

ما يترتب على هذا الأصل:

ويترتب على هذا الأصل أمران:

١ـ يصحُ الاعتقاد بأنّ النبي الأكرم ﷺ من الشهداء على أعمال العباد، كما نصّ به القرآن الكريم إذ يصرّح تارة بكونه شاهداً على أهل عصره المعاشرين له خاصّة إذ يقول: ﴿**وَجِئْنا بِكَ عَلَى هؤلاءِ شَهيداً**﴾ [1] أو ﴿**وَكُنْت عَلَيهِم شَهيداً ما دُمْتُ فيهم**﴾ [2] تارة وبكونه شاهداً على الأُمم جميعاً إذ يقول: ﴿**لِتكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَاسِ ويَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً**﴾ [3]، تارة أُخرى وكون الشهادة فرع الشعور، وهو فرع الحياة.

ولو قلنا بموت النبيّ ﷺ وفنائه مُطلقاً، أو قلنا بانقطاع صلته بنا، وصلتنا به، فما معنى كونه شهيداً علينا، وكون النبيّ شاهداً على جميع الأجيال الإسلامية.

على أنّه يجب أن نحمل لفظ الشهادة على المعنى الحقيقي، وأمّا تفسيره بغير هذا فهو تفسير مادّي للقرآن الكريم وهو مرفوض وغير مقبول.

٢ـ إنّه إذا ثبتت حياة النبيّ والأولياء البرزخية، وثبت إمكان الصلة فلا محذور من طلب شيءٍ منهم، سواء أكان الفعل أمراً خارجياً أم دعاءً أم شفاعةً، وقيامهم بالإجابة يتردّد بين أمرين: إمّا أن يكونوا قادرين على الإجابة

١ـ النساء: ٤١.

٢ـ المائدة: ١١٧.

٣ـ البقرة: ١٤٣.

أو لا؟ فعلى الأوّل يقومون بإجابة استغاثة المضطر، وعلى الثاني يكون التوسّل لغواً.

مثلاً لا شكّ في أنَّ المسيح ـ عليه السلام ـ كان في حال حياته إذا طُلِبَ منه شيءٌ خارق للعادة فعله بإذن الله سبحانه، فإذا طُلِبَ منه نظير هذا الأمر بعد ما رُفِعَ فهو بين أن يكون متمكّناً من الإجابة، أو لا.

فعلى الفرض الأوّل يقوم بالإجابة بإذن من الله.

وعلى الثاني يكون التوسّل لغواً وعبثاً.

وقس على ذلك كل ما يطلبه الإنسان من الأنبياء والأولياء مع الاعتقاد بكونهم عبادَ الله الصالحين وانهّم لا يقومون بفعلٍ إلاّ بإذن الله سبحانه.

وبهذا تقف على قيمة الضجيج الذي يثيره الوهابيون في مجال التوسّل بالنبيّ وعترته، والأولياء والصالحين فتارة ينفون حياتهم ـ بعد الموت ـ بالمرة، وتارة ينفون إمكان الاتّصال بهم، وثالثة يدّعون لغوية مثل هذا التوسّل ورابعة يعدّونه شركاً ويكفّرون به المسلمين الموحّدين.

وقد عرفت أنّ الأمرين الأوّلين (أي حياة الأنبياء بعد الموت، وإمكان الاتصال بهم) ثابتان بالكتاب والسنَّة.

وأمّا الأمر الثالث فأمره دائر بين الإجابة وعدمها، وأمّا كونه شركاً فقد عرفت حقيقته عند بيان ميزان التوحيد والشرك.

توسّـل السلف دليل على إمكان الارتباط:

ثمّ إنّ الظاهر ممّا ورد عن الصحابة والتابعين أنّهم كانوا يتوسّلون بدعاء النبيّ مرّة بعد أُخرى، ونذكر فيما يأتي نماذج من عملهم هذا الذي يدلّ على أنّهم كانوا يعتقدون عمومية الأمر الذي جاء في الكتاب العزيز، أعني: قوله تعالى: ﴿**وَلَو أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحيماً**﴾ [١]. وإنّ ذلك يشمل حال حياة النبي وحال وفاته، ويشمل الحياة الدنيوية والحياة البرزخية:

١ـ روى البيهقي عن مالك قال: أصاب الناس قحطٌ في زمان عمر بن الخطاب فجاء رجل إلى قبر النبيّ ﷺ فقال: يارسول الله استسق الله لأُمتك فإنّهم قد هَلَكوا فأتاه رسول الله في المنام وقال: إئت عمر فاقرئه السلام وأخبره أنّهم مُسقَون.

يقول السمهودي بعد نقل الحديث: ومحلُ الاستشهاد طلبُ الاستسقاء منه وهو في البرزخَ، ودعاؤه لربّه في هذه الحالة غير ممتنع، وعلمه بسؤال من يسأله قد ورد، فلا مانع عن سؤال الاستسقاء وغيره منه كما كان في الدنيا [١].

٢ـ روى ابن عساكر في تاريخه وابن الجوزي في «مثير الغرام الساكن» وغيرهما بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي قال: دخلت المدينة فأتيت قبر النبيّ ﷺ فزرته وجلستُ بحذائه وجاء اعرابيٌ فزاره ثمّ قال: يا خير الرسل

١ـ النساء: ٦٤.

٢ـ دلائل النبوّة ٧: ٤٧.

إنَّ الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: ﴿وَلَو أَنَّهُمْ إذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُم﴾ ـ إلى قوله: ـ ﴿رَحِيماً﴾ وإني جئتك مُستغفراً ربَّك من ذنبي [١]. وفي رواية: وقد جئتك مستغفراً من ذنبي مُستشفعاً بك إلى ربّي ثمّ بكى وأنشأ يقول:

يا خيرَ من دُفنت بالقاع أعظمه　　فطاب من طيبهن القاعُ والأكُمُ
نفسي الفداءُ لقبرٍ أنتَ ساكنُه　　فيه العفافُ وفيه الجودُ والكرمُ

ثمّ استغفر وانصرف [٢].

٣ـ روى السمهودي عن الإمام محمد بن موسى بن النعمان في كتابه «مصباح الظلام في المستغيثين بخير الأنام» عن محمد بن المنكدر: أودع رجل عند أبي ثمانين ديناراً وخرج للجهاد، وقال لأبي: إنْ احتجت أنفقها إلى أن أعود، وأصاب الناس جهدٌ من الغلاء فأنفق أبي الدنانير فقدم الرجل وطلب ماله فقال أبي عُد إليَّ غداً وباتَ بالمسجد يلوذ بقبر النبيّ مرّةً، وبمنبره مرّةً حتى كادَ أن يُصبح يستغيث بقبر النبيّ ﷺ بينما هو كذلك فإذا بشخص في الظلام يقول دونكها يا أبا محمّد، فمدَّ أبي يده فإذا بصرَّةٍ فيها ثمانون ديناراً فلما أصبح جاءَ الرجل فدفَعها إليه [٣].

٤ـ التقى المنصور الدوانيقي الإمام مالك في مسجد رسول الله فقال: يا أبا عبد الله أستقبل القبلةَ وادعُو أم أستقبل رسول الله؟

١ـ وفاء الوفا ٤: ١٣٧١.
٢ـ المصدر نفسه ٤: ١٣٦١.
٣ـ المصدر نفسه ٤: ١٣٨٠.

قال مالك: لِمَ تَصرف وجهكَ عنه وهو وسيلتُك ووسيلة أبيك آدم إلى الله يوم القيامة؟ بل استقبله واستشفع به فيشفّعه الله [١].

٥ـ دخل أبو بكر في حجرة رسول الله بعد غسله ﷺ فكشفَ عن وجهِ رسولِ الله وقبّلهُ وقال: بأبي أنتَ وأُمّي طبتَ حَياً وميّتاً اذْكُرنا عند ربك [٢].

٦ـ وقال أمير المؤمنين عليٌّ ـعليه السلامـ عندما ولي غُسْلَ رسول الله ﷺ : بأبي أنت وأُمّي اذْكرنا عند ربك واجعلنا من بالِك [٣].

وقد نقل السمهودي قصصَاً كثيرة من هذا النوع في كتابه القيم «وفاء الوفا».

وفي نهاية المطاب ننبّه على نكتة هامة تُزيل الشبهة من الأساس وهي: أنّ هذه القصص والقضايا مبثوثة بكثرة في الكتب، ولو أراد أحد جمعها لألّف منها كتاباً ضخماً.

على أنّنا لا يمكننا تصديقها جميعاً مع العلم أنَّ بينها قضايا صادقة صدرت عن أُناس صالحين غير أنَّها بكثرتها تدلّ على أنّ التوسّل كان أمراً رائجاً منذ عصر الصحابة إلى زماننا هذا، ولم يكن أمراً غريباً عند المسلمين.

ولو فرضنا أنّ بعض هذه القضايا تخالف الواقع فلا ريب أنّه من باب استغلال الوضّاعين لأصل مسلَّم صحيح بين المسلمين فإنّهم نسجوا بعض

١ـ وفاء الوفا ٩: ١٣٧٦.

٢ـ كشف الارتياب: ٦٥، عن خلاصة الكلام لأحمد زيني دحلان الشافعي، سيرة زيني دحلان في هامش السيرة الحلبية ٣: ٣٩٢.

٣ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٣٥.

القضايا في ظلّ ذلك الأصل.

ولو فرضنا أنّه لم يكن أمراً رائجاً بين المسلمين بل كان أمراً غريباً أو محظوراً لما تجرّأ المُستغل أن ينسج قضيةً كاذبةً على نول الشرك أو المحرّم، فإنّ الذي يحفّز الوضّاع على نسج الخرافة هو استعداد العامّة لقبول تلك الخرافة ولولاه لما تجرّأ عليه لعدم حصول الغاية المتوخّاة من نسجها.

فهذه القضايا الكثيرة تدل ـ على كلا التقديرين ـ على المطلوب فإن كانت صادقة فبصدقها، وإن كانت كاذبة فلأجل حكايتها عن وجود أصل مسلَّم بين المسلمين وهو التوسّل بدعاء النبي الأكرم قبل وبعد موته، وكان هذا الأصل ربّما يستغلّ أحياناً من بعض المتاجرين بالدين.

١١

انتفاع الموتى بأعمال الأحياء

- لا نفع للإيمان من دون عمل.
- انتفاع الإنسان بعمله وعمل غيره.
- عرض المسألة على الكتاب والسنّة.
- الأحاديث الدالّة على انتفاع الميّت بعمل الحي.
- موقف المذاهب الإسلامية من هذه المسألة.
- شبهات حول الموضوع وأجوبتها.
- ما يترتب على هذا الأصل.

لا نفع للإيمان من دون عمل:

إنّ الإيمان إنّما ينتفع به الإنسان إذا انضمَّ إليه العمل الصالحُ ولا ينفع إيمانٌ انقطع عن العمل وخلا منه.

ولأجل ذلك يذكر الله سبحانه العمل الصالح إلى جانب الإيمان في أكثر آيات الكتاب العزيز.

وقد أخطأت «المرجئة» لما زعموا أنّ الإيمان المجرّد وسيلة نجاة ومفتاح فلاح، فقدّموا الإيمان وأَخّروا العمل.

وقد شجب أهل البيت ـ عليهم السلام ـ هذه الفكرة الباطلة حيث حذّروا الآباء ودعوهم إلى حفظ أبنائهم منهم: «بادِرُوا أولادَكم بالأدَبِ قَبلَ أن يَسبِقَكُمْ إليهمُ المرجِئَة»(١).

فالاعتماد على الإيمان مُجرّداً عن العمل، فعل النوكى والحمقى وهو لا يفيد ولا ينفع أبداً.

ولقد كان لهذه الفكرة الباطلة صيغة أُخرى عند اليهود، فهم كانوا يعتمدون على مسألة الانتساب إلى الآباء، وبيت النبوّة، فَزَعموا أنَّ الثوابَ لهم والعقابَ على غيرهم حيث قالوا: ﴿نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وَأَحِبّاؤه﴾ أو قالوا: ﴿لَنْ تَمَسَّنا النّارُ إلاّ أيّاماً مَعْدُودة﴾ وفي ظلّ هذه الفكرة اقترفوا المنكرات واستحلّوا سفكَ دماء غيرهم من الأقوام والأُمم، والاستيلاء على أموالهم.

والحق الذي عليه الكتاب والسنّة هو أنَّ المنجي هو الإيمان المقترن بالعمل الصالح، كما أنّ التسويف في إتيان الفرائض باطل جداً وهو أن يؤخّر الإنسان الواجب ويقول سوف أحجّ مثلاً، ويقول ذلك كلّ سنة ويؤخّر الفريضة.

وهذا هو الإمام أمير المؤمنين عليّ ـ عليه السلام ـ يؤكد في خطبته على العمل إذ يقول: «فاليومَ عَملٌ ولا حسابٌ، وغداً حسابٌ ولا عمَلٌ»(٢).

١ـ الكافي ٦: ٤٧، الحديث ٥.

٢ـ نهج البلاغة، الخطبة ٤٢.

ويقول: «ألا إنّ اليومَ المضمارُ وغداً السباق، والسُّبْقَة الجنَّة والغايةَ النّار أفلا تائبٌ من خطيئته قبل مَنِيّته؟ ألا عاملٌ لنفسِه قبل يوم بُؤسِهِ» [١].

وهذا هو ما اتّفقت عليه الأُمّة الإسلامية وتضافرت عليه الأحاديث والأخبار.

انتفاع الإنسان بعمله وبعمل غيره:

لكنّه سبحانه بفضله وجوده الواسِعَين وسَّعَ على الإنسان دائرة الإنتفاع بالأعمال بحيث شمل الإنتفاع بعد الموت بالأعمال التي تتحقَّق بعد الموت. وهي على نوعين:

الأوّل: ما إذا قام الإنسان بعملٍ مباشرةً في زمانه وماتَ ولكن بقي العملُ يستفيد منهُ الناس كصدقةٍ جاريةٍ أجراها، أو إذا ترك علماً يُنتفع به، ويقرب منه ما إذا ربّى ولداً صالحاً يدعو له، فهو ينتفع بصدقاته وعلومه، لأنّها أعمال مباشرة باقية بعد موته وليست كسائر أعماله المباشرية الفانية بفنائه الزائلة بموته، فالجسر الذي بناه، والنهر الذي أجراه، والمدرسة التي شيَّدها والطريق الذي عبَّده، إنّما تحقّق بسعيه، فهو ينتفع به.

وقد وردت في هذا المجال روايات كثيرة، قام بنقل بعضها ابن القيّم في المسألة السادسة في كتاب له باسم «الروح»قال:

وذهب بعض أهل البدع من أهل الكلام أنّه لا يصل إلى الميت شيء

١ـ نهج البلاغة، الخطبة ٢٨.

البتة لا بدعاء ولا غيره، ثمّ قال: والدليل على انتفاعه بما تسبّب إليه في حياته ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ : أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إذا مات الإنسان انقطع عنه عمله إلاّ من ثلاث: صدقة جارية، أو علم يُنتفع به، أو ولد صالح يدعو له» فاستثناء هذه الثلاث من عمله يدل على أنَّها منه فإنّه هو الذي تسبّب إليها.

وفي سنن ابن ماجة من حديث أبي هريرة ـ رضي الله عنه ـ قال: قال رسول الله ﷺ : «إنّ ممّا يلحق المؤمن من عمله وحسناته بعد موته: علماً علّمه ونشره، أو ولداً صالحاً تركه، أو مصحفاً ورّثه، أو مسجداً بناه، أو بيتاً لابن السبيل بناه، أو نهراً أجراه، أو صدقة أخرجها من ماله في صحّته وحياته يلحقه من بعد موته».

وفي صحيح مسلم أيضاً من حديث جرير بن عبد الله قال: قال رسولُ الله ﷺ : «من سنّ في الإسلام سنَّة حسنةً فله أجرها وأجرُ من عمِلَ بها من بعده من غير أن يُنقص من أُجورهم شيءٌ، ومن سنَّ في الإسلام سنةً سيئةً كان عليه وزرها ووزر من عمِلَ بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيءٌ» .

وهذا المعنى روي عن النبيّ ﷺ من عدة وجوه صحاح وحسان.

وفي المسند عن حذيفة قال: سأل رجلٌ على عهد رسول الله ﷺ فأمسك القوم، ثمّ إنّ رجلاً أعطاه فأعطى القوم، فقال النبيّ ﷺ : «من سنَّ خيراً فاستُنَّ به كان له أجره ومن أُجور من تَبِعَه غير منتقص من أُجورهم شيئاً، ومن سنّ شراً فاستُنَّ به كان عليه وزرهُ ومن أوزارِ من تَبِعَه غير منتقص

من أوزارهم شيئاً».

وقد دلّ على هذا قوله ﷺ: «لا تُقتَلُ نفسٌ ظلماً إلاّ كانَ على ابن آدم الأول كفلٌ من دمها لأنَّه أوّل من سنَّ القتل» فإذا كان هذا في العذاب والعقاب ففي الفضل والثواب أولى وأحرى [1].

ويؤيّده ما ورد في شأن صلاة الجماعة حيث تفضّل بسبع وعشرين درجة أو خمس وعشرين درجة على صلاة بغير جماعة [2]. فكيف ينتفع المصلُّون بعضهم ببعض وكلّما زادَ المصلّون ازدادوا انتفاعاً.

الثاني: فيما إذا لم يكن للميّت في العَمَلِ سعيٌ ولا تسبيب فهل يصل ثوابُ عملِ الغير إليه؟

الظاهر من الكتاب والسنّة هو أنّه سبحانه بعميم فضله وواسع جوده يوصلُ ثواب عمل الغير إلى الميّت، فيما إذا قام الغير بعملٍ صالحٍ نيابةً عن الميّت، وبَعثَ ثوابَه إليه، ويدلُّ على ذلك لفيفٌ من الآيات وطائفة كبيرة من الأحاديث والأخبار.

عرض المسألة على الكتاب:

لقد صرّحت الآيات بأنّ الإنسان المؤمن ينتفع من عَمَل غيره، وإن لم يكن له فيه سعيٌ ونحن نشير إلى بعض هذه الموارد على سبيل المثال

١ـ ابن القيم تلميذ ابن تيمية (م٧٥٠): كتاب الروح، المسألة السادسة عشرة، ونقلها برمتها محمد الفقي من علماء الأزهر في كتابه التوسّل والزيارة: ٢٢٦ ـ٢٢٧.

٢ـ صحيح مسلم ٢: ١٢٨، باب فضل صلاة الجماعة.

لا الحصر:

١ـ استغفار الملائكة للمؤمن قال تعالى:

﴿الَّذِينَ يحْمِلُونَ العَرْشَ وَمنْ حَوْله يُسَبّحونَ بِحَمْدِ رَبّهم ويُؤمِنُونَ بِهِ ويَسْتَغْفِرونَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبَّنا وَسِعْتَ كُلَّ شَيءٍ رَحْمَة وَعِلْماً فاغْفر للَّذِينَ تابُوا واتَّبَعُوا سَبيلَكَ وَقِهِمْ عَذابَ الجَحِيمِ﴾ [١].

وقال تعالى أيضاً:

﴿تَكادُ السّماواتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوقِهنَّ والملائِكَةُ يُسَبّحُونَ بحَمْدِ رَبّهِمْ وَيَسْتَغْفِرونَ لِمَنْ في الأرضِ أَلا إِنَّ اللهَ هُوَ الغَفُورُ الرَّحِيم﴾ [٢].

٢ـ دُعاء المؤمنين للذين آمنوا:

﴿وَالَّذِينَ جاءوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنا اغْفِر لَنا ولإِخْوانِنا الَّذِينَ سَبَقونا بالإيمانِ وَلا تَجْعَلْ في قُلوبِنا غِلاًّ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا رَبّنا إنَّك رَؤوفٌ رَحِيمٌ﴾ [٣].

❁ ❁ ❁

١ـ المؤمن: ٧.

٢ـ الشورى: ٥.

٣ـ الحشر: ١٠.

الأحاديث الدالّة على انتفاع الميت بفعل الحيّ:

تدل روايات كثيرة على أنَّ الميت ينتفع بعمل الغير، أمّا بدعائه فيكفي في ذلك ما تواتر عن النبي الأكرم ﷺ من زيارته لأهل بقيع الغرقد ودعائه لهم، وزيارته لشهداء أُحد وتعميمهم بالدعاء، وتكرار ذلك منه ولو لم ينتفعوا بدعائه لما قام به -عليه السلام- وقد عرفت الآيات الدالّة على انتفاع الميّت بدعاء الحيّ.

إنّما الكلام فيما إذا قامَ بِعَمَلٍ (لا بدعاء) قربيٍّ نيابةً عن الميّت، فالروايات المتضافرة تدلّ على صحّة العمل ووصول ثوابه إليه وانتفاع الميّت به، وقد وزّعت الروايات في الصحاح والمسانيد في مختلف الأبواب كالصوم والحجِّ والعتق والنذر والتصدّق والسقي وقراءة القرآن، فنحن نذكر هذه الروايات على هذا الترتيب، ولعلَّ المتتبع في الصحاح والمسانيد يقف على أكثر من ذلك.

أ ـ انتفاع الميّت بصوم الغير نيابةً عنه:

١ــ روى الشيخان عن عائشة: أنَّ رسولَ الله قال: مَن ماتَ وعليه صيامٌ، صام عنه وليّه.

٢ــ روى الشيخان أيضاً عن ابن عباس، قال: جاء رجلٌ إلى النبيّ وقال: يا رسول الله إنّ أُمّي ماتت وعليها صوم شهر أفأقضي عنها؟ قال: نعم: فديْن الله أحقُّ أن يُقضى.

٣ـ وفي رواية: جاءت امرأة إلى رسـول الله وقالت: يا رسول الله إنَّ أُمي ماتت وعليها صـومُ نذرٍ أفأصوم عنها؟ قال: أفرأيـت لو كان على أُمّك دينٌ فقضيتيه أكان يؤدي ذلك عنها؟ قالت: نعم. قال: فصومي عن أُمّك.

٤ـ روى بريدة قال: بينا أنا جالس عند رسول الله إذ أتته امرأةٌ وقالت: إنّي تصـدَّقت على أُمّي بجـارية وإنّها مـاتت. فقـال: وَجَبَ أجرُكِ، وردَّهـا عليك الميراث.

فقـالت: يـا رسـول الله إنَّـه كان عليهـا صـومُ شهـر أفأصـوم عنهـا؟ قـال: صومـي عنها. قـالت: إنّها لم تحج قـط، أفأحج عنهـا؟ قـال: حجي عنها [١].

ب ـ انتفاع الميت بحج الغير نيابة عنه:

٥ـ قال سعد بن عبادة: يـا رسول الله إنَّ أُم سعد في حياتها كانت تحج من مالي وتتصـدَّق وتصل الرحم وتُنفق من مالي وانّها مـاتت فهل ينفعها أن أفعل ذلك عنها؟ قال: نعم.

٦ـ وقـال ﷺ: لـو كان مسلماً فأعتقْتُـمْ عنه أو حَجَجْتُـمْ عنه بَلَغـه ذلك.

وقد مضى جواز الحج نيابة في الرواية الرابعة.

١ـ هـذه الـروايـات (١ـ ٥) رواهـا مسلـم في صحيحـه، ج ٣، بـاب قضـاء الصيـام عن الميّـت: ١٥٥ـ ١٥٦.

ج ـ انتفاع الميّت بعتق الغير عنه:

٧ـ عن عطاء بن رباح قال: قال رجل: يا رسول الله اعتق عن أُمّي؟ قال: نعم. قال: أينفعها؟ قال: نعم.

٨ ـ عن عبد الرحمان بن أبي عمرة الأنصاري: انَّ أُمّه أرادت أن تعتق فأخّرت ذاك إلى أن تصبح فماتت، قال عبد الرحمان: قلت للقاسم بن محمد: أينفعها أن أعتق عنها؟ قال القاسم: أتى سعد بن عبادة رسول الله، فقال: إنّ أُمّي هلكت فهل ينفعها أن أعتق عنها؟ فقال رسول الله: نعم.

وقد مضى في الرواية السادسة ما يدلّ على جواز العتق عن الغير.

د ـ انتفاع الميت بعمل الغير فيما إذا نذر ولم يعمل:

٩ـ جاء سعد بن عبادة إلى رسول الله فقال: إنَّ أُمّي كان عليها نذر، أفأقضيه؟ قال: نعم. قال: أينفعها؟ قال: نعم.

ورواه مسلم بلفظ آخر قال: استفتى سعد بن عبادة رسول الله في نذرٍ كان على أُمّه توفّيت قبل أن تقضيه. قال رسول الله : فاقضِه عنها.

هـ ـ إنتفاع الميت بصدقة الغير نيابة عنه:

١٠ـ عن أبي هريرة: أنّ رجلاً قال للنبي: إنّ أبي مات وترك مالاً ولم يوص، فهل يكفّر عنه أن أتصدّق عنه؟ قال: نعم.

١١ـ عن معاذ، قال: أعطاني رسول الله ﷺ عطيّةً، فبكيت. فقال: ما

يبكيك يا معاذ؟ قلتُ: يا رسول الله كان لأُمي من عطاء أبي نصيب تتصدَّق به وتقـدّمه لآخرتها وإنّها ماتـت ولم توص بشيء. قال: فلا يُبـك الله عينك يا معاذ أتـريد أن تُؤجـر أُمك في قبرها؟ قلت: نعم يـا رسول الله. قال: فـانظر الذي كان يصيبها من عطائك فامضه لها، وقل اللّهمّ تقبَّل من أُمّ معاذ.

فقال قائل: يـا رسول الله ألمعاذ خاصّة أَمْ لأُمّتك عـامّة؟ قال: لأُمّتي عامّة.

١٢ـ عن سعد أنّه سأل النبي ﷺ قال: يا نبي الله إنَّ أُمي قد افتلتت وأعلم أنَّها لو عاشت لتصدّقت أفإن تصدَّقتُ عنها أينفعها ذلك؟ قال ﷺ: نعم. فسأل النبيّ ﷺ: أيّ الصدقـة أنفع يـا رسول الله؟ قـال: الماءُ فحفر بئراً، وقال: هذه لأُم سعد.

واللام في قـوله: «هـذه لأُم سعد» هي الـلام الداخلة على الجهـة التي وجهت إليـه الصَّدقة وليسـت من قبيل اللام الـداخلة على المعبُـود المتقرَّب إليه، مثل قولنا: نذرتُ لله، وإن شئت قلت: اللام في قوله «لأُم سعد» مثل اللام الواردة في قوله تعالى: ﴿**إنَّما الصَّدَقاتُ للفُقراء**﴾ [١].

١٣ـ وفي صحيح البخاري عن عبـد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ: «إنَّ رجلاً أتى النبيّ فقال: يا رسول الله ﷺ إنّ أُمّي افتلتت نفسها ولم تُوص، وأظنّها لو تكلّمت تصدَّقت، أفلَها أجرٌ إن تصدَّقت عنها؟ قال: نعم».

١٤ـ وفي صحيح البخاري عن عبـد الله بن عباس ـ رضي الله عنهما ـ:

١ـ التوبة: ٦٠.

«أنّ سعدَ بن عبادة تُوفيت أُمه وهو غائب فأتى النبيّ ﷺ فقال: يا رسول الله إنَّ أُمي توفيت وأنا غائبٌ عنها فهل ينفعها إن تصدّقت عنها؟ قال: نعم، قال: فإني أُشهِدك أنَّ حائطي المخراف صدقة عنها» والمراد بالحائط البستان، والمخراف عبارة عن اسم ذلك الحائط.

١٥ـ وعن عبد الله بن عمر: «أنّ العاص بن وائل نَذَر في الجاهلية أن ينحر مائة بدنة، وأنَّ هشام بن العاص نحر خمسة وخمسين، وأنَّ عمراً سأل النبيّ ﷺ عن ذلك فقال: أمّا أبو ك فلو أقرّ بالتوحيد فصمت وتصدقت عنه نفعه ذلك» ورواه الإمام أحمد.

و ـ انتفاع الميّت بالذكر والدعاء والقراءة والتحية:

١٦ـ روى ابن ماجة في صحيحه: انَّ رسول الله قال: «إقرأوا (يس) على موتاكم».

١٧ـ وعن أبي هريرة: «زوروا موتاكم بـ (لا إله إلاّ الله)».

١٨ـ « ما من رجل يزور قبر حميمه فيسلّم عليه ويقعد عنده إلاّ ردّ عليه السلام وأنس به حتى يقوم من عنده».

١٩ـ «ما من رجل يمرّ بقبر كان فيه (مَن) يعرفه في الدنيا فيسلّم عليه إلاّ عرفه وردَّ عليه السلام».

٢٠ـ «ما الميت في قبر إلاّ شبه الغريق المتغوث ينتظر دعوةً من أب أو أُم أو ولد أو صديق ثقة فإذا لحقته كانت أحبّ إليه من الدنيا وما فيها، و إنّ

الله عزّ وجلّ ليُدخل على أهل القبور من دعاء أهل الدنيا أمثال الجبال، وإنَّ هدية الأحياء إلى الأموات الاستغفار لهم والصدقة عنهم».

٢١ـ من حديث أبي هريرة ــ رضي الله عنه ــ: قال: قال رسول الله : «إذا صلَّيتم على الميت فأخلصوا له الدعاء».

٢٢ـ وفي صحيح مسلم من حديث عوف بن مالك: قال رسول الله ﷺ على جنازة فحفظت دعاءه وهو يقول: «اللّهمّ اغفر له وارحمه وعافه وأعفُ عنه، وأكرم نُزله وأوسع مدخله، وأغسله بالماء والثلج والبرد ونقّه من الخطايا كما نقَّيت الثوب الأبيض من الدنس، وأبدله داراً خيراً من داره، وأهلاً خيراً من أهله، وزوجاً خيراً من زوجه، وأدخله الجنَّة وأعذه من عذاب القبر وعذاب النار».

٢٣ـ وفي السنن عن واثلة بن الأسقع قال: صلّى رسول الله على رجل من المسلمين فسمعته يقول: «اللّهمّ إنّ فلاناً ابن فلان في ذمّتك وحبل جوارك، فَقِه فتنةَ القبرِ وعذابهُ، وأنتَ أهلُ الوفاء والحقّ فاغفر له وارحَمه إنَّك أنتَ الغفُور الرحيم».

٢٤ـ وفي السنن من حديث عثمان بن عفان ــ رضي الله عنه ــ: كان النبي ﷺ إذا فَرَغَ من دفن الميت وقف عليه فقال: «استغفروا لأخيكم واسألوا له التثبيت فإنّه الآن يُسأل».

ولو استقصيت الصحاح والسنن لوقفت على روايات كثيرة من هذا القسم.

أضف إلى ذلك ما نقله عن النبيّ الأكرم عنـدما زار بقيع الغرقد، من دعائه لأهله وترحيمه لهم.

إلى غير ذلك من الأحـاديث والأخبار الواردة في هـذا المجال ومن أراد التبسّط فليرجع إلى مظانّـها [١].

موقف المذاهب الإسلامية من هذه المسألة:

وهؤلاء هم أئمّة المذاهب الثلاثـة (الحنبلي والشافعي والحنفي) يُفتون بانتفاع الميّت بعمل الحي حتّى إذا لم يوصِ به ولم يكن له فيه سعيٌ.

فهؤلاء هم فقهاء الحنابلة يقولون: ومن توفي قبل أن يحج الحج الواجب عليه سواء أكان ذلك بعذر أو بغير عـذر وجب عليه أن يخرج من جميع ماله نفقة حجة وعمرة ولو لم يوص [٢].

وهـذا هو الفقـه الحنفي يقول: أمّـا إذا لم يوصِ وتبرَّع أحـد الورثـة أو غيرهم فإنَّه يرجى قبولُ حجّتهم عنه إن شاء الله [٣].

وهذا هو الشـافعي يقول: فإن عَجَزَ عن مبـاشرة الحج بنفسه يحج عنه الغير بعد موته من تركته (ولم يقيّد بالإيصاء وعدمه) [٤].

١ـ لاحـظ للوقوف على مصـادر هذه الروايـات: صحيح مسلم، كتاب النـذر، ج٥: ٧٣ و ٧٨ وكنز العمال ج١٥: ١٥، وجـامع الأُصـول ج٨، والموطأ، والتـوسّل والزيـارة في الشريعـة الإسلاميـة للشيخ الفقي ٢٢٩ وغيرها.

٢ـ الفقه على المذاهب الأربعة للجزري ١: ٥٧١.

٣ـ المصدر نفسه ١: ٥٦٧.

٤ـ المصدر نفسه ١: ٥٦٩.

وقال ابن القيّم: واختلفوا في العبادة البدنية كالصوم والصلاة وقراءة القرآن والذكر فذهب الإمام أحمد وجمهور السلف إلى وصولها، وهو قول بعض أصحاب أبي حنيفة، نصَّ على هذا الإمام أحمد في رواية محمّد بن أحمد الكحّال. قال: قيل لأبي عبد الله: الرجل يعمل الشيء من الخير من صلاة أو صدقة أو غير ذلك فيجعل نصفه لأبيه أو أُمّه؟ قال: أرجو، أو قال: الميت يصلُ إليه كل شيء من صدقة أو غيرها، وقال: أيضاً إقرأ آية الكرسي ثلاث مرات وقل هو الله أحد، وقل: اللّهمّ إنّ فضله لأهل المقابر.

وقال: فقد أخرج ابن أبي شيبة في مصنّفه والخلال في جامعه عن الشعبي بسند صحيح. قال: كانت الأنصار إذا مات لهم الميّت، اختلفوا إلى قبره، يقرأون القرآن، وقال النووي في شرح المهذَّب: يُستحب (أي للزائر للأموات) أن يقرأ ما تيسَّر ويدعو لهم عَقِبَها. نصَّ عليه الشافعي واتّفق عليه الأصحاب.

وقال في الأذكار: قال الشافعي والأصحاب: يُستحب أن يقرأوا عند الميّت شيئاً من القرآن. قالوا: فإن ختموا القرآن كلّه كان حسناً.

ثمّ قال: وقد روي عن بعض الشافعية أنّه لا يصل ثوابها للميت.

ونقل عن جماعات من الشافعيّة أنَّهم أوّلوه بحمله على ما إذا لم يقرأ بحضرة الميّت، أو لم ينو ثواب قراءته له أو نواه ولم يدع [1].

وهذه الروايات وإن أمكن المناقشة في أسناد بعضها لكن المجموع متواترٌ مضموناً، فلا يمكن ردّ الكلّ.

١ـ الروح: ٢٣٥ـ٢٣٦.

أضف إلى ذلك وجود روايات صحيحة قاطعة للنزاع، والفقيه إذا لاحظ الكل مع ما أفتى به أئمّة المذاهب الثلاثة ينتزع ضابطة كليةً وهو وصول ثواب كل عملٍ قربيٍ إلى الميت، إذا أُتي به نيابةً عنه ، سواء كان العمل داخلاً فيما ذُكِرَ من الموضوعات أو خارجاً عنها، لأنّ الظاهر أنَّ الموضوعات كالصوم والحجّ وغيرهما من باب المثال، لا من باب الحصر.

فتلك الآيات والروايات وهذه الفتاوى، صريحةٌ في جواز القيام بعمل ما عن الميت من دون إيصاء، وبعبارة أُخرى: من دون سعي له فيه، فإذا لم ينتفع الميت بعمل الغير فكيف جاز الحجُّ عنه، أو وجب وكذا في سائر الأُمور الأُخرى كالاستغفار والدعاء له، وشفاعته والتصدّق والعتق عنه؟

ثمّ إنَّ للوهابيين شبهات في انتفاع الميث بعمل الغير، ولابدّ أن يُعلم قبل ذلك أنَّ التركيز من جانب هؤلاء على عدم الانتفاع واجهةٌ يريدون من ورائها إثبات أنَّ الميت لا يقوم بعمل حتى يُثبتوا بعد ذلك بُطلان التوسّل لأنّ المتوسّل به ميتٌ وهو لا يقوم بعملٍ بعد الموت إلى أن يبعثه الله يوم القيامة.

الشبهة الأُولى:

إنّ الله سبحانه يقول: ﴿وأنْ لَيْسَ لِلإنْسانِ إلاّ ما سَعى﴾ فالآية تحصر الانتفاع في العمل الذي سعى فيه الإنسان قبل موته ومعه كيف ينتفع بعمل الغير الذي لم يسع فيه؟

والجواب على هذا الشبهة من وجوه متعددة، ولكننا نذكر قبل الجواب

ما يفيد القارئ في المقام، وهـو أنَّه لو كان ظاهر الآية هو مـا يرومه المستدلّ وهـو: أنّ الغير لا ينتفع بعمـل الغير مـا لم يكن قـد تسبّـب إليـه في الحيـاة، لعارض هذا ظاهر الآيات الأُخرى والروايات المتضافرة في ذلك المجال، إذ لو كان كذلك فما معنى استغفار المؤمنين لإخوانهم الذين سبقوهم بالإيمان؟ وما معنى استغفار حَمَلَةِ العرش ومن حوله لأهل الإيمان؟

وما معنى هـذه الروايات الواردة في مجالات مختلفة، الـدالة على انتفاع الميّت بعمل الغير؟

كلّ ذلك يعـرب عن أنّ للآية مفاداً آخـر وهو غير ما يرومـه المستدلّ، و إليك تفسير الآية بالإمعان فيها، وذلك بوجوه:

الوجه الأوّل:

إنَّ سياق الآيات المحيطـة بهذه الآية سياق ذمٍّ وتنديـدٍ، وسياق إنذار وتهديد، فإنّه سبحانه يبدأ كلامه بقوله:

﴿أَفَرأَيْتَ الَّـذِي تَوَلَّـى * وَأعْطى قَلِيلاً وَأكْدى * أَعِنْـدَهُ عِلْمُ الغَيبِ فَهُوَ يَـرى * أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما في صُحُفِ مُوسـى * وَإِبْراهِيمَ الَّـذي وَفّى * أَلاّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرَى * وَأَنْ لَيسَ للإِنْسانِ إلاّ ما سعى * وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى * ثُمَّ يُجْزاهُ الجزاءَ الأوْفى * وَإنَّ إلى رَبّكَ المُنْتَهى﴾ [1].

فإنَّـك ترى أنّ الآيـات الحاضرة مثل سبيكـة واحدة صيغت لغـرض الإنذار والتهديد، خصـوصاً قوله: **﴿وأنْ لَيسَ للإِنْسـانِ إلاّ ما سعى﴾** فإنّ

١ـ النجم: ٣٣ـ ٤٢.

هذه الآيـة وقعت بين آيتين صريحتين في التهـديد المتقـدمة قـوله: ﴿ألاّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخرى﴾ والمتأخرة قوله: ﴿وأنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى﴾ ثم قوله: ﴿وَإِنَّ إلى رَبِّكَ المُنْتَهى﴾ .

فإنّ كلّ ذلك يعطي أنّ مـوضوع هذه الآية والآيات السابقـة واللاحقة هـو العقاب لا الثـواب، والسيئة لا الحسنـة، فالآيـة تصرّح بأنّ كل إنسـان يحمل وزرَ نفسه ويعاقب بالعمل السيّئ الذي سعى فيه، وأمّا العملُ السيّئ الذي اقترفه الغير ولم يكن للإنسان سعيٌ فيه فلا يؤخذ به، ولا يُعاقب عليه.

وعلى ذلك فاللام في قوله: ﴿للإنسان﴾ ليس للانتفاع بل اللام لبيان الاستحقاق وهو أحد معانيها [١] مثل قوله ﴿وَيْلٌ لِلمُطَفِّفِينَ﴾ وقوله: ﴿لَهُمْ في الدّنْيا خِزْيٌ وَلَهُمْ في الآخِرةِ عَذابٌ عظِيم﴾ [٢] وقوله ﷺ : الولد للفراش وللعاهر الحجر.

وعلى ذلك فا لموضوع الذي تُركّـز عليه الآيات هو العقاب لا الثواب، ولهذا تكون الآية خارجةً عن مصبِّ البحث وهذا ظاهرٌ لمن أمعن النظر.

الوجه الثاني:

لـو فـرضنا أنَّ محور البحـث في هـذه الآيـات هو الأعـمُّ من الثـواب والعقاب، وأن اللام في الآيـة للانتفاع، ولكن الآية مـع ذلك لا تنفي انتفاع

١ـ قـال ابن هشـام في المغني ١: ٢٠٨ وللام الجارة اثنـان وعشرون معنى أحـدها الاستحقـاق وهي الواقعة بين معنى وذات ... مثل ﴿لَهُمْ فِـي الدّنْيا خِزْي﴾ .

٢ـ البقرة: ١١٤ .

الإنسـان بعملِ غيره إذا كان لـلإنسان المنتفـع سعيٌ فيـه، ولو بإيجاد أرضيّـة صالحة لـلانتفاع به في ذاتـه، في قبال من لا يوجـد في نفسه وذاته مثـل هذه الأرضية والاستعداد والقابلية والمقتضي.

فمثلاً الإنسـان ينتفع بشفاعـة النبيّ الأكرم يوم القيـامة باتفـاق جميع المسلمين حتّى الـوهـابيين، ولكن انتفـاعـه هذا نـاشـئ من أنَّـه سعى لهذا الانتفاع حيث دخل في حظيرة الإيمان بالله وآياته.

وكذلـك الأمر في استغفـار المؤمنين للمؤمن بعـد موتـه، وكذا الأعمال الصالحة التي يُهدى ثوابها إلى أحد وتكون على وجـه يرتبط بسعيه في الدخول في زُمرة المؤمنين.

ولذلك لـو كان مُشركاً أو ممّن تحبط أعماله، لا يصل إليـه ذلك الثواب ولا ينتفع بعمل الغير.

وقـد تفطّن لهذا الجواب بعض أئمّـة أهل السنّة. قـال أبـو الوفـاء بن عقيل: إنّ الإنسان بسعيه وحسن معاشرتـه، اكتسب الأصدقاء وأولدَ الأولاد وتزوج وأسدى الخير وتودّد للناس، فنشأ عن ذلك أنَّهم ترحَّموا عليه وأهدوا له العبادات، وقـد كان ذلك مـن آثار سعيـه كما قال ﷺ : «إنّ أطيب مـا أكل الرجل من كسبه» ويدلّ على ذلـك الحديث الآخر: «وإذا مات العبد، انقطع عمله إلّا من ثلاث ...».

وقال الشيـخ الفقي: «هذا جـوابٌ يحتاج إلى إتمام، فـإنّ العبد بإيمانـه وطاعته لله ورسـوله قد سعى في انتفاعه بعمل إخـوانه المؤمنين مع عمله، كما ينتفع بعملهم في الحياة مع عَمَله، فإنَّ المؤمنين ينتفع بعضهم بعمل بعض في

الأعمال التي يشتركون فيها، كالصلاة في جماعة، فإنّ كل واحد منهم تُضاعف صلاته إلى سبع وعشرين ضعفاً لمشاركة غيره له في الصلاة، فعمل غيره كان سبباً لزيادة أجره، كما أنّ عمله كان سبباً لزيادة أجر الآخر».

أضف إلى ذلك أنَّ القرآن لم ينف انتفاع الرجل بسعي غيره وإنّما نُفي ملكه لغير سعيه، وبين الأمرين فرقٌ كبير، فأخبر تعالى أنّه لا يملك إلاّ سعيه فإن شاء أن يُبدّله لغيره وإن شاء أن يبقيه لنفسه، فهو سبحانه لم يقل لا ينتفع إلاّ بما سعى [1].

الوجه الثالث:

إنَّ الآية بصدد بيان أنَّ عمل كل إنسان راجع إليه دون غيره، وأين هذا من عدم انتفاع الإنسان بعمل الغير؟ فإنّه غير داخل في منطوق الآية ولا في مفهومها، ولا الآية ناظرة إلى نفيه.

وإن شئت قلت: إنّ الآية بصدد بيان أنَّ كلَّ إنسان رهنُ عمله فإن عَمِلَ شَرّاً فلا يتحمّله غيره ﴿وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى﴾ وإن عمل خيراً فيسعد به ويرى عمله وسعيه، فـ «الناس مجزيون بأعمالهم إن خيراً فخير وإن شراً فشر» و ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها﴾ [2]، ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقالَ ذَرَّةٍ خَيراً يَرَه * وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرّاً يَرَه﴾ [3] وهذه هي الضابطة

١ـ التوسّل والزيارة للشيخ محمد الفقي: ٢٣٤، والمؤلف من علماء الأزهر الشريف.

٢ـ السجدة: ٤٦.

٣ـ الزلزلة: ٧ـ٨.

الأصلية في حياة الإنسان عاجلاً وآجلاً، وليس لأحد رفضها والاعتماد على غيرها، ولكنّه لا ينافي جواز أن يهدي العامل ثوابَ عمله إلى غيره ويسعد الغير به فهو خارج عن مفاد الآية إيجاباً وسلباً.

وهذا مثل قول الوالد لولده: إنَّما تنتفع بتجارتك وسعيك، وانّ سعيَ كل إنسان له نفسه لا للغير، وهذا لا ينافي أن ينتفع هذا الولد بعمل غيره إذا أهدى إليه ذلك الغير شيئاً من الطعام والفواكه والألبسة بنيّاتٍ مختلفة، فليس للولد حينئذ أن يعترض على والده ويقول: إنَّك قلت إنَّك تنتفع بسعيك مع أنني انتفعت بسعي الغير، إذ للوالد أن يقول إنَّ كلامي في نفس العمل الصادر منك ومن غيرك، فكلٌّ يملك عملَ نفسه ولا يتجاوزه، ولكن كلامي هذا ليس ناظراً إلى ما لو وهب أحد حصيلة سعيه إليك بطيبة نفسه.

وكيف يمكن أن يقول بما يقوله هذا الوهابي ونظراؤه وقد تضافرت الآيات والأحاديث ـ كما مرّ عليك بعضها ـ بانتفاع الإنسان بعمل الغير في ظروف معيّنة، وتحت شرائط خاصَّة وإن لم يكن له أدنى سعي فيها.

هذه الآية تشير إلى نكتة وهي: أنّه يجب على الإنسان الاعتماد على السعي والعمل لا على الحسب والنسب، وألاّ يكون المسلم مثل اليهود الذي كانوا يتمنّون تمنّي الحمقى إذ كانوا يعتمدون على صلتهم وانتمائهم إلى الأنبياء بقولهم: ﴿**نَحْنُ أَبْناءُ اللهِ وأَحِباؤُهُ**﴾ (١) أو قولهم: ﴿**لَنْ تَمَسَّنا النّار إلاّ أياماً مَعْدودَة**﴾ (٢).

١ـ المائدة: ١٨.

٢ـ البقرة: ٨٠.

نعم، هذه كما قلنا ليست ضابطة أصيلة في سعادة الإنسان في دنياه وأُخراه وليس له أن يعتمد عليها ويتخذها سنداً وإن كان أمراً صحيحاً في نفسه، وليس كلُّ أمرٍ صحيحٍ يصحّ أن يعتمد عليه الإنسان ويعيش عليه كشفاعات الأنبياء والأولياء فلا يجوز ترك العمل بحجّة أنّهم يشفعون.

الشبهة الثانية:

إنَّ السنّة دلّت على أنّ الإنسان لا ينتفع بعد موته إلاّ بأُمور ثلاثة إذ يقول ﷺ:

«إذا مات الإنسان انقطع عملُه إلاّ من ثلاث: صدقة جارية ، أو علم ينتفع به، أو ولد صالح يدعو له» [1] وليس عمل الغير أحد هذه الأُمور، فتدلّ السنّة على عدم انتفاع الإنسان بعمل الغير.

والجواب واضح فإنّ الحديث المذكور بصدد بيان أنَّ عمل الإنسان ينقطع بموته، وحلول أجله، ولا تستمر إلاّ هذه الأُمور الثلاثة، فإنّ لهذه الأعمال بقاءً، وانّ الإنسان ينتفع بهذه الأعمال الباقية الخالدة، وعلى ذلك فالرواية ترجع إلى مسألة انقطاع الأعمال التي يقوم بها الإنسان بعد موته، وعدم استمرارها، وأمّا أنّه لا ينتفع بعمل الغير فهو ليس داخلاً في موضوع الآية حتى ينتفع بها الميت أو لا ينتفع.

وبعبارة أُخرى: إنّ الموضوع في الحديث هو أنّ الأعمال المباشرية التي يقوم بها الإنسان تنقطع بموته، إلاّ إذا كانت أحد هذه الأُمور الثلاثة.

١ـ رواه ابن ماجة.

وأمّـا الأعمال التي ليس لـلإنسان فيهـا دورٌ لا مباشرةً ولا تسبيبـاً فهي خارجـة عن مصبّ هذه الحديـث، حتى يقال بعدم انتفـاعه بها، فلابـدّ من الـرجوع في معـرفـة حالها إلى الكتـاب والسنّة، وقـد عـرفت تضـافر الآيـات والأحاديث على انتفاع الإنسان بعمل الغير.

وبعبارة ثـالثة: إنّ الحديث يقـول: إنّ عمل الإنسان ينتهي بمـوته إلاّ ثـلاثة أعمال فإنّها تبقـى حتّى بعد مـوتـه، وعلى هذا فمـوضوع البحث هـو الأعمال الصادرة عن الإنسـان التي تنقطع بموته، وأمّـا أعمال الآخرين التي ليست للإنسان أيّة دخالة فيهـا فهي خارجة عن موضوع البحث، والحديث لا يدل على جواز الانتفاع بها ولا على عدم الجواز.

الشبهة الثالثة:

الحوالـة إنّما تكـون بحقٍّ لازمٍ، وهي تتحقـق في حوالـة المخلـوق على المخلوق، وأمّـا حوالـة المخلوقِ على الخالق فأمـرٌ آخر، لا يصحّ قيـاسه على حوالة العبيد بعضهم على بعضٍ.

الجواب: انّ هذا الموقـف وهذا الكلام اجتهـاد في مقابل النـص، فقد تضافـرت الأدلّة على أنّ الميت ينتفع بعمل الحي وقد عـرفت نصوصه كتـاباً وسنّة وبعد هذا فما معنى هذا الاستدلال؟

أضف إليه أنّـه ليس هناك حـوالة مخلوق على الخالق وإنّما هـو امتثالٌ لأمره سبحـانه بأن نستغفـر للمؤمنين ونصـوم ونصلّـي عنهم ونحـجّ وننحر

عنهم، وإنّا لـو فعلنا ذلك لانتفع الأمـوات، ونحن نقوم بذلـك حسب أمر النبي، وليس هناك حوالة مخلوق على الله.

هب أنَّ الثـواب على العمل تفضّليٌّ لا استحقاقـيٌّ وله سبحـانه أن لا يعطي شيئاً للعامل، ولكنّه سبحانه تفضَّل وجعل ثواباً على العمل ثمّ رخّص في أن يؤتى العمـل بنيّة الميت ومن جانبـه وأنَّه سيصل إليـه الثواب بل وتبرأ ذمّته، فلا يصحُ لنا اللجاج والعناد في مقابل النصوص.

الشبهة الرابعة:

إنّ العبادات على قسمين: قسـم يمكن فيه النيابـة كالصـدقة والحجّ، وقسمٌ لا يمكن فيـه النيابة كالإسـلام والصلاة وقراءة القرآن والصيـام، فهذا النوع يختص ثوابه بفاعِلِهِ لا يتعداه ولا ينتقل عنه لغيره.

والجواب: انّ هذا أيضـاً اجتهاد في مقـابل النصّ فما الدليـل على هذه التفرقة وقد شرع النبيّ الصوم عن الميت مع أنّ الصوم لا تدخله النيابة، والله الذي أوصـل ثواب الحجّ والصدقـة والعتق هو بعينـه يوصل ثـواب الصيام والصلاة والقراءة وغيرها ممّا يصحّ أن يفعله عنه الغير تبرّعاً.

وماذا يقولون في قوله ﷺ : «من مات وعليه صيامٌ صام عنه وليّه» وهو حديث صحيح؟

وقال البيهقي: قد ثبت جواز القضاء عن الميّت برواية سعيد بن جبير، ومجاهد، وعطاء، وعكرمة، عن ابـن عباس، وفي رواية بعضهم: «صومي عن أُمك».

وقد روى أبو بكر بن أبي شيبة عن ابن عباس: جاء رجل إلى النبي فقال: يا رسول الله إنّ أُمي ماتت، وعليها صيامُ شهر أفأقضي عنها؟

فقال النبي ﷺ: «لو كانَ عليها دينٌ أكنت قاضيه عنها؟ قال: نعم. قال: «فدين الله أحق أن يُقضى».

وأخرج أصحاب السنن، وابن حبان، والحاكم في المستدرك، والبيهقيّ في «الشعب» والإمام أحمد عنه ﷺ: «يس» قلب القرآن ولا يقرأوها رجلٌ يريد الله والدار الآخرة إلاّ غفر له واقرأوها عند موتاكم.

وروى البيهقي: أنّ ابن عمر استحبّ أن يُقرأ على القبر بعد الدفن أول سورة البقرة وخاتمتها.

دفع شبهة:

ربّما يتوهم أنّ اللام في قولهم: هذا للنبي أو للإمام أو للولي، أو للوالد، هو نفس اللام الموجودة في قولنا: نذرت لله، أو لله علي، ولأجل ذلك زعموا أنَّ النذر للأموات شرك وعبادة لهم، بحجّة اشتراك العملين في الصورة.

ولكنّ المتوهّم غفل عن اختلاف معنى اللام في الموردين فاللام في قوله هذا للنبي، نفس اللام الوارد في قوله تعالى: ﴿**إنّما الصَّدقات لِلْفُقَراءِ والمَساكِين...**﴾ [1] ويختلف معناها مع الموجود في قوله: ﴿**رَبِّ إنّي نَذَرْتُ لَكَ**

١ـ التوبة: ٦٠.

ما في بَطْني مُحَرَّراً﴾ [١].

فإنّ اللام فيه للغاية، وبين المعنيين بونٌ بعيد والذي يضفي على العمل لون العبادة، كون الشخص هو الغاية والمقصد.

ثم يجب أن لا نحصر جواز إهداء الثواب في الأعمال المذكورة في الروايات بل نُعَمِّم هذا الجواز بحيث يشمُلُ جميع الأعمال وذلك بالغاء الخصوصيّة، فكما يجوز إهداء ثواب الصدقة والحجّ والعتق يجوز إهداء ثواب قراءة القرآن إلى الموتى.

خاصّة وأنّ هناك أحاديث مرويةٌ عن أهل البيت ـ عليهم السلام ـ جوّزت مثل هذا العمل، وسوّغت إهداء ثواب قراءة القرآن إلى الميّت وصرّحت بوصوله إليه، وانتفاعه به فلماذا يُترك رأي أهل البيت ـ عليهم السلام ـ ويكتفى بقول أحد أئمة المذاهب الأربعة.

أفلا ينبغي الرجوع إلى قول أهل البيت إلى جنب أقوال أئمّة المذاهب الأربعة على قدم المساواة.

وأظن أنّ للقوم وراء هذا الإنكار أهدافاً خطيرةً وهو: أنّ القول بعدم انتفاع الموتى من عمل الأحياء ذريعة لإنكار حياتهم، وبالتالي أنّ الأنبياء والأولياء أمواتٌ لا ينتفعون بشيء ممّا يُقَدّم إليهم من أحبائهم وشيعتهم.

فإذا كانوا كذلك فما معنى التوسّل والاستغاثة بهم وندائهم؟!

١ـ آل عمران: ٣٥.

بحث في النذور:

قد تفضّل رسول الله ﷺ فضحّى عن أُمته أحياءً وأمواتاً وضحّى الصحابة والتابعون عن نبيّهم، فقد أخرج ابن ماجة وعبد الرزاق وغيرهما عن عائشة وأبي هريرة: أنَّ النبيّ ﷺ كان إذا أراد أن يُضحّي اشترى كبشين عظيمين سمينين أقرنين أملحين موجودين فذبح أحدهما عن محمّد وآل محمّد والآخر عن أُمّته من شَهِدَ لله بالتوحيد وله بالبلاغ.

وأخرج أحمد وأبو داود والترمذي: أنّ النبيّ ذبَحَ بيده وقال: «اللّهمّ هذا عنّي وعمَّن لم يضحّ من أُمّتي».

وصريح ذلك وصول الثواب إليهم وانتفاعهم.

روى أبو داود بسنده في باب الأضحية عن الميت عن عليّ بن أبي طالب أنّه كان يضحّي عن النبيّ بكبش وكان يقول: «أوصاني أن أُضحّي عنه فأنا أُضحّي عنه» [١].

ما يترتب على هذا الأصل:

ويترتّب على هذا الأصل صحّة عمل المسلمين حيث يقومون بأعمال حسنة صالحة وربّما أهدوا ثوابها إلى أحبّائهم وأعزّتهم الموتى، وهو أمرٌ يوافق عليه الكتاب والسنّة، بل صرّحا به تصريحاً.

١ ـ سنن أبي داود ج٢ كتاب الضحايا.

فما يقوم به المسلمون لموتاهم من إهداء ثواب الأعمال الصالحة لهم، أو ما يفعلونه عند قبور الأنبياء والأولياء من إطعام الطعام وتسبيل الماء بنيّة أن يصل ثوابها إليهم إنّما يقتدون فيها بسعد بن عبادة الذي سأل النبيّ عن حُكم الصدقة عن أُمّه أينفعها ؟ فقال ﷺ : نعم . فقال فأيُّ الصدقة أفضل؟ قال: الماء. فحفَرَ بئراً، وقال: هذه لأُم سعد.

فهم في هذا سعديون لا وثنيّون، لا يريدون عبادة الموتى، بل يريدون إيصال الثواب إليهم كما فعل سعد.

١٢

زيارة القبور
في السنّة النبوية
والسفر إلى زيارة النبيّ الأكرم

- زيارة القبور والآثار الأخلاقية والتربوية.
- شبهتان لابن تيميّة وجوابهما.
- معالجة حديث النهي عن شدّ الرحال إلى غير ثلاثة مساجد.

زيارة القبور والآثار الأخلاقية والتربوية:

إنّ زيارة القبور تنطوي على آثار أخلاقية وتربوية هامّة، لأنّ مشاهدة المقابر التي تضم في طياتها مجموعة كبيرة من الذين عاشوا في هذه الحياة، ثمّ انتقلوا إلى الآخرة يؤدّي إلى تخفيف روح الطمع والحرص على الدنيا، وربّما يغيّر سلوك الإنسان فيترك المظالم والمنكرات ويتوجه إلى الله والآخرة.

لـذا يقـول الـرسـول الأعظم ﷺ : «زُوروا القبـور فـإنّها تــذكّـركـم بالآخرة» (١).

وربّما يُستفاد من بعض الأحاديث أنّ النبيّ نهى يـوماً عن زيارة القبور ثمّ رخّصهـا، ولعلّ النهي كان لملاك آخـر وهو أنَّ كثرة الأمـوات ـ يـومذاك ـ كانوا من المشركين فنهى النبي عن زيارتهم و لمّا كثر المؤمنون بينهم رخّصها بإذن الله عزّ وجلّ وقـال: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروهـا فإنّها تُزهّد في الدنيا وتذكّر في الآخرة» (٢).

وقالت عائشة: إن رسول الله رخَّـص في زيارة القبور. وقالت: إنَّ النبي قال: «أمرني ربي أن آتي البقيع وأستغفر لهم» قلـت: كيف أقول يا رسول الله ﷺ ؟

قال: «قولي: السلام على أهل الـديار من المؤمنين والمؤمنات يرحم الله المستقدمين منّا والمستأخرين إنّا إن شاء الله بكم لاحقون».

وقـد جاء في الصحـاح والمسانيـد صور الـزيارات التـي زار بها النبي البقيع (٣).

هذا كلّه في زيارة قبور المسلمين وأمّـا زيارة أوليائهم من النبيّ والأئمّة والشهداء والصالحين، فلا شكّ أنّ لزيارتهم نتائج بنّاءة نشير إليها.

١ـ شفاء السقام: ١٠٧.

٢ـ سنن ابن ماجة ١: ١١٧، باب من جاء في زيارة القبور.

٣ـ لاحظ صحيـح مسلم ٢: ٦٤ باب ما يقـال عند دخول القبور، والسنـن للنسائي ٧٦ والسنن لأبي داود ٢: ١٩٦ وغيرهما.

إنّ زيارة مراقد هذه الشخصيات هو نوعٌ من الشكر والتقدير على تضحياتهم وإعلام للجيل الحاضر بأنّ هذا هو جزاء الذين يسلكون طريق الحق والهدى، والفضيلة، والدفاع عن المبدأ والعقيدة، وهذا لا يدفعنا إلى زيارة قبورهم فقط، بل إلى إبقاء ذكرياتهم حيّةً ساخنةً، والمحافظة على آثارهم وإقامة المهرجانات، في ذكرى مواليدهم، وعقد المجالس وإلقاء الخُطَب المفيدة في أيام التحاقهم بالرفيق الأعلى، وهذا شيء يدركه كل ذي مسكة.

ولأجل ذلك نرى أنّ الأُمم الحيّة يتسابقون في زيارة مدفن رؤسائهم وشخصياتهم الذين ضحّوا بأنفسهم وأموالهم في سبيل إحياء الشعب، واستقلاله من أيدي المستعمرين والظالمين ويقيمون الذكريات المؤدّية لإحياء معالمهم، دون أن يخطر ببال أحد أنَّ هذه الأُمور عبادة لهم، فأين التعظيم للشخصيات من عبادتها؟ فإنّ التعظيم تقدير لجهودهم والعبادة من تأليههم واتخاذهم أرباباً. فهل هناك من يخلط بين الأمرين منّا أو من غيرنا.

إذا وقفت على الآثار البنّاءة لزيارة مطلق القبور وزيارة قبور الأولياء والصالحين نذكر خصوص ما ورد من الروايات التي جاء فيها البعث والحثُّ على زيارة قبر النبيّ الأعظم ﷺ.

قد نقل القاضي تقيُّ الدين أبو الحسن عبد الكافي السبكي ١٥ حديثاً في ذلك المجال وتكلّم في أسنادها وصحَّح كثيراً منها [١].

١ـ شفاء السقام في زيارة خير الأنام: ٣ـ ٣٤ الباب الأوّل في الأحاديث الواردة في الزيارة.

كما قام العلاّمة السمهوديّ المتوفى سنة ٩١١ في كتابه القيّم (وفاء الوفا بأحوال دار المصطفى) بنقل روايات كثيرة في هذا المجال[١].

كما أنَّ الفقهاء والمذاهب الأربعة في مصر في العصر الحاضر أفتوا بأنّ زيارة قبر النبي من أفضلِ المندوبات ونحن نذكر بعض الروايات إتماماً للفائدة:

١ـ عن عبد الله بن عمر: «من زار قبري وجَبَتْ له شفاعتي».

وقد بسط تقي الدين السبكي في طريق هذا الحديث في شفاء السقام ١٠٣ وقال في صفحة ٨: والرواة جميعهم إلى موسى بن هلال ثُقاة لا ريب فيهم وموسى بن هلال من مشايخ أحمد بن حنبل وأحمد لم يكن يروي إلاّ عن ثقة، وقد نقله من الحفّاظ قُرابة ٤٠ حافظاً.

٢ـ عن عبد الله بن عمر مرفوعاً: «إنَّ من جاءني زائراً لا تحمله إلاّ زيارتي كان حقّاً عليّ أن أكون له شفيعاً يوم القيامة».

وقد رواه عن الحافظ ١٦ حافظا.

وقد فصّل السبكيّ في طريق هذا الحديث وأخرجه من طرق شتّى، لاحظ ص ١٣ ـ ١٦.

٣ـ عن عبد الله بن عمر: من صبَّح فزار قبري بعد وفاتي كان كمن زارني في حياتي.

أخرجه من الحفّاظ قرابة خمس وعشرين حافظاً.

١ـ وفاء الوفا ٤ : ١٣٣٦

وقد بسط تقي الدين السبكي الكلام في طُرُقه في شفاء السقام ص ١٦ ــ ٢١ فمن أراد التوسّع والوقوف على متون الروايات وأسماء من أخرجها من الحفّاظ فليرجع إلى «شفاء السقام» للسبكي، ووفاء الوفا للسمهودي و إحياء العلوم للغزالي، شرح الشفاء للقاضي إلى غير ذلك من الكتب المؤلفة في هذا المجال.

شبهتان لابن تيميّة وتابعيه في زيارة النبيّ

ولقد أثار ابن تيميّة شبهتين في هذا المجال نشير إليهما:

١ـ كون الزيارة على هذا الوجه المخصوص بدعةً.

٢ـ كون الزيارة من تعظيم غير الله المفضي إلى الشرك.

أمّا الشبهة الأُولى؛ فهي باطلةٌ من رأسٍ، وذلك لأنَّ البدعة الاصطلاحية المحرّمة فقهياً ـ كما أسلفنا ـ هو «إدخال ما ليس في الدين، في الدين».

ثمّ هل يمكن لأحدٍ بعد هذه النصوص المتضافرة القول بأنّ زيارة قبور الأنبياء والأئمة والأولياء ليست من الدين؟ وأنّه لم يأمر بها وقد أمر هو بزيارة القبور؟

فهل يتصوّر أنّه لا يعادل زيارة قبر مُسلم؟

كبرت كلمةً تخرج من أفواههم، وقد أمر النبيُّ بزيارة قبور المؤمنين، ويكون هو ـ العياذ بالله ـ أقل درجةً من متابعيه.

وأمّا الشبهة الثانية، فنقول: كيف تكون زيارة النبيّ مفضية إلى الشرك

مع أنّ زيارة قبر نبيِّ التوحيد استشعارٌ لحقيقته، وتقديس لمعناه؟

ونعم ما كتب الشيخ محمد أبو زهرة في هذا المجال إذ قال:

فإنّ التقديس الذي يتصل بالرُّسل إنّما هو لفكرتهم التي حملوها، فالتقديس لمحمّد ﷺ تقديس للمعاني التي دعا إليها، وحث عليها فكيف يُتصوّر من مؤمن عَرِفَ حقيقة الدعوة المحمدية أن يكون مُضمراً لأي معنىً من معاني الوثنية وهو يستعبر العبر، ويستبصر ببصيرته عند الحضرة الشريفة والروضة المنيفة، فإذا كان خوف ابن تيمية من أن يؤدي ذلك إلى الوثنية بمضيّ الأعصار والدهور، فإنّه خوفٌ من غير جهة، لأنّ الناس كانوا يَزُورُون قبر الرسول ﷺ إلى أوّل القرن الثامن ثم استمرُّوا على هذه السيرة في العصور من بعده إلى يومنا هذا، ومع ذلك لم يُنظر إلى هذا العمل نظرة عبادة أو وثنية، ولو تفرط أحدٌ فهو من العوامّ ، ولا يمنع تلك الذكريات العطرة، بل يجب إرشادهم لا منعهم من الزيارة وتكفيرهم [١].

وقال الشيخ محمد زاهد الكوثري أحد علماء الأزهر الشريف:

إنَّ سعي ابن تيمية في منع الناس من زيارة النبيّ ﷺ يدلّ على ضغينةٍ كامنةٍ فيه نحو النبيّ ﷺ وكيف يُتصوّر الإشراك بسبب الزيارة والتوسُّل في المسلمين الذي يعتقدون في حقّه أنّه عبده ورسولُه وينطقون بذلك في صلاتهم نحو عشرين مرّة في كل يوم على أقل التقادير إدامةً لذكرى ذلك، ولم يزل أهل العلم ينهون العوام من البدع في كل شؤونهم ويرشدونهم إلى السنّة في الزيارة وغيرها إذا حدث منهم بدعةٌ في شيء، لم يعدوهم في يوم

١ـ كلام أبو زهرة في كتابه حول حياة ابن تيمية.

من الأيـام به مشركين بسبب الـزيارة أو التـوسّل، وأوّل من رماهُـم بالإشراك بتلك الوسيلة هو ابن تيمية، وجـرى خلفه من أراد استباحة أموال المسلمين ودمائهم لحاجةٍ في النفس[1].

السفر إلى زيارة النبي الأكرم ﷺ :

وربّما يظهر مـن بعض الوهـابيين، القول بجـواز زيارة النبـي الأكرم، ولكن يُحرّم شدّ الرحال إليها، مستدلاً بحديث ستعرفه.

والذي يدل على جواز السفر أُمور نشير إليها:

الأوّل: ما ورد من الأحاديث في الحث على زيارة النبيّ ﷺ وسيوافيك نصّها فإنّها بين صريح في جـواز السفر أو مُطلق يعمُّ المقيم والمسـافر، فقول النبيّ وفعله حجّتان .

أمّا قـوله: فقـد روي عن عبد الله بـن عمر أنّه قـال النبيّ ﷺ : «من جاءني زائراً لا تعمله (تحْمِلهُ) إلاّ زيارتي في حياتي».

واللفظ الثاني صريـحُ في الجواز مطلق يعم المسافـر والمقيم في المدينة، وستوافيك هذه النصوص عن أعلام المحدّثين.

وأمّا فعله: فقد روي عن طلحة بن عبد الله قال: خرجنا مع رسول الله يُريدُ قبـور الشهداء إلى أن قال: فلمّـا جئنـا قبور الشهداء قال: «هـذه قبور إخواننا»[2].

١ـ تكملة السيف الصقيل: ١٥٦.

٢ـ أخـرجه أبـو داود في سننـه ١: ٣١١ والبيهقي في السنـن الكبرى ٥: ٣٤٩، والمراد من الشهـداء شهداء أُحد كما هو مورد الحديث.

الثاني: الإجماع، لإطباق السلف والخَلَف، لأنّ الناس لم يزالوا في كلّ عامٍ إذا قضوا الحج يتوجّهون إلى زيارته ﷺ وأنّه من يفعل ذلك قبل الحج.

قال السبكي: هكذا شاهدناه وشاهده من قبلنا وحكاه العلماء عن الأعصار القديمة وكلُّهم يقصدون ذلك ويعرجون إليه وإن لم يكن طريقهم، ويقطعون فيه مسافةً بعيدةً وينفقون فيه الأموال، ويبذلون فيه المهج، معتقدين أنَّ ذلك قربةٌ وطاعةٌ، وإطباقُ هذا الجمعِ العظيم من مشارِقِ الأرض ومغاربها على مرّ السنين وفيهم العلماء والصلحاء وغيرهم يستحيل أن يكون خطأ وكلُّهم يفعلون ذلك على وجه التقرّب به إلى الله عزّ وجلّ، ومن تأخر فإنّما يتأخر بعجزٍ أو تعويق المقادير مع تأسُّفه عليه وودّه لو تيسَّر له ومن ادّعى أنّ هذا الجمع العظيم مجمعون على خطأٍ فهو المخطئ.

وما ربّما يقال من أنّ سفرهم إلى المدينة لأجل قصد عبادةٍ أُخرى وهو الصلاة في المسجد، باطلٌ جداً، فإنّ المنازعة فيما يقصُدُه الناس مكابرةٌ في أمر البديهة فمن عَرِفَ الناس عَرِفَ أنَّهم يقصدون بسفرهم الزيارة يعرّجون إلى طريق المدينة ولا يخطر غير الزيارة من القُرُبات إلاّ ببال قليلٍ منهم، ولهذا قلَّ القاصِدُون إلى البيتِ المقدَّس مع تيسّر إتيانه، وإن كان في الصلاة فيه من الفضل ما قد عُرِفَ، فالمقصودُ الأعظم في المدينة الزيارة كما أنّ المقصود الأعظم في مكّة الحجّ أو العمرة، وصاحب هذا السؤال إن شكّ في نفسه فليسأل من كلّ من توجّه إلى المدينة ما قَصَدَ بذلك؟ [1].

الثالث: انّه إذا كانت الزيارةُ قربةً وأمراً مُستحباً على الوجه العام أو

١ـ شفاء السقام في زيارة خير الأنام لتقي الدين السبكي: ٨٥ ـ ٨٦، ط بولاق مصر.

الخاص فالسفر وسيلةُ القربة، والوسائل معتبرةٌ بالمقاصد فيجوز قطعاً.

الرابع: ما نقله المؤرخون عن بعض الصحابة والتابعين في هذا المجال.

قال ابن عساكر في ترجمة بـلال: إنّ بلالاً رأى في منامه رسول الله وهو يقول لـه: ما هـذه يا بلال، أمـا آن لك أن تـزورني يا بلال؟ فـانتبه حـزيناً، وجِلاً خائفاً، فَرَكِبَ راحلتَه وقصد المدينة فأتى قبر النبيّ ﷺ فجعل يبكى عنده ويمرّغ وجهـه عليه، فأقبل الحسنُ والحسين ــ رضي الله عنهما ـ فجعل يضمُّهما ويقبّلهما فقالا له: نشتهي نسمعُ أذانك الذي كنت تؤذّن به لرسول الله ﷺ ، فَفَعَلَ، فعلا سطحَ المسجد، فوقف موقفه الذي كان يقف فيه، فلما أن قال: «الله أكبر ــ الله أكبر» ارتجّت المدينة، فلما أن قال: «أشهـد أنّ لا إله إلاّ الله» ازدادت رجّتها، فلما أن قـال: «أشهد أنّ محمّداً رسـولُ الله» خرجت العواتـقُ من خُدورهـن فقالـوا: أَبُعِثَ رسولُ اللهِ. فما رُئي يـوماً أكثـر باكيـاً بالمدينة بعدَ رسول الله من ذلك اليوم (١).

إنّ عمر بـن عبد العـزيز كـان يبعث بالـرسول قـاصداً مـن الشام إلى المدينة ليقرئ النبيّ السلام ثمّ يرجع.

قال السبكي: إنّ سفـر بلال في زمن صدر الصحابة ورسـول عمر بن عبد العزيـز في زمن صدر التابعين من الشام إلى المدينـة، لم يكن إلاّ للزيارة والسلام على النبيّ ولم يكـن الباعثُ على السفر ذلـك من أمر الدنيـا ولا من أمر الدين ولا من قصد المسجد ولا من غيره (٢).

---

١ و ٢ ـ شفاء السقام: ٤٤ ـ ٤٧ وقد نقله من مصـادر كثيرة، قال: وذكره الحافظ أبو محمّد عبد الغني المقدسي في «الكامل في ترجمة بلال».

إنّ عمر لما صالح أهل بيت المقدس وقدم عليه كعب الأحبار وأسلم وفرِحَ عمر بإسلامه، قال عمر له: هل لك أن تسير معي إلى المدينة وتزور قبر النبي وتتمتع بزيارته؟ فقال لعمر: أنا أفعلُ ذلك، ولما قدم عمرُ المدينة أول ما بدأ بالمسجد وسلم على رسول الله.

ذكر ابن عساكر في تاريخه وابن الجوزي في مثير الغرام الساكن بأسانيدهم إلى محمد بن حرب الهلالي قال: دخلتُ المدينة، فأتيت قبر النبيّ ﷺ وزرته وسلَّمتُ بحذائه، فجاءه إعرابيٌّ فزاره، ثمّ قال: يا خير الرسل إنّ الله أنزل عليك كتاباً صادقاً قال فيه: ﴿**وَلَو أَنَّهُمْ إذ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللهَ تَوَّاباً رَحِيماً**﴾.

وإنّي جئتك مُستغفراً ربّك ذُنوبي، مُستشفعاً بك إلى الله ثمّ بكى وأنشأ يقول:

يا خيرَ من دُفنت بالقاع أعظمُه — فطاب من طيبهنّ القاعُ والأكُمُ
نفسي الفداءُ لقبرٍ أنتَ ساكنُه — فيه العفافُ وفيه الجودُ والكرمُ

وقد ذيَّله أبو الطيب أحمد بن عبد العزيز بأبيات وقال:

وفيه شمسُ التُّقى والدينِ قد غَرُبَت
من بَعدِما أشرَقَتْ من نورِها الظُّلَمُ

حاشا لوجهِكَ أن يَبلَىٰ وَقد هُدِيَت
في الشَّرق والغَرب من أنواره الأُمَم[1]

١ـ شفاء السقام: ٥٢.

وبذلك تعرف قيمة ما ذكره ابن تيميـة حول السفر إلى المشاهد المشرفة التي فيهـا مـراقـد أئمّة أهـل البيت ـعليهم السلام ـ وقـال: وقــد رخَّص بعـضُ المتأخّـرين في السفـر إلى المشـاهد ولم ينقلـوا ذلك عن أحـد من الأئمّـة ولا احتجوا بحجّة شرعية [١].

تحليل دليل المخالف:

إنّ ابن تيميـة أوّل من أفتى بحرمـة السفر إلى زيـارة الرسـول واستدلَّ بحديث روي بصور ثلاث:

١ـ لا تُشَـدُّ الرحـال إلاّ إلى ثلاثـة مساجـد: مسجدي هـذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصى.

٢ـ إنّما يُسافَـر إلى ثلاثة مساجد: مسجد الكعبـة ومسجدي ومسجد إيلياء.

٣ـ تُشدُّ الرحّال إلى ثلاثة مساجد [٢].

فلـو قلنا بـأنَّ لفظة (إنّما) تفيـد الحصر، تكـون الصورة الثـانيـة مثل الصـورة الأُولى في إفادة الحصر وإلاّ فينحصر الاستـدلال بالصـورة الأُولى.

١ـ مجموعة الرسائل الكبرى ٢: ٦٠.

٢ـ أورد مسلم هذه الأحـاديث في صحيحه ج٤ كتاب الحج باب (لا تشدّ الرحـال) : ٢٦ وذكره أبو داود في سننه ج١ كتـاب الحج : ٤٦٩ وكذلـك النسائي في سننـه المطبوع مع شرح السيـوطي ٢ : ٣٧ـ ٣٨ وقـد ذكر السبكي صور أُخـر للحديث هـي أضعف دلالة على متصور المستـدل، لاحظ شفاء السقام : ٩٨.

فلنفترض أنّ الحديث ورد على نمط الصورتين الأُوليين، فنقول: إنّ الاستثناء لا يستغني عن وجود «المستثنى منه» وحيث لم يذكر في كلامه، فيلزم تقديره وهو أحد الأمرين:

أ: لا تُشدُّ الرحال إلى مسجدٍ من المساجد إلاّ إلى ثلاثة. (فيكون المستثنى منه على هذا التقدير هو لفظ: مسجد).

ب: لا تشدّ الرحال إلى مكان من الأمكنة إلاّ إلى ثلاثة مساجد (فيكون المستثنى منه على هذا التقدير هو لفظ: مكان).

أمّا على التقدير الأوّل: فيجب علينا ملاحظة الأُمور التالية:

أوّلاً: أنّ الحديث لو دلّ على شيء فإنّما يدلّ على النهي عن شدّ الرحال إلى مسجدٍ سوى المساجد الثلاثة، وأمّا شدّ الرحال إلى الأماكن الأُخرى فالحديث ساكت عنه، غير متعرض لشيء من أحكامه، بل النفي والإثبات يتوجهان إلى المسجد، فالحديث ينهى عن شدّ الرحال إليها عدا المساجد الثلاثة.

وأمّا حكم شدّ الرحال إلى المنتزهات والمراكز العلمية أو الصناعية أو مقابر الأولياء و الشهداء والصديقين والصلحاء فهو ساكت عنه ومن العجيب أن نستدل به على تحريم شدّ الرحال إليها.

ثانياً: إنّ النهي عن شدّ الرحال إلى غير هذه المساجد لا يعني تحريمه، بل يعني نفي الفضيلة فيه، وتلك المساجد سوى الثلاثة لما كانت متساوية في الفضيلة والثواب، فلا ملزم لتحمّل العبء بشدّ الرحال إليها.

فالمساجد الجامعة متساوية في الفضيلة في عامّة البلاد فلا وجه لشدّ الرحال إلى مسجد لإقامة الصلاة فيه ، ولكنه إذا شدّ الرحال بقصد الصلاة والعبادة لربّه لا يُعدّ عمله مُحرّماً بل غاية الأمر أنّه لا يترتب عليه ثواب.

ثالثاً: إنّ الحديث نصٌّ أو ظاهرٌ في الحصر، مع أنّه ورد في الصحيح أنّ النبي كان يأتي مسجد «قُبا» راكباً وماشياً فيصلي فيه [1] فكيف يجتمع هذا الأصل مع لسان هذا الحديث الذي هو لسان الإباء عن التخصيص؟

إنّه لا يصحّ لنا أن نقول: إنّ النهي خُصّص بعمل النبي.

وهذا ربّما يكشف عن كون حديث النهي عن شد الرحال غير صحيح من رأس، أو أنّه نُقل محرَّفاً، خصوصاً أنّه نُقِل عن طريق أبي هريرة فقط، والاستدلال بمتفرداته أمرٌ مُشكل.

وقد تنبّه ابن تيميّة لهذا الإشكال فحاول أن يرفع التناقض، بين الحصر، وناقضه فقال: (انّه يُستحب لمن كان بالمدينة أن يذهب إلى مسجد قُبا).

وهذا الجمع لا يرفع الإشكال فإنّ الكلام في تخصيص النصّ الدالّ على الحصر وأنَّه لا يشدّ إلى غيره أبداً، سواء كان مستحباً للمقيم أو للأعم منه ومن المسافر.

وبعبارة أوضح: انّ حديث النهي عن شدّ الرحال دالّ على النفي الشامل للمقيم والمسافر فكيف يجمع مع الحديث المخصص.

١ـ صحيح مسلم ٤: ١٢٧ وصحيح البخاري ٢: ١٧٦ السنن للنسائي المطبوع مع شرح السيوطي ٢: ١٢٧.

هـذا كلّه على فـرض كون المستثنى منه هو (المسجـد) وقد عـرفت كـون الحديث أجنبياً عـن السَّفَر إلى غير المساجد إذ بما أنّ المستثنى هـو (المسجد) فالمناسب هو كون المستثنى منه من هذا القبيل.

وأمّا على التقدير الثاني وهو تقدير الأمـاكن وما يقاربه ويعادله، فلازم ذلك أن تكون كافّة الأسفار محرَّمة غير السفر إلى المساجد الثلاثة، وهل يلتزم بذلك مسلمٌ، وهل يفتي به أحدٌ؟

ولو كان الحديث بصـدد منع كافة الأسفار المعنويـة فكيف كان النبيّ والمسلمون يشدّون الرحال في موسم الحج إلى عرفات والمشعر ومنى؟

وهذا دليل على أنّ «المستثنى منه» هو المساجد لا الأماكن.

أضِف إلى ذلك أنَّ الذكر الحكيم والأحـاديث الصحيحة قد حثّا على السَّفَر لطلـب العلم والجهاد في سبيل الله وصلـة الرحـم وزيارة الوالـدين قال سبحـانه: ﴿فَلَـوْلاَ نَفَرَ مِنْ كُـلِّ فِرْقَـةٍ مِنْهُمْ طـائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُـوا في الـدِّينِ ولِيُنْذِرُوا قَومَهُمْ إِذا رَجِعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُون﴾ [1].

مُضافاً إلى مـا ورد في السفر للرزقِ، فلو كان الحكـم في حديث النهي عن شدّ الرحال عامّاً، فما معنى هذه التخصيصات الكثيرة الوافرة التي تُنافي البلاغة، وتُزيل الحصر؟

وهناك كلمة قيّمة للغزالي في «إحياء العلوم» يقول:

القسم الثـاني هـو: أن يسـافـر لأجل العبـادة إمّـا لحجٍّ أو جهـاد ...

١ـ التوبة: ١٢٢.

ويـدخلُ في جملتـه زيـارة قبُور الأنبيـاء ـعليهم السلام ـ وزيـارة قبور الصحـابـة والتابعين وسائر العلماء والأولياء، وكل من يُتَبَرَّك بمشـاهدته في حياته يتبرّك بزيارتـه بعد وفاتهِ، ويجوز شدُّ الـرحال لهذا الغرض، ولا يمنعُ من هـذا قوله ﷺ : «لا تُشدُّ الرحال إلاّ إلى ثلاثة مساجد: مسجدي هذا والمسجد الحرام والمسجد الأقصـى» لأنّ ذلك في المساجـد، فإنّها متماثلة «في الفضيلـة» بعد هذه المسـاجد، وإلاّ فـلا فرق بين زيـارة قبور الأنبيـاء والأولياء والعلماء في أصل الفضل، وإن كان يتفاوت في الدرجـات تفاوتاً عظيماً بحسب اختلاف درجاتهم عند الله [١].

خلاصة القول:

انّ زيارة القبور جائزة بل مندوبة لأنّها تزهّـد في الدنيا وتذكّر بالآخرة، وقد ندب إليها رسول الله ﷺ وفعلها.

وإنّ زيارة القبور التـي تضم أجساد الشخصيات الإسلاميـة العظيمة تؤدّي إلى آثار نفسية واجتماعية كبرى.

وانّ ما يثار حـول هذه المسألة من شبهات مثـل أنّها عبادة لأصحاب القبور أو تؤدّي إلى ذلك لا قيمـة له، بعد معرفة الناس بمنـزلة النبيّ والأئمّة والصالحين، وأنّهم عباد الله المقربون.

١ـ كتاب إحياء علوم الدين للغزالي ج٢: ٢٤٧ كتاب آداب السفر، طبعة دار المعرفة بيروت، الفتاوى الكبرى ج٢: ٢٤.

خاتمة المطاف

ابن تيمية من منظار التاريخ

قد تعرّفت على مسألة العقائد الموروثة من ابن تيمية، في ظلّ الأُصول المسلّمة الإسلامية، وقد كانت تلك الأفكار والعقائد مدفونةً في طيّات الكُتُب، منسيةً غير معروفةٍ، لولا أنّ محمّد بن عبد الوهاب قام بدعمها وإحيائها من جديد في القرن الثاني عشر فانتشرت تلك البذور في الجزيرة العربية ونمت وتبلورت بالقهر والقوة.

ويجب إكمالاً للبحث التعرّف على حياة المؤسّس والمروّج حتى نستشف كيفية تلقّي العلماء عقائده من لدن ظهوره إلى عصرنا هذا فنقول:

وُلد أحمد بن تيمية عام ٦٦١ وتوفي عام ٧٢٨ ، وقد ترعرع في أحضان عصر كانت القوارع فيه تنصب على رؤوس المسلمين من الشرق والغرب وتهدم الديار ويُقتل الأبرياء وتشق بطون النساء والأطفال ويرفع الرجال على أعواد المشانق وتُخضّب الأراضي بدماء المسلمين وذلك بسبب هجوم التتر

(عبّاد الصنم) على بلاد المسلمين وسقوط الخلافة العباسية في بغداد. وهي ظروف كان من المتوقع أن تساهم في انضاج الشخصية، وتزويدها بالتعقل والذكاء والعاطفة الدينية والحماس وغير ذلك ممّا تحتاج إليه الأُمّة لرفع الظلم عنها، وإعادة الوحدة والقوة إلى كيانها الممزق.

نعم في هذا الوقت الذي كان المسلمون فيه بحاجة إلى أن يقوم علماؤهم بتنشيط العزائم ووعظ الملوك والساسة بالقيام بالوظائف، وفتح معسكرات لإعداد الشباب وتدريبهم وإيجاد روح الكفاح أمام الوثنيين «التتر» والصليبيين المهاجمين ... طرح ابن تيمية مسائل لا تعود على المسلمين في تلك الظروف العصيبة بشيء سوى تعميق الخلاف وتعكير الصفوف وتشديد النزاعات المذهبية والطائفية، وأقل ما يقال عنها إنّها قضايا استهلاكية ومسائل جانبية لا تمتّ إلى انقاذ الأُمّة من المحنة السياسية والعسكرية والغزو الصليبي الوثني الذي كانت تعاني منه.

وأوّل بادرة بدرت من الشيخ هو التقوّل بإثبات الجهة وذلك في عام ٦٩٨ في «الرسالة الحمويّة» [1] حيث ادّعى بصراحة بأنّ الصفات الخبرية كالاستواء واليد والوجه والنزول والصعود يحمل على الله تعالى بنفس معانيها اللغوية من دون تصرّف.

ولما كانت «الرسالة الحمويّة» صريحة في إثبات الجهة والحركة والنقل دُعي الشيخ إلى دار السعادة بدمشق ليجيب على أسئلة القضاة.

---

١ ـ وهذه الرسالة مطبوعة ومنشورة.

يقول تلميذه ابن كثير في حوادث تلك السنة:

« ... قام عليه جماعة من الفقهاء وأرادوا إحضاره إلى مجلس القاضي جلال الدين الحنفي فلم يحضر، فنودي في البلد في العقيدة التي كان سأل عنها أهل حماة المسمى به (الحموية...)» [١].

ثمّ إنّه لم يكتف بهذا الرأي الشاذ وأخذ يحط من شأن الأنبياء ومنازلهم فخرج بهذه الفتاوى:

١ـ يحرم شدّ الرحال إلى زيارة النبي وتعظيمه بحجّة أنّه يؤدي إلى الشرك.

٢ـ يحرم التوسّل بالأولياء والصالحين.

٣ـ تحرم الاستغاثة بالأولياء ودعوتهم.

٤ـ يحرم البناء على القبور وتعميرها.

٥ـ لا تصح أكثر الفضائل المنقولة في الصحاح والسنن في حقّ العترة الطاهرة.

إلى غير ذلك من الآراء الشاذة.

وهكذا نجده في الظروف التي كانت المحن الباهضة تحيط بالمسلمين من جانب الشرق (التتر) والغرب (الصليبيون)، أتى بهذه الأفكار الهدّامة وشغل بال القضاة والحكام طيلة حياته.

١ـ ابن كثير: البداية والنهاية، ج١٤: ٤.

ولأجل ذلك كان يُعتقـل سنة ويفرَّج عنه سنة أُخـرى إلى أن لفظ آخر أنفاسه في سجن دمشق عام ٧٢٨ هـ.

ومن أراد أن يقف على موقف العلماء من آرائه وأفكاره فعليه الرجوع إلى كتب المعاجم والتراجم، فهو يرى أنَّهم يترجمونـه (مع الإشادة بفضله وعلمه و إحاطته بالقرآن والسنّة) مشيرين إلى لجاجه وشذوذه واعوجاجه.

ولأجل أن يكون ذلك الادعاء مشفوعاً بالبرهان نأتي بنصوصهم في هذا المجال حتـى تقف على أنَّ آراء الرجـل كانت تخالـف الرأي العـام بين أهل السنَّة إلى حـدٍّ قد مُنِعَ من الكتـابة حتى في السجن، فما حـال من كان على خـلافٍ مـع قضـاة المذاهـب وعلمائهـم وحكـامهـم، وبـذلـك تعـرف أنَّ الدعايات الأخيرة التي تريـد أن تصوّره كشيخ الإسلام ومحيي السنَّة و ... لا تقوم على واقع صحيـح فإنّ علماء وقضاة عصره ومن تأخـر عنهم أجمعوا على ضلاله وفساد عقيدته فكيف يكون شيخ المسلمين؟

وها نحن نذكر كلمات العلماء في حقّه سـواء كان من معاصريه أو ممّن أتى من بعده حسب ترتيب التواريخ.

١ـ صفي الدين الهندي (ت ٦٤٤/ م ٧١٥)

كان صفي الدين الهندي من أعلـم الناس بالأصلين، ومن تصانيفه في علم الكـلام «الزبـدة» وفي أُصول الفقه «النهـاية» وكـل مصنفاتـه حسنةٌ جـامعةٌ لا سيَّما النهـاية، وقـد عُقد لـه مجلس بدار السعـادة عام ٧١٥ هــ ليناظـر ابن تيميـة، وكان طويـل النفس في التقريـر، فلمّـا شرعَ يقـرّر، أخذ

ابن تيمية يعجِّلُ عليه على عادته، ويخرج من شيء إلى شيء.

فقال له الهندي: ما أراكَ يا ابن تيمية إلاّ كالعُصفور حيث أردتُ أن أقبضه من مكان فرَّ إلى مكانٍ آخر.

وكان الهنديُّ شيخ الحاضرين كلِّهم، فالكلّ صَدَر عن رأيه.

وحبس ابن تيمية بسبب تلك المسألة وهي التي تضمّنت قوله بالجهة ونُودي عليه في البلاد وعلى أصحابه وعزِلوا من وظائفهم [١].

٢ـ كمال الدين الزملكاني (ت ٦٦٧ / م ٧٢٧)

الإمام العلاّمة المناظر وُلِدَ في شوال سنة ٦٦٧ هـ ودرس بالشامية، البرانية وولّي قضاء حلب وألّف رسالة مستقلة في الردّ على ابن تيمية في مسألتي الطلاق والزيارة [٢].

٣ـ شهاب الدين الحلبي (م ٧٣٣)

عرّفه السبكي بأنّه درس وأفتى وشغَلَ بالعلم مدةً بالقدس ودمشق، وله تصنيفٌ في نفي الجهة رداً على ابن تيمية، وقد جاء السبكي بنفس الرسالة في ترجمته وهي رسالة مفصَّلة، في تنزيهه سبحانه عن الجسم والجسمانيات، قال في مقدمته: «أمّا بعد الذي دعا إلى تصدير هذه النبذة ما وقع في هذه

١ـ السبكي: طبقات الشافعية، ج٩: ١٦٤ـ ١٦٩، والبداية والنهاية ج١٤: ٣٦ـ٣٨.

٢ـ المصدر نفسه ج٩: ١٩٠ـ ١٩١.

المدّة ممّا علقه بعضهم في إثبات الجهـة، واغترّ بها من لم يرسخ له في التعليم، قدم ولم يتعلّق بأذيـال المعرفـة، فعجبت أن أذكـر عقيدة أهل السنّـة ثم أُبين فساد ما ذكره، مع أنَّه لم يدّع دعوى إلاّ نقضها أو أوطد قاعدةً إلاّ هدمها (١).

٤ـ شمس الدين الذهبي (م ٧٤٨)

كان الشيخ الـذهبي من الحنابلة المتعصّبين، فهو وإن لم يـذكر في حق ابن تيمية شيئـاً في كتاب «تذكرة الحفّـاظ» لكنّه نصحه في رسالـة بعثها إليه، وهذه الرسالة مطبوعـة في تكملة السيف الصقيل للكوثري ص ١٩٠. كتبه من خط قـاضي القضاة برهان الـدين ابن جماعة، وكتبه هـو من خطّ الشيخ الحافظ أبي سعيد ابـن العلائي وكتبه هو من خـطّ الذهبي وفي آخر الرسـالة جاء:

«أما آن لـك أن تَرعَـوي؟ أما حانَ لـك أن تتوب وتُنيب، أمّـا أنت في عمر سبعين وقـد قرب الـرحيل، والله ما أدَّكِر أنّـك تذكر الموت، بـل تزدري بمن يـذكر الموتَ، فما أظنكَ تُقبـل على قولي ولا تُصغي إلى وعظـي، بل لك همَّة كبيرة في نقـض هـذه الـورقـة بمجلـدات!... فـإذا كـان هـذا حـالُكَ عنـدي وأنـا الشفـوق المحبُّ الـوادُّ فكيفَ حـالُكَ عنـد أعـدائك، وأعداؤك والله فيهم صلحاء وعقلاء وفضلاء كما أنَّ أوليـاءَك **فيهم** فَجَرَةٌ كَذَبَةٌ جَهَلَةٌ...» (٢).

١ـ السبكي: طبقات الشافعية ج ٩: ٣٤ـ٣٥.

٢ـ تكملة السيف الصقيل: ١٩٠.

٥ـ صدر الدين المرحل (م حوالي ٧٥٠)

كان إماماً كبيراً بارعاً في المذهب والأصلين، يُضرب المثل باسمه فارساً في البحث نظّاراً مُفرط الذكاء عجيب الحافظة وله مع ابن تيمية المناظرات الحسنة وبها حصل عليه التعصب من أتباع ابن تيمية [١].

٦ـ الحافظ علي بن عبد الكافي السبكي (م ٧٥٦)

كان الشيخ الفقيه السبكي أحد المناضلين ضدَّ آراء ابن تيمية، خصوصاً في مسألة تحريم الزيارة والسفر إلى قبر الرسول. يقول وَلدُه: إمام ناضَح عن رسول الله بنضاله، وجاهَدَ بجداله، حمى جناب النبوة الشريف بقيامه في نصره ... قامَ حين خلط على ابن تيمية الأمر وسوّلَ له الخوضَ في ضحضاح ذلك الجمر، حين سدّ باب الوسيلة، وأنكر شدّ الرحال لمجرَّد الزيارة [٢].

ويقول السبكي أيضاً في ديباجة كتابه «الدرَّة المضيئة في الردّ على ابن تيمية» ما هذا نصّه:

«لمّا أحدث ابن تيمية ما أحدث في أُصول العقائد ونقَضَ من دعائم الإسلام الأركان والمعاقد، بعد أن كان مستتراً بتبعية الكتاب والسنّة مُظهراً أنّه داع إلى الحق، هادٍ إلى الجنَّة، فخرج عن الاتباع إلى الابتداع، وشذَّ عن

١ـ السبكي: طبقات الشافعية ج ٩: ٢٥٣.

٢ـ المصدر نفسه ج١٠: ١٤٩ـ ١٥٠.

جماعة المسلمين بمخالفة الإجماع، وقال بما يقتضي الجسمية والتركيب في الذات المقدّسة وأنّ الافتقار إلى الجزء ليس بمحال وقال بحلول الحوادث بذات الله تعالى ... »[١].

له كتاب آخر أيضاً أسماه «شفاءُ السقام في زيارة خير الأنام عليه أفضل الصلاة والسلام» أثبت فيه استحباب الزيارة بروايات كثيرة كما أثبت جواز السفر للزيارة وطبع بمصر عام ١٣١٨، وقدَّم له مقدَّمة العلاّمة الشيخ محمّد بخيت أسماها بـ : «تطهير الفؤاد من دنس الاعتقاد».

٧ـ محمد بن شاكر الكتبي (م ٧٦٤)

إنّ الكتبي هو الذي ألّف كتاب «فوات الوفيات» تذييلاً لكتاب «وفيات الأعيان» لابن خلكان، فقال في ترجمة ابن تيمية أنَّه ألّف رسالة في فضل معاوية وفي أنّ ابنه يزيد لا يُسَب[٢].

وهذه الرسالة تُعرب عن نزعاته الأموية ويكفي القول في «الوالد وما ولد» أنّ الأوّل بدل الحكومة الإسلامية إلى الملوكية الموروثة ودعى عباد الله إلى ابنه يزيد، المتكبر، الخمّير، صاحب الديوك، والفهودِ، والقرودِ، وأخذَ البيعةَ له على خيار المسلمين بالقهرِ والسطوةِ والتوعيدِ، وهو المجاهرُ بكفره بقوله:

لَعِبَتْ هاشمُ بالمُلكِ ... فلا خبر جاءَ ولا وَحيٌ نَزَل

١ـ السبكي: الدرَّة المضيئة ص ٥.

٢ـ الكتبي: فوات الوفيات ج١: ٧٧.

والثـاني قتـل الإمـام السبط الحسين أوّلاً، وارتكـب مجزرة الحرّة ثـانيـاً، وأحرق الكعبة ثالثاً.

٨ ـ أبو محمد اليافعي (م ٧٦٨)

قال في ترجمة ابـن تيمية: ماتَ بِقَلعة دمشق تقي الـدين أحمد بن تيمية مُعتقلاً ومُنِعَ قبل وفاته بخمسة أشهر عن الدواة والورقة، وسمع من جماعة، وله مسائل غريبـة أُنكر عليه وحُبس بسببها مباينـةٌ لمذهب أهل السنّة، ومن أقبحها نهيه عن زيارة النبي، وكذلك عقيدته في الجهة [١].

٩ـ أبو بكر الحصني الدمشقي (م ٨٢٩)

يقـول: فاعلم إنّي نظـرتُ في كلام هـذا الخبيث الـذي في قلبه مـرض الزيغ، المتتبـع ما تشابه من الكتـاب والسنَّة، ابتغاء الفتنـة وتَبِعه على ذلك خلقٌ من العـوام وغيرهم ممّن أراد الله عزّ وجلّ إهـلاكه، فوجدت فيـه ما لا أقدر على النُّطـق به، ولا لي أنامل تطـاوعني على رسمه وتسطيره، لما فيـه من تكـذيـب ربّ العـالمين، في تنـزيهه لنفسـه في كتـابـه المبين، وكـذا الازدراءُ بأصفيائه المنتخبين، وخلفائهم الراشـدين، وأتباعهم الموفّقين، فعدلت عن ذلك إلى ذكر مـا ذكره الأئمّة المتّقون وما اتفقـوا عليه من تبديعـه وإخراجِهِ ببغضه من الدين [٢].

١ـ اليافعي: مرآة الجنان ج٤: ٢٤٠ و ٢٧٧ في حوادث سنة ٧٢٨.

٢ـ الدمشقي: دفع شبه من شبه وتمرد: ٢١٦.

١٠ـ شيخ الإسلام شهاب الدين، أحمد بن حجر العسقلاني (م٨٥٢)

إنّ ابن حجر العسقلاني أعرف وأشهر من أن يُعرف قال في كتابه: «الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» : أول ما أنكروا على ابن تيمية من مقالاته في شهر ربيع الأوّل سنة ٦٩٨، قام عليه جماعة من الفقهاء بسبب الفتوى الحموية وبحثوا معه ومُنع من الكلام.

ثمّ ذكر معتقلاته وسجونه إلى أن أدركته المنية ...

١١ـ جمال الدين يوسف بن تغري الأتابكي (ت ٨١٢ ـ م ٨٧٤)

هو مؤلف «المنهل الصافي والمستوفى بعد الوافي» نقل فيه عن القاضي كمال الدين الزملكاني الجملة التالية: ثمّ جرت له محن في مسألة الطلاق الثلاث وشدّ الرحال إلى قبور الأنبياء والصالحين، وحبب للناس القيام عليه، وحُبس مرات في القاهرة والإسكندرية ودمشق، وعُقِدَ له مجالس بالقاهرة ودمشق إلى أن ورد مرسومٌ شريف من السلطان في شعبان سنة ٧٢٦ بأن يُجعل في قلعة دمشق، فأقام فيها مدَّة مشغولاً بالتصنيف، ثمّ بعد مدَّة مُنِعَ من الكتابة والمطالعة وأخرجوا ما كان عنده من الكتب ولم يتركوا عنده دواةً ولا قلماً ولا ورقة.

ثمّ إنَّه نقل أنّه كُتِبَ عليه محضرٌ وقد أُمر فيه أنّه أشعري وإليك ما كتبه بخطه: «أنا أعتقد أنّ القرآن معنىً قائم بذات الله وهو صفة من صفات ذاته القديمة وهو غير مخلوق وليس بحرف ولا صوت وأنَّ قوله: ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ ليس على ظاهره، ولا أعلم كُنْه المراد به، بل لا يعلمه إلاّ الله، والقول في النزول كالقول في الاستواء، وكتبه أحمد ابن تيمية ثمّ أشهَدوا عليه جماعة أنّه تاب ممّا ينافي ذلك مختاراً وشهد عليه بذلك جمع من العلماء وغيرهم [1].

١٢ـ شهاب الدين ابن حجر الهيثمي (م ٩٧٣)

إنَّ ابن حجر الهيثمي أشهر من أن يعرَّف. قال في ترجمة ابن تيمية:

«ابن تيمية عبدٌ خَذَلَه الله وأضلَّه وأعماه وأصمَّه وأذلَّه، وبذلك صرَّح الأئمة الذين بيَّنوا فساد أحواله وكذِبَ أقواله ومن أراد ذلك فعليه بمطالعة كلام الإمام المجتهد، المتفق على إمامته وجلالته وبلوغه مرتبة الاجتهاد، أبي الحسن السبكي وولده التاج والشيخ الإمام العز بن جماعة وأهل عصرهم وغيرهم من الشافعية والمالكية والحنفية ولم يقصر اعتراضه على متأخري الصوفية، بل اعترض على مثل عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب ـ رضي

١ـ ابن حجر : الفتاوى الحديثة : ٨٦، نقله العلاّمة الشيخ محمد بخيت في كتاب «تطهير الفؤاد» ص ٩، طبع مصر، ولابن حجر كلمة أُخرى في كتابه «الجوهر المنتظم في زيارة القبر الشريف النبوي المكرم» نقلها القضاعي العزامي في كتابه «فرقان القرآن» : ١٣٢ ـ وهو مقدمة لكتاب «الأسماء والصفات» للبيهقي.

الله عنهما ـ[١].

١٣ـ ملا علي القاري (م ١٠١٦)

إنّ كتاب «الشفاء في تعريف حقوق المصطفى» تأليف عياض بن موسى المتوفى عام ٥٤٤، من أنفس الكتب وقد شرحه عدّة من الأعلام منهم ملا علي القاري، قال في الفصل المخصّص بزيارة النبيّ:

إنَّ ابن تيمية من الحنابلة حَرَّمَ السفر لزيارة النبيّ وهو قد أفرط، كما أفرط غيره حيث قال: إنَّ الزيارة قربةٌ معلوم من الدين بالضرورة وجاحده محكومٌ عليه بالكفر، ولعلّ الثاني أقربُ إلى الصواب، لأنّ تحريم ما أجمع العلماء فيه بالاستحباب يكون كفراً لأنّه فوق تحريم المباح المتّفق في هذا الباب[٢].

١٤ـ أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي، الشهير بابن القاضي (ت ٩٦٠ـ م ١٠٢٥)

لقد ترجم ابن القاضي هذا ابن تيمية في ذيل وفيات الأعيان المسمى بـ: «درّة الحجال في أسماء الرجال» بقوله: «أحمد بن عبد الحليم مُفتي الشام ومحدّثه وحافظه وكان يرتكب شواذّ الفتاوى ويزعم أنّه مجتهد»[٣].

---

١ و ٢ ـ ملاّ علي القاري: شرح الشفاء في هامش نسيم الرياض ج٣: ٥١٤.

٣ـ المكناسي: درّة الحجال ج١: ٣٠.

١٥ـ الشيخ محمّد بخيت المصري (المتوفّى بعد سنة ١٣٣٠)

يقول في كتابه «تطهير الفؤاد من دنس الاعتقاد» الذي طبع مقدمة لكتاب شفاء السقام للسبكي:

«ومن الفريق الثاني الذي طَمَسَ اللهُ على قَلبه وطَبَع عليه أهلُ البدع في العقائد والأعمال الذين خالفوا الكتاب والسنّة والإجماع، فضلّوا وأضلّوا كثيراً قاتلهم الله أنّى يؤفكون، ومأواهم جهنّم وساءَت مصيراً، وقد إبتلي المسلمون بكثير من هذا الفريق سلفاً وخلفاً فكانوا وصمةً وثُلْمة في المسلمين وعُضواً فاسداً يجب قطعه حتى لا يُعدي الباقي فهو المجذوم الذي يجب الفرار منه، ومنهم ابن تيمية الذي ألّف كتابه المسمى بـ: «الواسطية» وغيره، فقد ابتدع ما خَرقَ به إجماع المسلمين، وخالفَ فيه الكتاب والسنَّة الصريحة والسَّلَف الصالح، واسترسل مع عقله الفاسد وأضلَّه اللهُ على علمٍ فكان إلٰههُ هواه ظناً منه بأنّ ما قاله حقٌّ وما هو بالحق وإنّما هو منكر من القول وزور [١]».

وقال:

ولما أن تظاهر قوم في هذا العصر بتقليد ابن تيمية في عقائده الكاسدة وتعضيد أقواله الفاسدة وبثّها بين العامّة والخاصّة واستعانوا على ذلك بطبع كتابه المسمّى بـ «الواسطية» ونشره، وقد اشتمل هذا الكتاب على كثيرٍ ممّا ابتدعه ابن تيمية مُخالفاً في ذلك الكتاب والسنَّة وجماعة المسلمين، فأيقظوا

١ـ السبكي: تطهير الفؤاد: ٩، ولاحظ بعده إلى ص ١٢.

فتنةً كانت نائمةً، فقياماً بما يجب علينا كنّا عزمنا على جمع مؤلَّف في الردّ على ذلك الكتاب حتّى لا يقع المسلمون بواسطة ابن تيمية ومن هُم على شاكلته في مُهُود الضلال والهلاك الأبدية، غير أنّا وجدنا كتاب الإمام الجليل والمجتهد الكبير تقي الدين أبي الحسن السبكي بـ«شفاء السقام في زيارة خير الأنام» وافياً بالغرض المقصود ... فاكتفينا بطبعه ونشره»[1].

١٦ـ الشيخ يوسف النبهاني (ت ١٢٦٥ـ م١٣٥٠)

قال النبهاني في تأليفه «شواهد الحق» بعد ما نقل أسماء عدَّة من الطاعنين فيه:

«فقد ثَبَتَ وتحقّق أنَّ علماء المذاهب الأربعة قد اتفقوا على ردّ بدع ابن تيمية، ومنهم من طَعَنُوا بصحةِ نقله، كما طَعَنوا بكمالِ عَقله، فضلاً عن شدَّة تشنيعهم عليه في خطئه الفاحِشِ في تلك المسائلِ التي شَذَّ بها في الدين، وخالف بها إجماع المسلمين، ولا سيَّما فيما يتعلّق بسيّد المرسلين ﷺ»[2].

١٧ـ الشيخ سلامة القضاعي العزامي (م ١٣٧٩)

إنّ الشيخ العزامي من كبار علماء مصر الأزهريين وكتابه «فرقان

١ـ المصدر السابق.

٢ـ النبهاني: شواهد الحق المطبوع ضمن مجموعة تحتوي رسائل أربع جمعهاحسين حلمي وطبعها باسلامبول.

القرآن»، كتابٌ بديعٌ كتبه ردّاً على هفوات ابن تيمية يقول في حقّه:

«ومن عجيب أمر هذا الرجل أنَّه إذا ابتدع شيئاً حكى عليه إجماع الأوّلين والآخرين كذباً وزوراً وربّما تجد تناقضه في الصفحة الواحدة فتجده في «منهاج السنّة» مثلاً يدَّعي أنَّه ما من حادثٍ إلاّ وقبلهُ حادث إلى ما لا نهاية له في جانب الماضي، ثمّ يقول:

«وعلى ذلك أجمع الصحابة والتابعون» ، وبعد قليل يحكي إختلافاً للصحابة في أوّل مخلوقٍ ما هو؟ أهو القلمُ أم الماء؟ وقد جمعَ تلميذُه «ابن زفيل» (يريد: ابن القيم) سفاهاته ووساوسه في علم أُصول الدين في قصيدته النونية»[1].

١٨ـ الشيخ محمّد الكوثري المصري (المعاصر)

إنَّ الشيخ الكوثري هو أكثر الناس تتبُّعاً لمكامن حياة ابن تيمية وقد خدم خدمةً جليلة بنشر كتاب «السيف الصقيل» للسبكي وجعل له تكملة نُشرا معاً، فمن وقف على هذا الكتاب وما ذيِّل به، يعرف مواقف هذا الرجل، وقيمته في ميزان العلماء المعاصرين له والمتأخّرين عنه.

وإليك كلمة منه في حقّ الحشوية يقول في تقديمه لكتاب «الأسماء والصفات» للحافظ البيهقي ــ بعد سرد أسماء عدَّة من كُتُب الحشوية

١ـ لاحظ فرقان القرآن: ١٣٢ و ١٣٧ ألّفه عام ١٣٥٨ والقصيدة النونية تتجاوز عن خمسة آلاف بيت أكثرها يهدف إلى إثبات الجهة والجسمية وغير ذلك وقد كتب السبكي عليه ردّاً سماه «السيف الصقيل».

كالاستقامة لخشيش بن أصرم، والسنَّة لعبد الله بن أحمد «والنقض» لعثمان بن سعيد الدارمي السنجري المجسّم ـ:

إنّ السنجري أوّل من اجترأ بـالقول: (انّ الله لو شاء لاستقـرّ على ظهر بعوضـةٍ لاستقلَّت بهِ بقـدرتهِ فكيف على عـرشٍ عظيم) وتابعَـهُ الشيخ ابن تيمية الحراني في ذلـك كما تجد نصّ كلامـه في «غوث العبـاد» المطبوع سنـة ١٣٥١ بمطبعة الحلبي [١].

وقال في حق ابن تيمية: كلُّ ما في الرجـل أنّه كان له لسانٌ طلق، وقلمٌ سيّال، وحافظـةٌ جيّدةٌ، قلَّب ـ بنفسـه، بدون أُستاذٍ رشيدٍ ـ صفحاتِ كُتُبٍ كثيرةٍ جداً من كُتُبِ النِّحَلِ التي كانـت دمشق امتلأت بها بواسطة الجوافل من استيـلاء المغـول على بلاد الشرق، فـاغترَّ بما فهمـه من تلك الكتـب من الـوساوسِ والهواجـسِ حتى طمحَت نفسـه إلى أن تكـون قدوةً في المعتقـد والأحكام العملية [٢].

١٩ـ الشيخ محمد أبو زهرة

ألّف الشيـخ محمـد أبـو زهرة كتـابـاً في حيـاة ابن تيميـة وشخصيتـه وأغمض عن كثيرٍ من الجوانب السلبية في شخصيته وحياته ومع ذلك انتقده في موارد منها منعه التبرّك بآثار الرسول وقال:

«إنّا نخالف ابن تيميـة مَنْعَهُ التبرّك بزيارة قبر الرسول والمنـاجاة عنده

١ـ مقدمة الأسماء والصفات: للبيهقي: ٨ «ب».

٢ـ تكملة السيف الصقيل: ٥، وله كلام في حق تلميذه ابن زفيل (المعروف بابن القيم).

وعدم الندب إليه، وانَّ التبرّك الذي نريده ليس هو العبادة أو التقرّب إلى الله بالمكان، وإنّما التبرّك هو التذكُّر والاعتبار والاستبصار ...»[١].

٢٠ـ فتوى قضاة المذاهب الأربعة في ابن تيمية

أصدر الشاميّون فتيا في ابن تيمية وكتب عليها البرهان ابن الفركاح الفزاري نحو أربعين سطراً بأشياء إلى أن قال بتكفيره، ووافقه على ذلك الشهاب جَهْبل وكتب تحت خطه: «كذلك المالكي» ثم عُرضت الفتيا لقاضي قضاة الشافعية بمصر : البدر بن جماعة فكتب على ظاهر الفتوى:

«الحمدُ لله هذا المنقول باطنُها جوابٌ عن السؤال عن قوله أنّ زيارة الأنبياء والصالحين بدعةٌ وما ذكره من نحو ذلك وأنّه لا يرخّص بالسفر لزيارة الأنبياء، باطلٌ مردودٌ عليه وقد نقل جماعة من العلماء أنَّ زيارة النبي فضيلةٌ وسنّةٌ مجمعٌ عليها.

وهذا المفتي المذكور يعني ابن تيمية ينبغي أن يزجر عن مثل هذه الفتاوى الباطلة عند الأئمّة والعلماء ويمنع من الفتاوى الغريبة ويحبس إذا لم يمتنع من ذلك ويُشهَّر أمره ليحتفظ الناس من الاقتداء به.

وكتبه محمد بن إبراهيم بن سعد الله بن جماعة الشافعي.

وكذلك يقول محمد بن الحريري الأنصاري الحنفي:

لكن يُحبس الآن جزماً مطلقاً.

١ـ أبو زهرة: ابن تيميّة، حياته وشخصيته: ٢٢٨.

وكذلك يقـول محمد بن أبي بكر المالكي: ويبالغ في زجـره جسماً تندفع تلك المفسدة وغيرها من المفاسد.

وكـذلـك يقـول أحمد بن عمــر المقـدسي الحنبلي (راجع دفـع الشبـه ص ٤٥ ـ٤٧) وهـؤلاء الأربعة هم قضاة المذاهب الأربعـة بمصر أيام تلك الفتنة في سنة ٧٢٦»[1].

وبعـد هذه الفتيـا من قضـاة المذاهب الأربعـة، وبعـد تلك الكلمات الواضحة القوية من العلماء البـارزين المعروفين لا يبقى لمشكك أيّة شبهة في أنَّ الرجـل كان منحـرفاً عن الصراط المستقيـم، سالكـاً غير سبيل المؤمنين. وخارقاً لإجماع العلماء الفاقهين.

قائمة الردود على ابن تيمية:

و إليك قائمة من الردود التـي أُلّفت وكتبت على عقائده وأفكاره وهي بين كتاب ضخـم أو رسالـة أو كتيّب صغير وهذه القـائمة تضمّ بعـض ما كتب في هذا المجال:

١ـ «**شفاء السقام في زيارة خير الأنام**» لتقي الدين السبكي.

٢ـ «**الدرة المضيئة في الردّ على ابن تيمية**» لتقي الدين السبكي.

٣ـ «**المقـالة المرضية في الـرد على ابن تيمية**» لتقي الديـن أبي عبد الله الأفنائي.

٤ـ «**نجم المهتدي ورجم المقتدي**» للفخر ابن المعلم القرشي.

٥ـ «**دفع شبه من شبـه وتمرّد ونسب ذلك إلى الإمام أحمد**» لتقي الدين

١ـ الكوثري: تكملة السيف الصقيل: ١٥٥.

الإمام أبي بكر الحسني الدمشقي (م ٧٢٩).

٦ـ «**التحفة المختارة في الرد على منكري الزيارة**» لتاج الدين عمر المالكي الفاكهاني (م٧٣٤).

٧ـ «**صلح الأخوان في الردّ على كلمة السيد محمود الآلوسي في التوسّل بالنبي**» للخالدي البغدادي.

٨ ـ «**اعتراضات على ابن تيمية**» لأحمد بن إبراهيم السروطي الحنفي.

٩ـ «**البراهين الساطعة**» للشيخ سلامة العزامي (م ١٣٧٩).

١٠ـ «**جلاء العينين في محاكمة الأحمدين**» [١] للشيخ نعمان بن محمّد الآلوسي.

١١ـ «**الدرَّة المضيئة في الردّ على ابن تيمية**» لكمال الدين المعروف بابن الزملكاني.

١٢ـ «**الرد على ابن التيمية في الاعتقاد**» لمحمد بن حميد الدين الحنفي الدمشقي الفرغاني [٢].

﴿إِنَّ فِي ذٰلِكَ لَذِكْرىٰ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيد﴾ [٣].

١ـ المقصود أحمد بن تيمية وأحمد بن حجر.

٢ـ راجع للوقوف على هذه المؤلّفات والمؤلّفين: كشف الظنون ١: ٧٤٤ والفياح المكنون ١: ٦٦٢، ومعجم المؤلّفين ١: ١٤٠ و ١١: ٢٢ و ١٢: ١٠٧ وكتاب التوسّل بالنبي لابن مرزوق: ٢٥٢، إلى غير ذلك ...

٣ـ ق: ٣٧.

حياة محمد بن عبد الوهاب
مروّج عقائد ابن تيمية

إنَّ الأُصول المعـروفة بـالعقائد الـوهابية شيءٌ ابتـدعه أحمد بـن تيمية وكانت أفكاراً منسيّـة كادت أن تذهب أدراج الرياح لـولا أنّ محمّد بن عبد الوهاب عمد إلى إحيائها وأيقظ فتنة كانت نائمةً.

واستكمالاً للبحث يجب علينا دراسة حياته وما فيها من أحداث مؤلمة على وجه الاختصار.

ولِد الشيخ عـام ١١١١، وقيل ١١١٥ وتوفي عام ١٢٠٧ هــ في بلدة «العيينة» من بلاد «نجـد» وتلقّى فيها دروسه على رجال الديـن من الحنابلة، ثمّ غادر موطنه ونزل المدينة المنـوَّرة ليكمل دروسه، ومنها سافر إلى كثير من البلــدان، فأقــام في البصرة أربـع سنين وفي بغـداد خمس سنين، وسنــة في كردستان وسنتين في همدان ثمّ رحل إلى اصفهان وقم، ثم عاد إلى بلده.

كانت بوادر الظلال تُستشَف من كلماته، خصوصاً عندما كان يدرس على الشيخ محمّد بن سليمان الكردي والشيخ محمّد حيـاة السندي، فقد كانا

يتفرّسـان فيه الغـواية والإلحاد، حتى أنّ والـده «عبد الـوهاب» كـان رجلاً صالحاً يتفـرّس فيه الإلحاد ويعظه وينهـاه، وكان مُولعـاً بمطالعة أخبـار من ادّعى النبـوة كـاذباً كمسيلمـة الكـذاب وسجـاح والأسود العنسي وطـريحة الأسدي وأضرابهم (١).

وهذا يُعرب عن أنَّ محمّد بن عبد الـوهاب كان يُضمر في مكامن ذهنه شيئاً يشـاكل فعل هـؤلاء المتنبئين، فصبَّ ما أضمـره في الدعـوة الجديدة إلى التوحيد، وعاد يكفّر رجال الدين عامّة، وهذه سمة المبتدعين عامة.

انتقال والده إلى حريملة

ترك والدُه العيينة ونزل بلدة حريملة وانتقل معه ولده، ولما مات الوالد عام ١١٤٣ أظهر هو أفكاره وآراءه وعندئذ همَّ أهل حريملة بقتله فهرب إلى العيينة مسقط رأسـه ودار نشأته، وتعاهد مع أميرهـا، أعني: عثمان بن معمر على أن يشدّ كلٌّ أزر الآخر فيترك الأمير للشيخ (ابن عبد الوهاب) الحرية في إظهـار الـدعـوة، والعمـل على نشرهـا، عسـى أن يسيطـر الأمير على نجـد بكـاملهـا، ولكي تقـوى الـروابط بين الاثنين زوَّج الأمير أُختـه جـوهـرة من الشيخ، فقال له الشيخ: إني لآمل أن يهبك الله نجداً وعربانها (٢).

ولكن لم يطل التحـالف بين ابن عبـد الوهـاب وأُمراء عيينـة لأنّ أمير

---

١ ـ لاحظ زيني دحـلان : الدرر السنيـة: ٤٢، وأحمد أمين: زعماء الإصلاح: ١٠، صـدقي الزهـاوي: الفجر الصادق: ١٧، وزيني دحلان: فتنة الوهابية: ٦٦.

٢ ـ فيلبي، عبد الله: تاريخ نجد: ٣٦.

الأحساء، أعني: سليمان الحميدي، أمر عثمان بن معمر أن يقتل الشيخ فلم يـر بـدّاً من إخـراج الشيخ مـن عيينـة ولم يجد الشيخ بُـدّاً من مغـادرتها إلى الدرعية عام ١١٦٠ وهي بلاد مسيلمة الكذاب !!!

ولما ورد الـدرعيـة استقبلـه «محمّد بـن سعـود» جـدّ السعـوديين وتمّ الاتفاق بين الأمير والشيخ على غرار ما كان قـد تمّ بينه وبين ابن معمر، فقد وهب الشيخ نجـداً وعربانها لمحمـد بن سعود كما وهبها مـن قبل لعثمان بن معمر ووعده بأن تكثر الغنائم عليه والأسلاب الحربية التي تفوق ما يتقاضاه من الضرائب [١].

بدء الدعوة ونشرها في ظل القوة:

شعر محمّد بن عبد الوهاب بقوته عن طريق هذا التحالف الجديد وأنَّ الإمـارة السعوديـة أصبحت تنـاصره وتـؤازره، ولـذلك جمع الشيخ أنصـاره وأتبـاعه وحثَّهم على الجهـاد وكتب إلى البلـدان المجاورة المسلمـة، أن تقبل دعـوتـه وتدخـل في طاعتـه وكـان يأخـذ ممن يُطيعـه عُشر المواشي والنقـود والعـروب ومن أبى غـزاه بأنصـاره فيقتل الأنفـس وينهب الأمـوال ويسبي الذراري [٢].

١ـ فيلبي، عبد الله: تاريخ نجد: ٣٩.

٢ـ محمد جواد مغنية، هذه هي الوهابية: ١١٤.

صِدام بين محمّد بن عبد الوهاب وأُمراء عيينة :

ولما التحق محمّد بن عبد الوهاب بأمير الدرعية وبزغ نجمه أحس أمير العيينة عثمان بن معمر خطراً من جانب محمّد بن عبد الوهاب الذي تحالف معه ثـمّ نقَضَه، فلم يلبث إلاّ يسيراً، حتى اتَّهم الأمير بـأنَّه أجرى مـراسلات سرِّية مع حكـام الاحساء، فأرسل ابن عبد الـوهاب بعض المرتزقة فـاغتالوا أمير العيينة أثنـاء أدائه صلاة الجمعة وذلـك عام ١١٦٣، ثمّ جاء محمّـد بن عبد الـوهاب إلى العيينة وعيَّـن عليهم حـاكماً باسم بشاري بن معمـر وهو من أتبـاع محمد بن عبـد الوهـاب، ثمّ لم يبرح زمن على سلطـة آل سعود على العيينـة حتّى ثـار أهلهـا على النظـام الـذي فُـرض عليهـم ولكن لم يُكتـب لانتفاضتهم النجاح، فعاد السعوديون إلى العيينـة فدمّروا البلدة عن آخرها، وذلك عـام ١١٦٣ حتى هـدموا الجدران وردمـوا الآبار وأحـرقوا الأشجـار واعتـدوا على أعراضهـم وبقروا بطـون الحوامـل من النسـاء، وقَطَعوا أيـدي الأطفال وأحـرقوهم بالنار وسرقـوا المواشي، وما زالت تلك البلدة خـربة إلى يومنا هذا [١].

وقد كـان للحركة الوهـابية في عصر مؤسسهـا صدىً وجاذبية فكـانوا يخدعون بالدعوة إلى التوحيد بعض البُعداء عن المنطقة ولأجل ذلك لما سمع السيد محمّـد إسماعيل الأمير اليمني تلـك الدعـوة، أنشأ قصيدةً بعثهـا إلى محمّد بن عبد الوهاب، التي مستهلها:

---

١ ـ ناصر السعيد: تاريخ آل سعود: ٢٢ ـ ٢٣.

سَلامٌ على نجدٍ ومن حلّ في نَجْد
وإن كان تَسليمي على البعدِ لا يُجدي

فلمّا وقف على أنّ الدعوة مبنية على القتل والنهب رجع عن عقيدته وقال في قصيدة أُخرى والتي مستهلها:

رجعتُ عن القول الذي قلت في نجدِ
فقد صحَّ لي عنه خلافُ الذي عندي[١]

وفي عام ١١٧٨ اتّفق أهالي نجران وقبيلتا العجمان وبني خالد وتحالفوا على سحق محمّد بن سعود ومحمّد بن عبد الوهاب، ووصل قائد نجران على ضواحي الدرعية قبل وصول حلفائه وتمكنوا من سحق الجند السعودي واختفى محمد بن سعود، وكاد ينتهي أظلم حكم دخيل عرفته شبه الجزيرة العربية على أيدي أهالي نجران الأبطال، لو لم يلجأ محمد بن عبد الوهاب إلى المكر والخداع، فرفع راية الصلح على أن يقف أهالي نجران عند حدّهم، ويمتنعوا عن دخول الدرعية وأن يسلّموا ما تحت أيديهم من الأسرى السعوديين ويتعهّد كلّ من محمّد بن عبد الوهاب ومحمّد بن سعود، بدفع عشرة آلاف جنيه ذهب كتعويض لأهالي نجران عن رحلتهم هذه، وأن لا يتعدّى محمّد بن سعود ومحمّد بن عبد الوهاب حدود الدرعية وبهذا شهد محمّد بن عبد الوهاب ببطلان دعوته أمام أهالي نجران، وقد كان عنف الهجوم شديداً إلى درجة أنّ محمّد بن سعود أُصيب بإسهالٍ ومرض مرضاً

١ـ سيد محسن الأمين: كشف الارتياب: ٨.

شديـداً من جرّاء ما انتابـه من رعب، حينما شاهد أنّ أهـالي نجران يحاصرون الدرعية بعـد سحقهم للجند السعودي وقد تسبّب ذلك في هـلاك محمّد بن سعود من جرّاء المرض الذي أصابه من ذلك الحادث ومات عام ١١٧٩.

إمارة عبد العزيز بن محمّد بن سعود (١١٧٩ ـ ١٢١٨)

وقبل موته اختار محمّد بن سعود ولدَه عبد العزيز ولياً للعهد من بعده باقتراح من محمّـد بن عبد الوهاب فأصبحـت الإمارة تنتقل بالمبايعـة بولاية العهد في تلك العائلة وهذه واحدة من بدع الشيخ محمّد بن عبد الوهاب.

وقد تزوّج عبد العزيز ابنة محمد بن عبد الوهاب وامتزج النسب بعضه ببعض.

ولم تكن سيرة عبـد العزيز خيراً مـن سيرة أبيه، بل كـانت حياتـه كلها حروباً وهجماتٍ حتى أنّ أحمد زيني دحلان قال:

إنّ الشريف غالباً أمير مكة غزا الوهابية ما ينوف عن خمسين غزوة من سنـة ١٢٠٥ إلى سنة ١٢٢٠، وكـانت أكثـر هـذه الحروب أيـام سلطة عبـد العزيز آل سعود.

استيلاؤهم على كربلاء

توفى الشيخ ابن عبـد الوهاب عام ١٢٠٧ وعلى قـول ١٢٠٦، وكان عبد العزيز آخذاً بزمام الحكم بدعم وتأييد من الشيخ.

ومن جرائم عبـد العزيز التـي هزّت العالم كلـه وأساءت إلى المسلمين

عامّة فضلاً عن الشيعة، هو تجهيز عبد العزيز جيشاً جراراً من أعراب نجد بإمارة ابنه سعود عام ١٢١٦ دخل به العراق وحاصر كربلاء وأعمل في أهلها السيف ولم ينجُ منهم إلاّ من فرَّ هارباً أو اختفى في مخبأ من حطب ونحوه، فهدم قبر الحسين ـ عليه السلام ـ واقتلع الشبّاك الموضوع على القبر الشريف ونهب جميع ما في خزانة المشهد ولم يرع لرسول الله ولا لذريته أدنى حرمة ، وجدد بجريمته النكراء مأساة واقعة كربلاء ويوم الحرَّة.

يقول الدكتور منير العجلاني:

دخل اثنا عشر ألف جندي ولم يكن في البلدة، إلاّ عدد قليل من الرجال المستضعفين لأنّ رجال كربلاء كانوا قد خرجوا يوم ذاك إلى النجف الأشرف لزيارة قبر الإمام أمير المؤمنين يوم الغدير، فقتل الوهابيون كل من وجدوهم، فقُدّر عدد الضحايا في يوم واحدٍ بثلاثة آلاف، وأمّا السلب فكان فوق الوصف ويقال أنّ مائتي بعير حُمِّلَت فوق طاقتها با لمنهوبات الثمينة [1].

احتلال الطائف عام ١٢١٧

وقد قام باحتلال الطائف عام ١٢١٧ بعدما هزموا الشريف «غالب» أميرها، فلما دخلوها قَتَلوا الرجال وأسروا النساء والأطفال، وهذا دأبهم في من يحاربهم وهدموا قبّة ابن عباس في الطائف.

يقول زيني دحلان: فدخلوا البلد عنوةً في ذي القعدة سنة ١٢١٧

١ـ الدكتور منير العجلاني: تاريخ العربية السعودية : ١٢٦ـ١٢٧.

فَقَتَلوا النـاس قَتلاً عامـاً حتى الأطفال وكانـوا يذبحون الطفـل الرضيع على صدر أُمه، وكان جماعة من أهل الطائف خرجوا قبل ذلك هاربين، فأدركتهم الخيل وقطَّعت أكثرهم، وفتشوا عن من توارى في البيوت وقَتَلُوه وقَتلوا من في المساجد ... وصارت الأعراب تدخـل كل يومٍ إلى الطائف وتنقل المنهوبات إلى الخارج حتى صـارت كأمثـال الجبال، فـأعطوا خمَسَهـا للأمير واقتسمـوا الباقي ونشروا المصاحف وكتب الحديث والفقه والنحو في الأزقة، وأُخبروا أنّ الأموال مدفونة في المخابئ فَحَفَروا في موضع فوجدوا فيه مالاً فلأجلها حَفَروا جميع بيوت الخلاء والبالوعات.

استيلاؤهم على مكة (عام ١٢١٨)

فقد استولوا على مكّة المكرمـة يوم العاشر من محرم، ففعلوا بها وبأهلها ما فعله جندهم بأهل الطائف، وفـرَض عبد العزيز على علمائها تلقّي أفكار ابن عبـد الـوهـاب ومـدارسـة كتبـه كما منَعَ مسلمـي الآفـاق من أداء الحج والعمرة، فانقطع عـن أهل مكة والمدينة ما كان يصل إليهـم من الصدقات وأسباب التجـارة التي كانـوا يعيشون بها، وبعـد استيلائهم على مكّـة دمّروا القباب التي شُيّدت لتكريم شخصيات صدر الإسلام فَهَدمُوها وهَدَمُوا دارَ مولـد النبيّ وقُبّة السيـدة خديجة وقُبّة زمـزم، فما مضت عليهم إلاّ ثلاثـة أيّام حتى محوا جميع آثار صدر الإسلام ومعالمه وآثار الصالحين فأزالواها عن بكرة أبيها [١].

---

١ ـ جبران شامية : آل سعود ماضيهم ومستقبلهم: ٦٤ ، تاريخ الجبرتي: ٩٣، ١١٨.

هلاك عبد العزيز عام ١٢١٨

كان عبد العزيز يثير الحروب ويشتغل بالسلب والنهب بقيادة ولده سعود حتى اغتاله رجل وهو يصلي في المسجد عام ١٢١٨. قال فيلبي:

«لقد تنكَّر القاتل بزي درويش وذهب إلى الدرعية وبقي فيها أياماً يصلّي خلف عبد العزيز، وفي ذات يوم ألقى بنفسه على عبد العزيز وهو يصلّي وطعنه بمدية في ظهره اخترقت به إلى بطنه، وتفيد بعض المعلومات أنَّ القاتل كان شيعيّاً هلك كل أفراد عائلته أثناء غزو كربلاء، وأخذ الحكم بعده ولده سعود بن عبد العزيز من عام ١٢١٨ إلى ١٢٢٩.

وهذه نظرة سريعة إلى حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والأُمراء الذين نصَّبهم للحكم من محمّد بن سعود وعبد العزيز بن محمد، وسعود بن عبد العزيز وقد عرفت أفعالهم وجرائمهم ومن أراد أن يقف على تاريخ الأُمراء السعوديين من عهد سعود بن عبد العزيز إلى يومنا هذا الذي أخذ فيه الحكم فهد بن عبد العزيز فعليه أن يراجع كتاب «بحوث في الملل والنحل» الجزء الرابع.

الردود على عقائد الوهابيين

وفي الختام نلفت نظر القارئ إلى الكتب والرسائل التي ألّفها العلماء الغيارى في مجال الردّ على عقائد الوهابيين:

لقد أدّى العلماء الواعون في الحرمين الشريفين في عصر ابن عبد

الوهاب، وما بعـده وفي سائر الأقطار الإسلامية ما عليهـم من وظائف دينية تجاه هذه الحركـة الهدّامة، فترى كيف أنَّهم قد بذلـوا الجهود المضنية في سبيل ردّ دعوتها و إثبـات بطلانها، و إليك قائمـة من الردود المؤلفـة في إبطالها نأتي على أسمائها وأسماء مؤلّفيها:

١ـ «مقدمـة شيخه محمّد بن سليمان الكردي الشـافعي» التي قرظ بها رسالة أخيه سليمان بن عبد الوهاب وتقع في نحو ثلاث ورقات وقد تضمَّن ما يشير إلى ضلاله ومروقه عن الـدين على نحو ما حكى في ذلك عن شيخه الآخر محمّد حياة السندي ووالده عبد الوهاب.

٢ـ «تجريد سيـف الجهاد لمدعي الاجتهاد» لشيخه العلاّمـة عبد الله بن عبد اللطيف الشافعي.

٣ـ «الصواعـق والرعـود» للعـلاّمـة عفيف الـدين عبـد الله بن داود الحنبلي.

قال العلاّمة علوي بن أحمد الحدّاد: كتب عليه تقاريظ أئمّة من علماء البصرة وبغداد وحلب والاحساء وغيرهم تأييداً له وثناءً عليه.

ثمّ قال: ولو وقفت عليه قبل هذا ما ألّفت كتابي هذا.

ولخَّصه محمد بن بشير قاضي رأس الخيمة بعمان.

٤ـ «تهكّمُ المقلّديـن بمن ادَّعى تجديد الدين» للعلاّمـة المحقق محمد ابن عبد الـرحمان بن عفالق الحنبلي وقـد ترصَّد فيـه لكل مسألة مـن المسائل التي ابتـدعها وردَّ عليها بـأبلغ رد، وقد تضمَّن كتـابه هـذا ملحقاً يتنـاول ما

يتعلَّق بالعلـوم الشرعية والأدبية كما أرفقه بـأسئلة كان قد بعثهـا إلى محمّد بن عبد الوهاب، منهـا شطرٌ وافر حول علم البيان تتعلَّق بسـورة «والعاديات» وألمح في ذيلها إلى عجزه عن الجواب عن أدناها فضلاً عن أجلّها.

٥ـ رسالة للعلاّمة أحمد بن علي القبّاني البصري الشافعي وتقع في نحو عشر كراريس عقد فصولها كافة للردّ على معتقداته وتزييف أباطيله.

٦ـ رسـالة للعلاّمـة عبد الوهـاب بن أحمد بركات الشـافعي الأحمدي المكي.

٧ـ «الصارم الهندي في عنق النجدي» للشيخ عطاء المكي.

٨ـ رسالة للشيخ عبد الله بن عيسى المويسي.

٩ـ رسالة للشيخ أحمد المصري الاحسائي.

١٠ـ «السيوف الصِقال في أعناق من أنكر على الأولياء بعد الانتقال» لأحد علماء بيت المقدس.

١١ـ «السيف البـاتر لعنُقِ المنكر على الأكابر» للسيـد علوي بن أحمد الحداد. طبع في نحو مائة ورقة.

١٢ـ رسالة للشيخ محمّد بن الشيخ أحمد بن عبد اللطيف الاحسائي.

١٣ـ «تحريض الأغبياء على الاستغاثة بالأنبياء والأولياء» للعلاّمة عبد الله بن إبراهيم ميرغني الساكن بالطائف.

١٤ـ رسـالة للشيـــخ محمّد صـالح الـزمزمي الشـافعي تقع في نحـو

عشرين كراساً حكى السيد علوي بن أحمد الحداد أنّه رآها أمام مقام إبراهيم بمكة.

١٥ـ «الانتصار لـلأولياء الأبرار» للعلاّمة طـاهر سنبل الحنفي. حكى السيد علوي المذكور آنفاً أنَّه رآه عند مؤلّفه بالطائف.

١٦ـ مجموعة أجوبة وردود نظماً ونثراً لأكابر علماء المذاهب الأربعة لا يحصون من أهل الحرمين الشريفين والإحساء والبصرة وبغداد وحلب واليمن وغيرها.

حكى عنها السيد علوي أيضاً وذكـر أنَّه أتى بها إليه رجل من آل عبد الرزاق الحنابلة الذين يقطنون الزبارة والبحرين.

١٧ــ كتاب ضخم يحتـوي على جملة مـن الأسئلة والأجـوبة كلهـا من علماء أهل المذاهب الأربعـة الحنفية والمالكية والشافعيـة والحنابلة حـدّث به أيضاً السيد المذكور كلّها في الرد على محمّد بن عبد الوهاب.

١٨ــ قصيدة للسيـد المنعمي ردّ بها على ابن عبـد الوهـاب إثر قتلـه جماعةً كانوا قد عَفَوا شعر رُؤُوسهم مطلعها:

أَفِي حلـق رأسٍ بـــالسكـــاكينِ «الحدُّ»

حـديث صحيح بـالأسانيـد عن جـدي

١٩ـ «مصباح الأنام وجلاء الظلام في ردّ شبهة البدعي النجدي التي أضلَّ بها العوام» للعـلاّمة السيـد علوي ابـن الحداد المتقدَّم ذكـره طبع سنـة ١٣٢٥ هـ بالمطبعة العامرية وما سبق حكايته عن مؤلفه منقول عنه.

٢٠ـ «الصواعق الإلهية» لأخيه سليمان بن عبد الوهاب «مطبوع».

٢١ـ كتاب لشيخ الإسلام بتونس المحقق إسماعيل التميمي المالكي المتوفى سنة ١٢٤٨ هـ وهو في غاية التحقيق والإحكام نقض فيه رسالة لابن عبد الوهاب طبعت في تونس.

٢٢ـ رسالة مسجّعة محكمة للمحقق الشيخ صالح الكواش التونسي طبعت ضمن كتاب «سعادة الدارين في الردّ على الفرقتين» نقض فيها مؤلّفها رسالة لابن عبد الوهاب.

٢٣ـ رسالة للعلاّمة المحقّق السيد داود البغدادي الحنفي مطبوعة.

٢٤ـ قصيدة للشيخ غلبون الليبي ردَّ بها على قصيدة الصنعاني التي مدح بها ابن عبد الوهاب تقع في أربعين بيتاً مطلعها:

سلامي على أهلِ الإصابةِ والرُّشدِ
وليس على نَجدِ ومن حلَّ في نجدِ

وهي مذكورة في سعادة الدارين.

٢٥ـ قصيدة أُخرى للسيد مصطفى المصري البولاقي يردّ فيها أيضاً على قصيدة الصنعاني ذكرت أيضاً في المصدر السابق تقع في مائة وستة وعشرين بيتاً مطلعها:

بحمد وليّ الحمد لا الذم أستبدي
وبالحقِّ لا بالخَلق للحقِّ أستهدي

٢٦ـ قصيدة ثالثة للسيد الطباطبائي البصري يردّ فيها هي الأُخرى على قصيدة الصنعاني وقد كان لهذه القصائد الأثر الأكبر في إرجاع الصنعاني عن غيّه الذي وقعَ فيه حتى بلغَ به الأمر إلى إنشاد بيتٍ يعلن فيه توبته ممّا بدرَ منه بقوله:

رجعتُ عن القول الذي قُلت في النجدي
فقد صحّ لي عنه خلاف الذي عندي

٢٧ـ «سعادة الدارين في الردّ على الفرقتين ـ الوهابية والظاهرية» للعلاّمة الشيخ إبراهيم السمهودي المنصوري المتوفى في العقد الثاني من هذا القرن وقد طبع في مجلدين.

٢٨ـ «الدرر السنية» في الرد على الوهابية لمفتي مكّة السيد أحمد زيني دحلان الشافعي المتوفى سنة ١٣٠٤ هـ وهو مطبوع.

٢٩ـ «شواهد الحق في التوسل بسيد الخلق» للشيخ يوسف النبهاني طبع في مجلد.

٣٠ـ «الفجر الصادق» لجميل صدقي الزهاوي مطبوع.

٣١ـ «إظهار العقوق ممّن منع التوسل بالنبي والولي الصدوق» للشيخ المشرفي المالكي الجزائري.

٣٢ـ رسالة في جواز التوسل للشيخ المهدي الوازناني مفتي فاس ردَّ فيها على محمد بن عبد الوهاب في منعه ذلك.

٣٣ـ «غوث العباد (في) بيان الرشاد» للشيخ مصطفى الحمامي المصري مطبوع.

٣٤ـ «جلال الحق في كشف أحوال أشرار الخلق» للشيخ إبراهيم حلبي القادري الإسكندري وهو كتاب جيد طبع في الاسكندرية سنة ١٣٥٥ هـ.

٣٥ـ «البراهين الساطعة» للعلاّمة الشيخ سلامة العزامي المتوفى سنة ١٣٧٩ هـ.

٣٦ـ «النقول الشرعية في الردّ على الوهابية» للشيخ حسن الشطي الحنبلي الدمشقي، مطبوع.

٣٧ـ رسالة أُخرى له أيضاً في تأييد مذهب الصوفية والردّ على من ناواهم، مطبوعة.

٣٨ـ رسالة في حكم التوسّل بالأنبياء والأولياء للشيخ محمّد حسنين مخلوف، مطبوعة.

٣٩ـ «المقالات الوفية في الردّ على الوهابية» للشيخ قزبك، مطبوعة.

٤٠ـ «الأقوال المرضية في الردّ على الوهابية» وهي رسالة صغيرة للشيخ عطا الكسم الدمشقي.

والردود على الوهابية أكثر مما ذكر إنّما اكتفينا بهذا العدد المبارك، وفيه غنى وكفاية، وكلّها لأهل السنَّة والجماعة وأمّا الشيعة فحدّث عنه ولا حرج وأوّل من ردَّ عليه، الفقيه الأكبر الشيخ جعفر كاشف الغطاء الكبير بكتاب

أسماه بـ «منهج الرشاد لمن أراد السداد» كتبه رداً على الرسالة التي بعثها سعود بن عبد العزيز إليه يشرح فيها مواقف الوهابية في المسائل الراجعة إلى التوحيد والشرك، وقد طُبع في النجف الأشرف عام ١٣٤٣ هـ، ثم توالى النقد من علماء الشيعة بعد تدمير قباب البقيع عام ١٣٤٤ هـ، إلى يومنا هذا، نشير إلى قليل من كثير مما طبع وانتشر باللغة العربية:

١ ـ الآيات البينات في قمع البِدَع والضلالات للشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء (ت ١٢٩٤ ـ م ١٣٧٣ هـ) طبع بالنجف الأشرف ١٣٤٥ هـ.

٢ ـ الآيات الجليَّة في ردّ شبهات الوهابية جزءان للشيخ مرتضى كاشف الغطاء (م ١٣٤٩ هـ).

٣ ـ إزاحة الوسوسة عن تقبيل الأعتاب المقدسة للشيخ عبد الله بن محمد حسن المامقاني (م ١٣٥١) طبع في النجف الأشرف مع كتابه مخزن المعاني.

٤ ـ البراهين الجليَّة في دفع شبهات الوهابية للسيد محمد حسن القزويني الحائري (م ١٣٨٠ هـ) طُبِعَ بالنجف ١٣٤٦ هـ.

٥ ـ التبرك للشيخ علي الأحمدي الميانجي طُبِعَ في بيروت.

٦ ـ دعوى الهدى إلى الورع في الأفعال والفتوى للشيخ محمّد جواد البلاغي (م ١٣٥٢ هـ)، طُبِعَ في النجف ١٣٤٤ هـ.

٧ـ الردّ على الـوهابية للشيخ محمد علي الغروي الأُردوبـادي طبع سنة ١٣٤٥ هـ.

٨ ـ الردّ على الـوهابية للسيد حسن الصدر الكـاظمي (م ١٣٥٤ هـ) طبع في بغداد ١٣٤٤ هـ.

٩ــ كشف الارتياب في أتبـاع محمّد بـن عبد الـوهاب للسيـد محسن الأمين العاملي الشامي (م ١٣٧٣ هـ) طبع في صيدا وبيروت.

١٠ــ المواسم والمراسم للسيـد جعفـر مرتضـى العاملي، يبحـث عن مشروعيّة إقامة مراسم الاحتفال في الأعياد أو مظاهر الحزن في المآتم، طبع في طهران.

١١ـ هـذه هي الوهـابيــة للشيــخ محمّد جــواد مغنيــة العـاملي (م ١٤٠٠ هـ) طبع في بيروت.

١٢ـ مـع الوهابيين في خُططهم وعقـائدهم لجعفر السبحـاني طُبع في طهران عام ١٤٠٦ هـ.

١٣ـ الوهابية في الميزان له أيضاً طبع في قم المشرفة عام ١٤٠٧ هـ.

١٤ـ وأخير الردود لا آخـرها: التوحيد والشرك في القرآن الكـريم، له أيضـاً استعــرض فيـه الآيـات الـواردة حــولها بإمعــان ودقّـة وفنَّـد جميـع مستمسكات الوهابيين فيها.

ولنكتف بهذا المقـدار وإلاّ فالـردود عليها من الشيعـة بألسنـة مختلفة كثيرة.

إلى هنا بلغنا الغـاية المتوخّاة من تبيين أُصول الإسـلام وأطلعنا القارئ الكريم على رأي القـرآن والسنَّة في المسائل التي انفرد فيها ابـن تيمية ومحمد ابن عبد الوهاب وأتباعه.

ومن رجع إلى هذه الأُصول وأمعن النظـر فيها، يستطيع أن يميز الحق عن البـاطل، والصحيح عن الـزائف، ومن تمسّك بها كانـت النجاة مصيرهُ، والفـلاح حليفه، ومن تخلَّـف عنها وقـابلها بـالـرفض والعناد كـان الخسران نصيبه.

وعليك أيها الواعي النبيه، والمتحرر من كل فكرة مسبقة، عرض كلّ ما يُلقى إليك من هـذه الطائفة، على تلـك الأُصول ففيها شـارة الحق، وهدى الذكر الحكيم ونور السنّة النبوية الشريفة.

نعم لقـد استفحـل أمر هـذه الطـائفـة في العصور المتـأخـرة بسعيهم المتواصل للتشويش على عقائد المسلمين ولكنّه صرير باب أو طنين ذباب:

مـا يضر البحـرُ أمسى زاخـراً ... أن رمـى فيـه غـلامٌ بِحَجَـر

فهم وإن كـانوا يتحيّنون الفـرص لتفريق كلمة المسلمين والتشـويش على تعاليم هـذا الدين، ولكنّهم سيرجعـون خائبين ملومين، وديـن الإسلام تحت كلاءة الله ورعـايته، فإنّ للحق دولـة وللباطل جولـة وسيحق الله الحقَّ بكلماته.

مصادر الكتاب

الكتاب	المؤلّف
ـ أ ـ	
١ ـ الاحتجاج	الطبرسي
٢ ـ احياء العلوم	الغزالي
٣ ـ أحكام القرآن (تفسير)	القرطبي
٤ ـ الأربعين	النبهاني
٥ ـ إرشاد الساري في شرح صحيح البخاري	ابن حجر العسقلاني
٦ ـ الاستيعاب	ابن عبد البر
٧ ـ أُسد الغابة	الجزري
٨ ـ الأسماء والصفات	البيهقي
٩ ـ الإصابة	العسقلاني
١٠ ـ اعلام الموقعين	ابن القيم
١١ ـ الأغاني	الاصفهاني
١٢ ـ الإمام الصادق والمذاهب الأربعة	أسد حيدر
١٣ ـ أخبار مدينة الرسول	محمد جمال

- ب -

١٤ـ البداية والنهاية .... ابن كثير

١٥ـ البرهان (تفسير) .... البحراني

- ت -

١٦ـ تاريخ آل سعود .... ناصر السعيد

١٧ـ تاريخ الجبرتي .... الجبرتي

١٨ـ تاريخ الخميس .... الديار بكري

١٩ـ تبرّك الصحابة .... الأحمدي

٢٠ـ تحذير الساجد .... الألباني

٢١ـ تذكرة الحفّاظ .... الذهبي

٢٢ـ تطهير الفؤاد .... محمد بخيت المصري

٢٣ـ تفسير الثعلبي .... الثعلبي

٢٤ـ تفسير الطبري .... الطبري

٢٥ـ تكملة السيف الصقيل .... الكوثري

٢٦ـ تهذيب التهذيب .... ابن حجر

٢٧ـ التوسّل والزيارة .... الفقي

٢٨ـ التوصل إلى حقيقة التوسّل .... الرفاعي

٢٩ـ تقريب التهذيب .... ابن حجر

- ج -

٣٠ـ جامع الأُصول .... الجزري

- ح -

٣١ـ حق اليقين .... السيد عبد الله شبر

٣٢ـ حلية الأولياء .... أبو نعيم الاصفهاني

- خ -

٣٣ـ الخصائص الكبرى .... السيوطي
٣٤ـ الخلاف .... الشيخ الطوسي

- د -

٣٥ـ دائرة المعارف الإسلامية .... وجدي
٣٦ـ درّة الحجال .... أبو العباس المكناسي
٣٧ـ الدر المنثور .... السيوطي
٣٨ـ دلائل النبوّة .... البيهقي

- ذ -

٣٩ـ ذخائر العقبى .... محب الدين الطبري

- ر -

٤٠ـ الرحلة .... ابن جبير
٤١ـ الرحلة .... ابن بطوطة
٤٢ـ الروح .... ابن القيّم
٤٣ـ رياض الجنّة .... الوادعي

- ز -

٤٤ـ زاد المعاد ابن القيّم

- س -

٤٥ـ سفينة البحار .... القمي
٤٦ـ سنن أبي داود .... أبو داود
٤٧ـ سنن ابن ماجة .... ابن ماجة
٤٨ـ سنن البيهقي .... البيهقي
٤٩ـ سنن الترمذي .... الترمذي
٥٠ـ سنن النسائي .... النسائي

٥١ـ السيرة الحلبية .... الحلبي
٥٢ـ السيرة النبوية .... ابن هشام

ـ ش ـ

٥٣ـ شرح نهج البلاغة .... ابن أبي الحديد
٥٤ـ شفاء السقام .... السبكي

ـ ص ـ

٥٥ـ صحيح البخاري .... البخاري
٥٦ـ صحيح مسلم .... مسلم
٥٧ـ الصواعق المحرقة .... ابن حجر

ـ ط ـ

٥٨ـ طبقات الشافعية .... السبكي
٥٩ـ الطبقات الكبرى .... ابن سعد

ـ ع ـ

٦٠ـ العبادة في الإسلام .... القرضاوي
٦١ـ العقود الدرّية .... العاملي

ـ ف ـ

٦٢ـ الفتاوى .... ابن تيمية
٦٣ـ فتح الباري في شرح صحيح البخاري .... العسقلاني
٦٤ـ فتح المجيد .... عبد الرحمان حفيد الشيخ
٦٥ـ فتنة الوهابية .... زيني دحلان
٦٦ـ فرقان القرآن .... سلامة القضاعي
٦٧ـ الفجر الصادق .... الزهاوي
٦٨ـ الفصل بين الأهواء والملل .... ابن حزم
٦٩ـ الفصول المهمّة .... العاملي

٧٠ـ الفقه على المذاهب الأربعة ... الجزيري

ـ ك ـ

٧١ـ الكافي ... الكليني

٧٢ـ كامل الزيارات ... ابن قولويه

٧٣ـ الكامل في التاريخ ... ابن الأثير

٧٤ـ كشف الارتياب ... العاملي

٧٥ـ كشف الشبهات ... ابن عبد الوهاب

٧٦ـ كنز العمال ... الهندي

ـ م ـ

٧٧ـ مجلة رسالة الإسلام (المصرية) ... دار التقريب

٧٨ ـ مجمع البيان ... الطبرسي

٧٩ ـ مجموعة الرسائل الكبرى ... ابن تيمية

٨٠ ـ مجموعة الرسائل والمسائل ... ابن تيمية

٨١ ـ مرآة الجنان ... اليافعي

٨٢ ـ مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ... القاري

٨٣ ـ مروج الذهب ... المسعودي

٨٤ ـ المستدرك على الصحيحين ... الحاكم النيسابوري

٨٥ ـ المسند ... ابن حنبل

٨٦ ـ المعجم الكبير ... الطبراني

٨٧ ـ مفاتيح الغيب (تفسير) ... الرازي

٨٨ ـ مفاهيم القرآن ... السبحاني

٨٩ ـ الملل والنحل ... الشهرستاني

٩٠ـ المنار (تفسير) ... رشيد رضا

٩١ـ موارد الظمآن ... الهيثمي

٩٢ـ المواهب اللدنية ... القسطلاني

٩٣ـ الميزان (تفسير) .... الطباطبائي

٩٤ـ ميزان الاعتدال .... الذهبي

-ن-

٩٥ـ النهاية .... ابن الأثير

٩٦ـ نهج البلاغة .... خطب وكلمات الإمام علي -عليه السلام-

٩٧ـ نور الثقلين .... الحويزي

-و-

٩٨ـ وسائل الشيعة .... الحر العاملي

٩٩ـ وفاء الوفا السمهودي

-ي-

١٠٠ـ اليواقيت والجواهر .... الشعراني

فهرس الكتاب

الموضوع	الصفحة

(٣)

(٤)

(٥)

التوحيد والشرك في العبادة ١٢١

(٦)

الاعتبار بالنيّات والضمائر لا بالصور والظواهر ١٥١

(٧)

الأنبياء والأولياء والقدرة الغيبية المأذونة ١٧١

(٨)

(٩)

(١٠)

(١١)

(١٢)

زيارة القبور في السنَّة النبويّة والسفر بقصد زيارة النبيّ الأكرم ﷺ ٣٠٥

خاتمة المطاف ٣٢١

ابن تيمية من منظار التاريخ

* جميع التواريخ بالسنّة الهجرية الشريفة.

الآن حضْحَصَ الحقُّ
فليتقدَّم المُخلِصون

الآن ـ وبعد أن وقفنا على الأُصول والضوابط المستفادة من القرآن الكريم والسنّة الشريفة وإجماع المسلمين وحكم العقل السليم ـ حَصْحَصَ الحق و اتضحت معالم الحقيقة لامعةً ساطعةً، وتبيّن أن ما يقوم به المسلمون من احتفاء بآثار الرسول الكريم وعترته الطيبة ـ صلوات الله عليهم اجمعين ـ واحتفال بذكرياتهم، وتوسّلٍ وتقرّبٍ بهم إلى الله تعالى، لاينبع إلاّ من أُصول قرآنية الجذور، وقواعد ضاربة في أعماق السيرة والتعاليم النبوية المحمدية الشريفة.

وفي ضوء ذلك تكون الأرضيّة المناسبة والقاعدة الصلبة للوحدة الإسلامية قد توفّرت وتهيّأت، وما على مفكري الأُمة الإسلامية وعلمائها الأماجد، إلاّ أن يتقدّموا بخطى واسعة ومخلصة لتوحيد الصف ورأب الصدع على أساسها، بعيداً عن البهت ، والرمي بالكفر والمروق من يتشّهد بالشهادتين ويأتي بالفرائض الإسلامية ويعبّر عن عواطفه الجيّاشة تجاه النبي وعترته ـ عليهم السلام ـ بألوان مشروعة من التعبير.

هذا والجميع يعلم بأنّ مجرد الدعوة إلى الوحدة ورأب الصدع لايكفي من دون الانطلاق من أُسس واقعيّة، فإنّ للوحدة ـ كما لكل حركة وقضيّة ـ أُسساً منطقية، ومنطلقات معقولة أبرزها الرجوع إلى الكتاب والسنّة في المسائل المختلف فيها، في مجال الفكر والعمل والنقاش العلمي البنّاء فيها، لإزالة الغبش وتبديد الوهم.

إنّ في القرآن الكـريم ـ ولله الحمـد ـ بيـاناً شافيـاً كافيـاً لكل ما يتنـازع فيه المسلمون، وخير السبل لرفع التنازع والتشاجر هو العودة إلى أحضان هذا الكتاب العظيم ثـم السنّة المطهـرة، والابتعاد عن الأحكـام المسبقـة، والمواقف العدائيـة، والاتهامات والمهاترات.

إنّه ليـس ممّا يـرتضيه الله ورسـوله أن يـرمىٰ المسلمون الأخيـار ، الطافحـة قلـوبهم بأنـوار التوحيـد، والمفعمة افئـدتهم بمحبـة الله ومودة رسـوله ، بـالشرك والكفر، لا لشيء إلاّ لشبهـة أو شبهات حصلـت للرّامين، من دون أن يحققـوا في الأمر، أو يستمعـوا إلى أدّلة الطرف الآخر أو يعيروا الكتـاب والسنّة وسيرة السلف والخلف من الصحـابة والتابعين والعلماء والمجتهـدين ، الاهتمام الكافي والعنـاية المناسبة اللازمة.

إنّ على مفكـرّي الأُمة الاسـلامية وعلمائهـا المخلصين الواعين ، أن يجهـزوا أنفسهم ويـوحّـدوا صفوف الأمّـة لمواجهة الغـزو الفكـري والثقافي الخطير الـذي يتعـرّض لـه المسلمـون في صميـم معتقـداتهم وأخـلاقهـم وخلفيـاتهم الـدينيـة والتاريخيـة، ولايفتحوا بـالنقاشات والمنـازعات الداخليـة غير المنطقية ثغـرة أمام الأعداء الحاقدين الذين لايـرحمون أحداً إن غلبوا ولايقيمون لشيء وزناً إن انتصروا لاسمح الله.

كاتب المحاضرات

جعفر الهادي